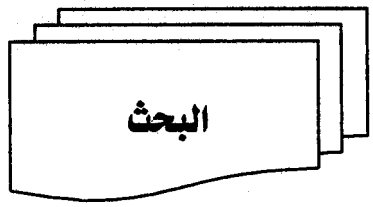

المخابرات على عهد النبي صلي الله عليه وسلم

إعداد

أ.د/ إمام الشافعي محمد حمودي

الأستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة

لجنة التحكيم

أ.د/ محمد محمد عبد القادر الخطيب عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د/ محمود عبد الفتاح شرف الدين عضو اللجنة العلمية المحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـــد ,,,

فمن الضرورة أن يكون لكل دولة إدارة للمخابرات، تكون إحدى المؤسسات الهامة فيها، ولا يمكن الاستغناء عنها، ويجب أن تقوم الدولة بتنظيمها، وتوفير الإمكانيات اللازمة لها.

والواقع أن قادة الدول يكونون قد أخلّوا بواجباتهم نحو وطنهم إذا لم يقومـــوا بمحاولـــة كشف الغطاء عن العدو الذي يواجهونه عندما تنشب الحروب.ذلك لأن الجاسوسية أمر لا مفـــرّ منه، فما دامت هناك حدود قائمة بين الدول وبعضها، فهي حتماً ســـتحاول أن تعـــرف أســـرار جيرانها، ولا يمكن للدولة أن تقدر قوتها وكفاءتها إلا بعد أن تعرف قوة عدوها، وتصل المخـــابرات ذروة واجباتها عندما تخدم أغراض واضعي السياسة، لأن معلومات المخابرات والسياسة الوطنية هما اللتان تكفلان الأمن القومي لأي دولة من الدول.

لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على معرفة أخبار عدوه في وقت الـــسلم والحـــرب، ليساعده ذلك على وضع خطة للتعامل مع هذا العدو ولكنه في نفس الوقت، كان حريصاً أشـــد الحرص على إخفاء أسرار المسلمين وحركة الجيوش الإسلامية عن أعدائهم، بل وكان ﷺ يأمر القادة بالاحتفاظ بالأسرار وعدم إفشائها لمن لا تلزمه سواء أكان صديقاً أو عدواً.

حيث كان للنبي ﷺ جهاز دقيق يجمع المعلومات عن الأعداء وهو ما يقابـــل جهـــاز المخابرات في الدول الحديثة، فقد وضع النبي ﷺ لهذا الجهاز أصوله وقواعده، وذلك بأن جعل له مقراً يُدَار منه، وموظفين للأعمال الكتابية السرِّية، ورجالاً بمواصـــفات خاصـــة يقومـــون بجمـــع المعلومات، بل والأكثر من ذلك أنه ﷺ قد قام بجمع المعلومات بشخصه الكريم ليصبح بـــذلك قدوة للمسلمين وقادتهم في كل شيء.وكان لجهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ وسائل متعددة

في جمع المعلومات عن العدو، ولم يكتف النبي ﷺ بجمع المعلومات عن العدو فقط، بل قام بحجب أخبار المسلمين عن العدو بالعديد من الوسائل التي تَنُمّ عن فكر عسكري مخابراتي فائق القدرة.

وعلى الرغم من البدائية التي كانت تسود هذا العصر، لكن المرء سوف يتعجب عندما يجد أن جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ كان لا يقل في شيء عن أجهزة المخابرات الحديثة، اللهم إلا في تعدد وسائل الاتصال الحديثة.

هذا وقد استفاد المسلمون من هذا الجهاز، أكبر استفادة، لأنه ضمن لهم معلومات صحيحة، ترتب عليها خطة محكمة، وترتب على هذه الخطة عنصر المباغتة للعدو، والذي كان بدوره بمثابة مفتاح النصر للمسلمين في جميع غزواتهم وسراياهم.

ومن خلال إهتمامي الخاص بالسيرة النبوية العطرة، آثرت أن أكتب عن " المخابرات على عهد النبي ﷺ ، إذ لم أعثر على بحث متخصص في ذلك، برغم كثرة الكتابات عن السيرة النبوية، وقد دفعني إلى ذلك أيضاً، ما تردد في الوقت الحاضر من أقاويل عن براعة بعض أجهزة المخابرات ــ خاصة الأوروبية والأمريكية ــ وقدرتها على اختراق الدول، وادعاءهم بأن العالم قد أصبح بالنسبة لهم " قرية صغيرة " فأردت أن أبرز مدى التقدم العسكري والمخابراتي للمسلمين على عهد النبي ﷺ وأن المسلمين كانوا من أبرع الأمم في دنيا المخابرات، وأن المسلمين لو اتبعوا خُطى النبي ﷺ وجهاز مخابراته، لأصبح العالم بالنسبة لهم " حجرة صغيرة ".

هذا ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها في دراسة هذا الموضوع كتاب " المغازي " لمحمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) والكتاب كما يبدو من اسمه مُنصّب على أعمال النبي ﷺ العسكرية والمخابراتية طوال مدة العهد النبوي، ويكفي ما قاله عنه المؤرخ ابن كثير ــ والذي اعتمد عليه بدوره ــ بقوله [1] : " والواقدي عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرز غالباً، فإنه من أئمة هذا الشأن وهو صدوق في نفسه مكثار، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه ".

ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها كتاب " نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية " للكتاني ت (١٩٦٢م) وهو يقوم بشرح كتاب " تخريج الدلالات السمعية "

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٤٠.

للتلمساني، بأسلوب عصري مبسط، وقد استفدت منه كثيراً في معرفة الوظائف التي كانت على عهد النبي ﷺ ومنها رجال مخابرات النبي ﷺ هذا إلى جانب غيرهما من المصادر والمراجع مما هو مثبت في قائمة المصادر والمراجع والتي يضيق المقام عن ذكرها.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة.

أما المقدمة : فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وخطة البحث وتقسيمه.

أما التمهيد : فهو عن مفهوم لفظ المخابرات، والألفاظ المرادفة له والمتعلقة به.

أما الفصل الأول : فهو عن نشأة جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ .

أما الفصل الثاني : فعن تطور جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ .

أما الفصل الثالث :فعن طرق جهاز المخابرات في جمع المعلومات على عهد النبي ﷺ أو " المخابرات الإيجابية"

أما الفصل الرابع : فعن طرق مكافحة التجسس على المسلمين على عهد النبي ﷺ أو " المخابرات الوقائية".

أما الفصل الخامس : فهو عن حرب المخابرات بين المسلمين وأعداء الدولة الإسلامية.

أما الفصل السادس : فهو عن تقييم جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ

أما الخاتمة : فذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ثم جاءت الملاحق وذكرت فيها أسماء رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ مرتبة حسب الحروف الهجائية، ثم ثبت المصادر والمراجع مرتباً هجائيا.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى من علمنا وأرشدنا إلى أمور الدين والدنيا، محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مفهوم لفظ المخابرات

جاء فى لسان العرب [1] : أن الخبر : ما أتاك من نبأ عمن تستخبر، والخبر النبأ.. وأخبره نبأه واستخبره : سأله عن الخبر وطلب أن يخبره، والاستخبار والتخبر : السؤال عن الخبر، وفى حديث الحديبية : أنه ﷺ بعث عيناً من خزاعة [*] يتخبر له خبر قريش أى يتعرف، يقال : تخبر الخبر واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها.. ورجل خابر وخبير : عالم بالخبر واختبره خبورة : أنبأه ما عنده.

فإذا كان هذا هو أصل كلمة المخابرات فى المعاجم اللغوية العربية، فإن كلمة مخابرات فى اللغة الإنجليزية تعنى معلومات ــ أو أخبار ــ **Intelligence**. وجاء فى أحد التعريفات للمخابرات : أنها المعرفة والعلم بالمعلومات التى يجب أن تتوفر لدى كبار المسئولين من المدنيين والعسكريين حتى يمكنهم العمل لتأمين سلامة الأمن القومي. [2]

وورد فى قاموس المصطلحات العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية **Dictionary U.S.Military Terms For Joint Usage** تعريفاً للمخابرات على النحو التالي : " المخابرات نتيجة جمع، وتقييم، وتحليل، وإيضاح، وتفسير كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات عن أي نواحي لدولة أجنبية أو لمناطق العمليات، والتى تكون لازمة لزوماً مباشراً للتخطيط ". [3]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ــ ط ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م. مادة خبر.

(*) سميت خزاعة ؛ لأنهم تخزعوا ــ تأخروا وانقطعوا ــ من ولد عمرو بن عامر حين اقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلوا بمر الظهران، فأقاموا بها. ابن هشام : السيرة النبوية. تحقيق / طه عبد الرءوف سعد ــ ط ــ دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع. جـ١ ص ٨٥.

(٢) أحمد هاني : الجاسوسية بين الوقاية والعلاج. ط ــ الشركة المتحدة للنشر ــ القاهرة سنة ١٩٧٤م. ص٢١.

(٣) المرجع السابق. ص ٢٣.

وعرفها أحمد هاني تعريفاً شافياً فقال [1] : " هي الخطى المتناسقة المدروسة الموجهة لاستخدام كل الوسائل المتيسرة للحصول على كافة أنواع المعلومات وتصنيفها وتقديرها، لإمداد المسئولين بالحقائق والتقديرات الواقعية فى الوقت المناسب، لوضع استراتيجية الدولة، ولرسم سياسات معينة، ولاتخاذ القرارات السليمة التى تكفل سلامة الأمن القومي للدولة، وللعمل ضد عمليات المخابرات المعادية، لمنعها من إلحاق الضرر بالدولة فى أية صورة من الصور ".

هذا ويقسم العلم العسكري نشاط المخابرات إلى نوعين هما : النوع الأول : وهو النشاط الإيجابي للمخابرات ويهدف إلى الحصول على المعلومات عن العدو ــ التجسس ــ والنوع الثاني : وهو النشاط الوقائي أو ما يعرف (بالمخابرات الوقائية) أو المخابرات المضادة، وهو يهدف إلى مواجهة أعمال المخابرات المعادية، وإلى حرمان العدو من الحصول على المعلومات والأسرار[2]، سواء كان هذا الحصول على المعلومات بالصدفة أو بمجهودات إيجابية، وعرقلة كل محاولات تبذل للحصول عليها، ووقاية الدولة من نشاط الجواسيس والتخريب المادي والمعنوي.[3]

وإذا كان هذا هو نشاط المخابرات فهناك أيضا نوعين للمخابرات قد تتشابها مع أنواع نشاطها هما : المخابرات الاستراتيجية، وهي : المعلومات الخاصة بنوايا وإمكانيات الدول الأجنبية، ومدى التعرض لأوجه الضعف فيها وتكون هذه المعلومات هي أساس التخطيط للعمليات العسكرية فى وقت الحرب، أما المخابرات التكتيكية [*] : فهي عبارة عن المعلومات التى يمكن أن تستخدم لحل مشكلة مخابرات معينة، وهي فى زمن الحرب تسمى بمخابرات المعركة وهي بصفة عامة تتعلق بكل مظهر عسكري للعدو أو العدو المحتمل. [4]

---

(١) المرجع السابق. ص ٣٠.

(٢) اللواء / محمد محفوظ : المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٧٦م. ص ١٤٩.

(٣) أحمد هاني : الجاسوسية. ص ٢٩.

(*) التكتيك Tactics : هو ما يجرى أثناء القتال الفعلى فى الميدان ويشمل أعمال القتال المختلفة وتدابيرها، وباختصار هو (فن القتال). اللواء محمد محفوظ : المدخل. ص ٤٣٥.

(٤) هاني : الجاسوسية. ص ٢٧ ــ ٢٨.

مفهوم لفظ التجسس (*)

قال ابن منظور (١) : " التجسس : اللمس باليد، وجس الشخص بعينه: أحد النظر إليه ليستبينه ويستثبته... والجس:جس الخبر، ومنه التجسس، وجس الخبر وتجسسه : بحث عنه وفحص".

ويقابل لفظ التجسس لفظ التحسس وهو من أحسست بالخبر وأحسته وحسيت إذا عرفت منه طرفاً... وتحسس الخبر : تطلبه وتبحثه والتحسس شبه التسمع والتوصف... وتحسست من الشئ أي تخبرت خبره (٢) وقيل التجسس، بالجيم : التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال فى الشر... وقيل : التجسس بالجيم، أن يطلبه لنفسه، وقيل بالجيم : البحث عن العورات، وبالحاء الاستماع، وقيل : معناهما واحد فى تطلب معرفة الأخبار. (٣)

فالتجسس أو الجاسوسية هي ذلك الجهد من مجهود المخابرات الشامل الذى يهدف إلى التفتيش السري على مجهودات الدول الأخرى، وللتحقق من قوتها وتحركاتها، على أنها فى تحليلها النهائي لا تزال تعتبر جزءاً لا يتجزأ من التخطيط الإجمالي الشامل للمخابرات. (٤)

ويطلق على من يقوم بأعمال التجسس لفظ [الجاسوس] وهو صاحب سر الشر، والناموس : صاحب سر الخير... وقيل الجاسوس : الذى يتجسس الأخبار. (٥) كما يطلق على من يقوم بأعمال التجسس أيضا لفظ [العين]، والعين : حاسة البصر والرؤية... ومنه قيل : ذو

(*) لما كان التجسس من أكبر مهام المخابرات ــ كما ذكر آنفاً ــ فى مختلف العصور وكان هو اللفظ الغالب استعماله على عهد النبي ﷺ فى كل مهام المخابرات الإسلامية كان لزاماً أن نعرف به وبكل الألفاظ المتعلقة به.

(١) لسان العرب : مادة جسس.

(٢) المصدر السابق : مادة حسس.

(٣) المصدر السابق : مادة جسس.

(٤) هاني : الجاسوسية. ص ٦٨.

(٥) لسان العرب : مادة جسس.

العينتين للجاسوس... فالعين هو الذى يبعث ليتجسس الخبر... وبعثنا عيناً أى طليعة، ويعتان لنا أى يأتينا بالخبر... والعين الديدبان والجاسوس. (١)

وجدير بالذكر أن لفظ التجسس يقابله لفظ آخر غير التحسس، هو لفظ (التحسب) وتحسب الخبر : استخبر عنه، حجازية... وذهب فلان يتحسب الأخبار أى يتجسسها، بالجيم، ويتحسسها ويطلبها تحسباً (٢)، وكان رسول الله ﷺ يستخدم لفظ (التحسب) كبديل للفظ التجسس من ذلك أنه ﷺ أرسل عبد الله بن رواحة ليفاوض يهود خيبر ويأتيه بخبرهم، فلما طالت غيبته كان رسول الله ﷺ يحدث أصحابه فقال لهم تمشوا بنا إلى الثنية ثنية الوداع نتحسب من أصحابنا خبراً، فخرجوا معه ﷺ (٣)، ومن ذلك أيضا قول الواقدي (٤) : " أقام رسول الله ﷺ بذى قرد يوماً وليلة يتحسب الخبر ".

هذا وإتماماً للفائدة فهناك لفظ آخر متعلق بمهام المخابرات ــ وعلى الرغم من ظهوره حديثاً إلا أنه كان موجودا بالمعنى فيما سبق ــ وهو لفظ (الطابور الخامس) وهو تعبير شاع تداوله فى الآونة الأخيرة فى الحرب العالمية الثانية، ويستمد هذا التعبير معناه من طبيعة التشكيلات العسكرية، حيث تقف القوات المسلحة فى تشكيل رباعي وعند وقوفها فى مواجهة الشمس يصبح لهذا التشكيل الرباعي ظلاً يمثل طابوراً خامساً يضاف إلى الطابور المشكل أساساً من أربعة أفراد، ومن هنا ظهر لفظ الطابور الخامس، ويتضمن هذا التعبير عدة معاني منها : أنه يوجد خلف التشكيل فى صورة مستترة ويتحرك مع تحركه ولكن فى خفاء. (٥)

---

(١) المصدر السابق : مادة عين.

(٢) لسان العرب : مادة حسب.

(٣)الواقدي : المغازي. تحقيق د/ مارسدن جوسن. ط ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع. جـ٢ ص ٥٦٨.

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٤٦.

(٥)عبد التواب رضوان : مصر والحرب النفسية. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م. ص ٦٨ ــ ٦٩.

وعلى الرغم من أن هذا اللفظ ـــ الطابور الخامس ـــ لم يكن مستخدماً على عهد النبي ﷺ إلا أنه كان موجوداً من حيث المعنى، ذلك أن المؤمنين فى العهد المكي كانوا مبتلين، يعذبون، ويضطهدون، ومع ذلك صبروا واحتسبوا، فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين، وفريق الكفار الجبارين، ولم يكن هناك " منافقون " أما فى المدينة، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهو أمر معهود مع أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام، وتحب الكفر وأهله، ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به.(١)

فقد كان المنافقون في المدينة ومن حولها من الأعراب على عهد النبي ﷺ بمثابة الطابور الخامس لكفار قريش ولليهود في المدينة، وذلك ما سوف نذكره ـــ إن شاء الله ـــ في الفصول القادمة من هذا البحث.

(١) القحطاني : الولاء والبراء في الإسلام. ط ـــ دار طيبة للنشر ـــ الرياض ـــ السعودية ـــ الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٩هـ. ص ٢٠٤.

أهمية جهاز المخابرات

من الضرورى أن يكون لكل دولة إدارة للمخابرات كإحدى المؤسسات الهامة فيهـا، لا يمكن الاستغناء عنها، وتهتم الدولة بتنظيمها وتوفير الإمكانيات اللازمة لها، وتعمل على تطويرها حتى تتوفر لها القدرة على تحقيق أهدافها على أكمل وجه. (١)

وقد تنبّه المفكرون المسلمون القدماء لأهمية وخطورة الدور الذي تقوم به المخـابرات في الخدمة والدفاع عن الدول من ذلك قول الماوردي (٢) : " من واجبات الملك أن يجعل على الرعية عيوناً ممن يداخلون طبقاتهم، وجواسيس يتجسسون أخبارهم، ويتبعون أنبـاءهم ولا سـيما في مواضع الظنّة والتهمة، ويجتهدون في أن يحمل ذلك السر، مـن يأمـن ناحيتهـم، ويعلـم أمانتهم، فإن ذلك من محكم التدبير، وبليغ التقدير، وصواب السياسة ".

وعلى الرغم من أنه يفهم من كلام الماوردي ــ السالف الذكر ــ أن يهتم الملـك ــ أو أي حاكم ــ بأمور التجسس على الرعية وبث العيون بينهم، دون الاهتمام ببث العيون بين أعداء الدولة، إلا أن بث الجواسيس بين الرعية، سوف يمنع أي من الرعية مـن أن يـصبح جاسوسـا للأعداء، وبهذا تكون مخابرات الملك ــ أو الحاكم ــ قد قامت بدور هام من أدوار المخابرات هو دور المخابرات الوقائية.

ويقول الهرثمي (٣) : " أحكم أمر جواسيسك فإنه رأس أمر الحرب" كما أنه يحـذر مـن كشف الجواسيس حتى لرجال الجيش ــ خاصة الجنود ــ فيقول (٤) : " توق أن يعرف أحد مـن أهل عسكرك عيونك وجواسيسك، فيتحدث لهم في المجالس ويشار إليهم بالأصابع ".

---

(١) هاني : الجاسوسية. ص ٦٤ .

(٢) فؤاد عبد المنعم : أبو الحسن الماوردي وكتاب نصيحة الملوك. ط ــ مؤسسة شباب الجامعة ــ الإسكندرية. لم تذكر سنة الطبع ص ٣٨ .

(٣) الهرثمي : مختصر سياسة الحروب. تحقيق / عبد الرؤف عون. ط ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ مصر ــ سلسلة تراثنا ــ لم تذكر سنة الطبع. ص ٢٣ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٤.

ويقول الطرسوسي أيضا منبهاً على أهمية بث الجواسيس في معسكر الأعداء [1] " يجب على المقدم أن يبث العيون في عسكر عدوّه ، وينشر المتحرّين في جيش محاربه ليطلعوه على خفى أمره.. لأنه إذا استترت المكائد عنه، وخفيت مطالب عدّوه منه ووقعت الغفلة عنها، استفحل داؤها فأهلك وعسر دواؤها وكان ذلك سببا للبوار ". كما اهتم قادة العصر الحديث بخطورة المخابرات من ذلك قول نابليون بونابرت [2] : " إن جاسوساً واحداً في الموضع المناسب هو بمثابة عشرين ألف جندي في الميدان " فالأمم كلها تنتهج الجاسوسية حتى في أوقات السلم، وفي الواقع أن قادة الدول يكونون قد أخلوا بواجباتهم نحو مواطنيهم إذا لم يقوموا بمحاولة كشف الغطاء عن العناصر التي قد يواجهونها في حالة نشوب الحرب [3] هذا وتصل المخابرات ذروة واجباتها عندما تخدم أغراض واضعي السياسة، وعند هذا الحد تتوقف السياسة الوطنية على معلومات المخابرات وبهذه العلاقة الوطيدة بين السياسة الوطنية، وبين معلومات المخابرات يكون التوازن التام فقط بين الاثنين ــ السياسة الوطنية ومعلومات المخابرات ــ هو الذي يكفل الأمن القومي للدولة. [4]

وعلى الرغم من الدور الكبير الذي تؤديه المخابرات في خدمة دولها إلا أن الغالبية العظمى من أفراد الشعوب المختلفة في جميع العصور السابقة ــ فضلا عن كثير من حكامهم ــ كانوا يعتبرون العمل في هذا الميدان لا يرتقي إلي مستوى الأعمال العادية أو الشريفة، ولا يزال جانب كبير من الرأي العام العالمي والمحلي يميل إلي تأييد هذا الرأي. [5]

لكن على الرغم من هذا الرأي فإن الجاسوسية أمر لا مفرّ منه، فما دامت هناك حدود قائمة بين الدول وبعضها، فهي حتماً ستحاول أن تعرف أسرار جيرانها، ولا يمكن للدولة أن تُقدّر

---

(١) الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. تحقيق / كارين صادر. ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ١٩٩٨م. ص ٢٣٤.

(٢) نور صالح : جواسيس غيروا مجرى التاريخ. ط ــ الشركة المتحدة للنشر ــ القاهرة سنة ١٩٧٣م ص ٥.

(٣) هاني : الجاسوسية. ص ٧٣.

(٤) المرجع السابق : ص ٩٦.

(٥) نور صالح : جواسيس غيروا مجرى التاريخ. ص ١٢٧.

قوتها وكفاءتها إلا بعد أن تعرف قوة عدوها [1]. كما أن الحرب قديماً وحديثاً تقوم على مخادعة كل عدو لعدوه، والإيقاع به حتى يتفوق عليه ويهزمه، ويحقق هدفه الذي دفعه للحرب معه.[2]

ويؤكد هذا القول النبي ﷺ فعن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال النبي ﷺ : " الحرب خدعة " ومعنى الحرب خدعة، أي الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر[3]. وقال ذلك النبي ﷺ يوم الأحزاب [*]، لما بعث نعيم بن مسعود، وأمره أن يخذل بين قريش وغطفان واليهود، وأشار بذلك إلي أن المماكرة أنفع من المكاثرة. [4]

فيجوز للدولة المحاربة أن تلجأ في حربها إلي الخدع بشرط ألا تصل فيها إلي حد الغدر والخيانة ومن أمثلة خدع الحرب القيام بمناورات كاذبة، وإيقاع العدو في كمين وتضليله بالمعلومات الكاذبة إخفاء لما تنوى القيام به من حركات عسكرية، كما يعتبر من الخدع المشروعة العمل بواسطة الأعوان والمأجورين على إثارة الشغب في دولة العدو أو نشر الأخبار الكاذبة لغرض إضعاف القوة المعنوية. [5]

---

(١) هاني : الجاسوسية. ص ٧٣.

(٢) د/ محمد أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ط ــ مطبعة الحلبي ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م. ص ١٨٤

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق / محب الدين الخطيب. ط ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع. جـ ٦ ص ١٥٨. كتاب الجهاد.

(*) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل في الفصول القادمة من هذا البحث .

(٤) الكتاني : نظام الحكومة النبوية. المسمى بالتراتيب الإدارية. تحقيق / على محمد دندل. ط ــ دار الكتب العلمية. بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م ص ٣٩٤.

(٥) محمود خطاب. الرسول القائد. ط. دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان. الطبعة الثانية سنة ١٩٩٦٠م. ص ١٥٣.

وعلى الرغم من أن النبي ﷺ قال أن الحرب خدعة لظروف الحرب في ذلك الوقت، إلا أن العقيدة العسكرية الإسلامية عقيدة سلمية دفاعية، غير عدوانية، لا تقاتل للسيطرة أو التوسع، أو الاستيلاء، وإنما تقاتل للدفاع ولرد العدوان، والأمة الإسلامية ملتزمة بتلك العقيدة التزامها بعقيدة الإسلام ولا تملك تغييرها بل إن على المسلمين إذا خافوا من قوم خيانة ألا يسبقوهم إلي الخيانة، إذا كان بينهم وبينهم عهد، بل يجاهروهم بنقض العهد كما يقول الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾ (*) (١) كما أن معاركه ﷺ كانت حرب فروسية بكل معنى الكلمة، الغرض منها حماية حرية نشر الإسلام وتوطيد أركان السلام، فلم ينقض عهداً، ولم يمثل بعدو، ولم يقتل ضعيفاً، ولم يقاتل غير المحاربين.(٢)

(*) سورة الأنفال : آية ٥٨ .

(١) اللواء / محمد محفوظ : المدخل إلي العقيدة . ص ٤٧.

(٢) محمود خطاب : الرسول القائد ﷺ ص ٣٧.

مشروعية التجسس فى الإسلام

كان رسول الله ﷺ يسأل الناس عما فى الناس، وليس هذا من باب التجسس المنهى عنه (*)، وإنما هو ليعرف به الفاضل من المفضول فيكونون عنده فى طبقاتهم، وليس هو من الغيبة المنهى عنها، وإنما هو من باب النصيحة المأمور بها... وهذا إرشاد للحكام إلى أن يكشفوا ويتفحصوا بل ولغيرهم ممن كثر أتباعه كالفقهاء والصالحين والأكابر، فلا يغفلوا عن ذلك لئلا يترتب عليه ما هو معروف من الضرر. (١)

فإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ فى معرفة أخبار المسلمين داخل دولته، فقد كان ﷺ يرسل الجواسيس إلى معسكرات الأعداء لمعرفة أخبارهم ونواياهم تجاه المسلمين، وفى ذلك ما يفيد جواز مشروعية التجسس فعن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال : " ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندب الناس فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ : إن لكل نبى حواريا، وحوارى الزبير بن العوام " وفى الحديث جواز استعمال التجسس فى الجهاد. (٢)

كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ يكتم إسلامه، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه إن مقامك بمكة خير (٣)، وعندما ذكر ابن حجر العسقلاني شرح الحديث الخاص بشروط الجهاد والمتعلق بصلح الحديبية قال (٤) : " وفى هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم أشياء تتعلق بالجهاد منها : جواز الاستتار من طلائع المشركين

(*) إشارة إلى الحديث الذى رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ".
صحيح مسلم. ط ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع ــ جـ٨ ص ١٠.

(١) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٩٣.

(٢) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ٥٣.

(٣) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٩١.

(٤) ابن حجر : فتح البارى. جـ٥ ص ٣٥٢.

ومفاجأتهم بالجيش لطلب غرتهم، وجواز التنكيب عن الطريق السهل إلى الطريق الوعر لدفع المفسدة وتحصيل المصلحة، واستحباب تقديم الطلائع (**) والعيون بين يدي الجيش، والأخذ بالحزم فى أمر العدو لئلا ينالوا غرة المسلمين، وجواز الخداع فى الحرب ".

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً حرصاً شديداً على معرفة أخبار عدوه فى وقت السلم والحرب، ليساعده ذلك على وضع خطة فى التعامل مع هذا العدو، ولكنه فى نفس الوقت كان حريصاً أشد الحرص على إخفاء أسرار المسلمين وحركة الجيوش الإسلامية عن أعدائهم ؛ لأن ذلك يضعفهم تخطيطاً وتنفيذاً وتقويماً، ومن أجل ذلك كان يحتفظ بالأسرار ويأمر القادة بالاحتفاظ بالأسرار وعدم إفشائها لمن لا تلزمه سواء كان صديقاً أو مسلماً أو عدواً. (١)

وذكر القحطاني صور موالاة الكفار فكان منها : التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، الدخول فى أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال فى صفهم (٢)" فقد حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها، قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (*)، وقوله جل وعلا أيضا : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ

(**) كانت هذه الطلائع أو السرايا على عهد النبي ﷺ فى مقدمة الجيش، وقد تتقدم الجيش فى السير، وهذه السرايا تمسح المنطقة، وتمهد الطريق أمام الجيش، فتبصر الكمين وتبحث عن عيون الأعداء وجواسيسهم، والهدف من عملها ليس قتالياً، بل الهدف جمع المعلومات ومراقبة تحرك العدو، وتزويد القيادة بكل ما تجمعه من معلومات. د/ محمد أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ٨٦ .

(١) د/ محمد أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية : ص ١٥٧.

(٢) القحطاني : الولاء والبراء فى الإسلام. ص ٢٤٦.

(*) سورة النساء : آية ٨٣.

يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ﴾ (**). (١)

وإذا كان هذا هو حكم الإسلام فى جواز التجسس فى الجهاد أو على الغير من الأعداء ـــ بحكم الواقع الفعلي فى تجسس جميع الدول بعضها على بعض كما تقدم ذكره فى أهمية المخابرات ـــ إلا أن التجسس على أخبار المسلمين له وضع آخر فى الإسلام. فالتجسس على المسلمين فى الإسلام خيانة عظمى، وكبيرة من الكبائر إذا فعله المسلم، وهو من صور موالاة الكفار ـــ كما ذكر آنفاً ـــ التى يتراوح الحكم فيها بين الكفر المخرج عن الملة، إذا كان تجسسه حباً فى انتصار الكفار، وعلو شوكتهم على المسلمين، وبين الكبيرة من كبائر الذنوب إذا كان لغرض شخصي أو دنيوي أو جاه أو ما أشبه ذلك.(٢)

حكم الجاسوس الكافر :

إن جاسوس الكفار، إذا أطلع عليه بعض المسلمين لا يكتم أمره، بل يرفعه إلى الإمام ليرى فيه رأيه (٣) وتكاد تكون جميع الروايات وآراء الفقهاء والعلماء تتفق على أن الجاسوس الكافر الذى يطلع على أخبار المسلمين وينقلها لأعدائهم، جزاءه القتل. فعن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : " أتى النبي ﷺ عين من المشركين ـــ وهو فى سفر ـــ فجلس عند أصحابه يتحدث، ثم انفتل فقال النبي ﷺ : اطلبوه واقتلوه. فقتله فنفله سلبه "... وكان الباعث على قتله أنه اطلع على عورة المسلمين وبادر ليعلم أصحابه فيغتنمون غرتهم وكان فى قتله مصلحة للمسلمين. (٤)

(**) سورة الأحزاب : آية ٦٠.

(١) محمود خطاب : الرسول القائد. ص ٣٨.

(٢) القحطاني : الولاء والبراء فى الإسلام. ص ٢٩٩.

(٣) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ١٤٤.

(٤) المصدر السابق : جـ٦ ص ١٦٨ ـــ ١٦٩.

ومن ذلك أيضا أن رسول الله ﷺ كان فى طريقة لغزوة المريسع وقتال بنى المصطلق، فأصاب عيناً للمشركين فقالوا له : ما وراءك ؟ أين الناس؟ قال : لا علم لى بهم، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لتصدقن أو لأضربن عنقك. قال : فأنا رجل من بلمصطلق، تركت الحارث بن أبى ضرار قد جمع لكم الجموع وتجلب إليه ناس كثر، وبعثنى إليكم لآتيه بخبركم وهل تحركتم من المدينة، فأتى عمر بذلك رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وعرضه عليه، فأبى وقال : لست بمتبع دينكم حتى أنظر ما يصنع قومى، إن دخلوا فى دينكم كنت كأحدهم، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجل منهم. فقال عمر : يا رسول الله اضرب عنقه؟ فقدمه رسول الله ﷺ فضرب عنقه. (١)

ومن شواهد السيرة النبوية أيضا الدالة على قتل الجاسوس الكافر، أنه بعد غزوة أحد أخطأ الطريق فى العودة إلى مكة معاوية (*) بن المغيرة بن أبى العاص بن أميه، وتخلف عن قريش فى الرجوع ودخل دار عثمان ابن عفان ﷺ بالمدينة، فتشفع له عند رسول الله ﷺ فوهبه ﷺ له ثلاثة أيام، وأقسم لئن أقام بعدها ليقتلنه، فجهزه عثمان وقال له : ارتحل. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد (**)، وأقام معاوية ليعرف أخبار النبي ﷺ فلما كان اليوم الرابع قال النبي ﷺ :إن معاوية أصبح قريباً ولم يبعد، فاطلبوه، فطلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فأدركاه فقتلاه (٢)، فكل الشواهد الواردة فى السيرة النبوية تؤكد على أن الجاسوس الكافر مصيره القتل، وعلى هذا قال الفقهاء المسلمون ومنهم القاضى أبو يوسف الذى يقول (٣) : " وسألت

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٤٠٦.

(*) كان معاوية هذا هو الذى جدع أنف حمزة ومثل به مع من مثل به. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة السادسة سنة ١٩٩٥م. جـ٢ ص ١٦٥.

(**) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة. الحموى : معجم البلدان. ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع.جـ٢ ص ٣٠١.

(٢) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٦٥.

(٣) أبو يوسف : الخراج ـ ط ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع ص ١٩٠.

يا أمير المؤمنين ــ يقصد هارون الرشيد ــ عن الجواسيس يوجدون وهم من أهل الذمة، أو من أهل الحرب أو من المسلمين إن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة، ممن يؤدون الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة ".

حكم الجاسوس المسلم :

إذا كان مصير الجاسوس الكافر هو القتل ــ كما ذكر آنفاً ــ فإن الجاسوس المسلم الذى يكشف أسرار دولة الإسلام للأعداء موضع خلاف بين الفقهاء والعلماء المسلمين. يقول القرافى [1] : " إذا كان الجاسوس مسلماً فقيل يقتل : واختلف فى توبته، وقيل : إن ظن به الجهل، وكان منه المرة نكل، وإن كان معتاداً، قتل، وقيل يجلد جلداً منكلاً، ويطال سجنه بمكان بعيد من المشركين ".

وفى قصة حاطب بن أبي بلتعة [*] ــ كما سيرد ذكرها بالتفصيل فيما بعد ــ عندما أراد أن يخبر قريش بنية النبي ﷺ بفتح مكة علق ابن قيم الجوزية على الحديث بقوله [2] : " وفيه جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً ؛ لأن عمر رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة الخبر، ولم يقل رسول الله ﷺ : لا يحل قتله إنه مسلم، بل قال : وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم، فأجاب بأن فيه مانعاً

---

(١) القرافى : الذخيرة. تحقيق / محمد بو خبزة. ط ــ دار الغرب الإسلامي ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م. جـ٣ ص ٤٠٠.

(*) هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة... كان حسن الجسم خفيف اللحية وهو من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ مات بالمدينة سنة ثلاثين. ابن سعد : الطبقات الكبير. تحقيق د/ علي محمد عمر. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٢م. جـ٣ ص ١٠٦.

(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد. تحقيق / عبد القادر حسونة. ط ــ دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م. جـ٣ ص ٣٦٥.

من قتله، وهو شهوده بدراً، وفى الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع، وهذا مذهب مالك، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب، والصحيح، أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى فى قتله مصلحة للمسلمين قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، استبقاه ".

هذا ويؤكد كلام ابن قيم الجوزية الراجح فى أن حكم الجاسوس المسلم مرده إلى الإمام، ما حدث من أبي لبابة بن عبد المنذر (*). ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل أبا لبابة بن عبد المنذر إلى بنى قريظة ليفاوضهم بناءً على طلبهم، فأومأ إلى حلقه مشيراً بذلك إلى نية رسول الله ﷺ فى ذبحهم فخان رسول الله ﷺ ، فبلغ رسول الله ﷺ ما صنع فقال : دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء، وكان رسول الله ﷺ قد استعمل أبا لبابة على قتالهم، فلما أحدث ما أحدث عزله استعمل أسيدا بن حضير (**)، وارتبط أبو لبابة ــ ربط نفسه ــ سبعاً بين يوم وليلة عند الأسطوانة التى عند باب أم سلمه فى حر شديد، لا يأكل فيهن ولا يشرب وقال : لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علىّ... ثم تاب الله تعالى عليه فنودى : إن الله قد تاب عليك، وجاءه رسول الله ﷺبنفسه فأطلقه، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) (***).

(*) هو أبو لبابة بن عبد المنذر بن رفاعة بن زنبر بن أمية الأنصاري. شهد مع رسول الله ﷺ سائر المشاهد، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث. وتوفى أبو لبابة بعد قتل عثمان بن عفان ﷺ. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٤٢٣.

(**) هو أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس الأنصاري شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من علية أصحابه. توفى سنة عشرين ودفن بالبقيع. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥٥٨ ــ ٥٦٠.

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٥٠٧ ــ ٥٠٩.

(***) سورة التوبة : آية ١٠٢.

فإذا كان حاطب بن أبي بلتعة قد حاول كشف أسرار سول الله ﷺ العسكرية وباءت محاولته بالفشل فإن أبا لبابة قد كشف سراً من أسرار رسول الله ﷺ بالفعل ومع ذلك لم يقتله رسول الله ﷺ على أساس أن الجاسوس جزاءه القتل المطلق بل تركه رسول الله ﷺ لأنه اعترف بذنبه وربط نفسه بنفسه فى اسطوانة المسجد النبوي، بل وقام بإطلاق سراحه بنفسه ﷺ لما نزلت توبته من السماء. فكل هذا يدلل على أن الجاسوس المسلم مرده إلى الإمام.

بعض الأحكام المتعلقة بالمخابرات

ذكر آنفاً حكم مشروعية التجسس، وكذلك حكم الجاسوس الكافر، وكذلك حكم الجاسوس المسلم، لكن هناك بعض الأحكام المرتبطة بعملية المخابرات ومهامها، كان من الأهمية بمكان ذكرها، خاصة وأن بعض هذه الأحكام متعلقة ببعض أحداث البحث التى سيرد ذكرها بعد ذلك.

تأتى فى مقدمة هذه الأحكام، حكم الإسلام فى الاستعانة بالجواسيس والأدلاء (*) غير المسلمين فى جمع المعلومات وإرشاد المسلمين على عورات أعدائهم، فقد أجازت الشريعة الإسلامية ذلك فيجوز الاعتماد على خبر الكافر إذا قامت القرينة على صدقة، ذلك لأن الخزاعى الذى بعثه النبي ﷺ عيناً له ليأتيه بخبر قريش ــ قبل صلح الحديبية ــ كان حينئذ كافراً. (١)

وكان دليل الرسول ﷺ وصاحبه فى الهجرة إلى المدينة عبد الله ابن أريقط (**)، رغم أنه لم يكن مسلماً، وهو الذى أعد الرواحل التى سافروا عليها، وهذا بالفعل غاية فى التمويه على الأعداء، فالذى يتصور أن يتجه النظر إلى صحابي محل ثقة النبي ﷺ ، وأما أن يكون المسئول عن الرواحل والدليل فى الرحلة والشريك فى السر الكبير الذى أخفاه الرسول ﷺ عن المسلمين [غير مسلم] فهذا آخر ما كان يمكن أن يرد على ذهن قريش، حتى أمر الاتصال بعبد الله بن أريقط فى شأن الرواحل خضع لتفكير دقيق، فإذا ما اتصل به عبد الله بن أبي بكر الصديق فقد تستريب

(*) الأدلاء : جمع دليل من دل يدل إذا هدى... والدليل : ما يستدل به. والدال والدليل : من دله على الطريق يدله دلالة. ابن منظور : لسان العرب مادة دلل.

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٥ ص ٣٥٢.

(**) عبد الله بن أرقط، ويقال : عبد الله بن أريقط، رجلاً من بنى الديل بن بكر وكانت أمه من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركاً، يدلهما على الطريق. ابن كثير : السيرة النبوية. تحقيق / مصطفى عبد الواحد. ط ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع. جـ٢ ص ٢٣٤.

قريش، وكذلك إذا ما حدثته أسماء بنت أبي بكر، ولكن إذا ما اتصل به عامر بن فهيرة (***)، وهو راع مثله ومن طبيعة الراعي أن يتحرك ليقابل راعياً فليس فى الأمر أية ريبه. (١)

ومن الأحكام المتعلقة بعملية المخابرات لإتمام مهامها، جواز ضرب الجواسيس لاستنطاقهم وأخذ ما لديهم من معلومات من ذلك أن رسول الله ﷺ بعث عباد بن بشر (*) فى فوارس طليعة ـــ وهو فى طريقه إلى خيبر ـــ فأخذ عيناً لليهود من أشجع فقال : من أنت ؟ قال : باغ أبتغي أبعره ضلت لي، أنا على أثرها. قال له عباد : ألك علم بخيبر ؟ قال : عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه ؟ قال : عن اليهود... فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات وقال : ما أنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك، فقال الأعرابي : أفتؤمنني على أن أصدقك ؟ قال عباد : نعم (٢).. إذ لولا هذه الضربات التى ضربها عباد لهذا الجاسوس الأعرابي ما استطاع أن يحصل منه على الحقيقة.

ومن الأحكام المتعلقة بمهام المخابرات أيضا أنه يجوز للجنود المسلمين تفتيش الجواسيس لاستخراج ما معهم من وسائل التجسس على المسلمين مثل الرسائل، بل وإن كان المتجسس على المسلمين امرأة جاز تجريدها من ملابسها لاستخراج ما معها من أخبار مكتوبة عن المسلمين.

(***) عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، اسلم عامر بن فهيرة قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها.. قتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة.ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٢١١.

(١) محمد محفوظ : العسكرية فى الإسلام. ط ـــ دار المعارف ـــ مصر ـــ لم تذكر سنة الطبع. ص ٥٤ ـــ ٥٥.

(*) عباد بن بشر بن وقش بن زغبة الأنصاري، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، استشهد يوم اليمامة سنة اثنى عشرة هجرية. ابن سعد : الطبقات. جـ ٣ ص ٤٠٦.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٦٤٠.

فقد بعث رسول الله ﷺ سرية (**) بقيادة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للقبض على المرأة التي أرسل معها حاطب بن أبي بلتعة رسالة إلى أهل مكة وأمر رسول الله ﷺ أيضا بإحضار الرسالة، فخرجت السرية فأدركتها، فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجد فيه شيئاً، فقال لها علي : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه قالت : أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه، فأتى به رسول الله ﷺ. (١)

وفي ذلك جواز تجريد المرأة وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة، والأولى أن يتم تجريد المرأة من قبل بنات جنسها وهذا هو الصحيح، وأما الخبر المذكور فإنما جعل في حالة نادرة، تدل على جواز الأمر إذا لم يكن هناك امرأة أخرى أو نسوة يتم الأمر على أيديهن. (٢)

(**) السرية : هي التي تخرج بالليل، والسارية التي تخرج بالنهار، وقيل سميت بذلك لأنها تخفي ذهابها، وهذا يقتضي أنها أخذت من السر وهذا لا يصح، لاختلاف المادة وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهي من مائة إلى خمسمائة. ابن حجر : فتح الباري. جـ٨ ص ٥٦.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٥٣٦ بتصرف بسيط.

(٢)ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد. جـ٣ ص ٣٦٥.

تمهيد

يمتاز الرسول ﷺ عن غيره من القادة فى كل مكان وزمان بميزتين مهمتين، الأولى : أنه كان قائداً عصامياً، والثانية : أن معاركه كانت لغرض حماية نشر الإسلام ولتوطيد أركان الإسلام، لا للعدوان والاغتصاب والاستغلال، إن غيره من القادة، وجدوا أمماً تؤيدهم وقوات جاهزة تساندهم، ولكن الرسول ﷺ لم تكن له أمة تؤيده، ولا قوات تسانده فعمل على نشر دعوته، وتحمل صابراً أعنف المشقات والصعاب، حتى كون له قوة بالتدريج ذات عقيدة واحدة وهدف واحد. (١)

كانت مغازى النبي ﷺ التى غزاها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكان ما قاتل فيها تسعاً: بدر القتال، وأحد، والمريسع، والخندق، وقريظة وخيبر والفتح، وحنين، والطائف، وكانت السراياً سبعاً وأربعين سرية. (٢)

وعلى الرغم من بعض الإخفاقات فى هذه الغزوات والسرايا، إلا أن المسلم الصحيح، هو الذى يقدر الرسول ﷺ حق قدره، فيعترف بأن كفاءة الرسول ﷺ قائداً ممتازاً، وكفاءة أصحابه جنوداً ممتازين، هى التى أمنت لهم النصر العظيم، أما أن نحشر الخوارق التى لا تحدث فى الحروب إلا فى أضيق الحدود، ونجعلها السبب المباشر لانتصار المسلمين، فذلك يجعل هذا النصر لا قيمةل ه من الناحية العسكرية... إن أعمال الرسول ﷺ ومنها العسكرية ـ سنة متبعة فى كل مكان وزمان، فهل يبقى أتباعه ينتظرون الخوارق لينتصروا على أعداءهم، أم يعدون ما استطاعوا من قوة، كما قرر القرآن، لينالوا النصر ؟. (٣)

---

(١) محمود خطاب : الرسول القائد. ص ٩.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٧.

(٣) محمود خطاب : الرسول القائد. ص ٨.

فى غزوة ذات الرقاع سنة ٤هـ لقى رسول الله ﷺ بما جمعاً عظيماً من غطفان، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس [1]. فلو كان النبي ﷺ يعتمد فى غزواته على المعجزات ومساندة السماء له، لما صلى بالناس فى هذه الغزوة ـ على وجه الخصوص ـ صلاة الخوف، فهي أكبر دليل على اعتماده ﷺ على نفسه وعلى مقوماته الشخصية التى وهبها الله عز وجل له، ولكن السماء كانت تتدخل لصالحه عندما يقوم بواجبه على أكمل وجه، فإذا ما عجز، وكانت المخاطر والصعاب أكبر مما قام به من واجب، عندئذ كانت تتدخل عناية السماء لصالحه ولصالح المؤمنين.

وفى مجال المخابرات ـ موضوع البحث ـ كانت السماء من مصادر إمداد النبي ﷺ بالمعلومات فى بعض الأحداث ـ كما سيرد ذكر ذلك فى طرق جمع المعلومات ـ ولكن فى حدود القاعدة المذكورة آنفاً، فقد كان للنبي ﷺ جهاز دقيق يجمع المعلومات عن الأعداء، وهو ما يقابل جهاز المخابرات فى الدولة الحديثة. [2]

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١١٩.

(٢) د/ عبد الشافي عبد اللطيف : تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ ط دار الاتحاد التعاوني للطباعة ـ القاهرة ص ١٨٨.

نشأة جهاز المخابرات الإسلامية

أصبحت يثرب بعد هجرة الرسول ﷺ إليها معقل الإسلام، وملجأ جماعة المسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي ﷺ ... واستطاع الرسول ﷺ أن يجعل نفسه فى المدينة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة فى النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه... وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام ديني، كما أصبح الرباط الديني بين المسلمين يقوم مقام رابطة الأسرة والدم. (١) وعلى الرغم من أن جهاز المخابرات الإسلامية فى العهد المدني قد شهد نمواً وازدهاراً كبيراً وأصبح عصب العمليات العسكرية الإسلامية، إلا أنه يمكن إرجاع نشأة وظهور هذا الجهاز إلى فترة ظهور الإسلام ذاته. فقد مكث الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد أذاقته قريش هو والمسلمين كل صنوف الأذى فصبر على أذاهم وحثه الله تعالى على التدرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات وضرب له الأمثال فى الصبر والاحتمال. (٢)

وفى فترة العهد المكي التي كانت أطول زمناً من العهد المدني فى حياة النبي ﷺ بعد ظهور الإسلام، نشأ جهاز المخابرات الإسلامية، وإن كان لم يأخذ الهيكل والشكل العام له كما أصبح كذلك فى العهد المدني. وعلى الرغم من هذا، فإن المخابرات الإسلامية طوال هذه الفترة كانت بمثابة النواة التى بنى عليها الجهاز الكبير الذى ازدهر فى العهد المدني، بل كانت هذه الفترة بمثابة التدريب النظري والعملي على العصب الذى يقوم عليه أى جهاز مخابرات فى كل زمان ومكان وهو " السرية ".

تعتبر السرية دائماً أحد الشروط الأساسية لكسب النصر فى الحرب كما أنها وسيلة أساسية حتى فى العلاقات الإنسانية البسيطة التى تمارس كل يوم، وبالسرية يمكن إخفاء القوة أو

---

(١)د/ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي. ط ــ دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الرابعة عشرة. سنة ١٩٩٦م. جـ١ ص ٨٥ ــ ٨٧.

(٢) المرجع السابق : جـ١ ص ٨٩.

الضعف [1]. ولعل أكبر دليل على أهميتها فى الحروب ما ذكره الهرثمى بقولـه [2] : " أول العمل فى الحرب ورأس التدبير فيها ألا يظهر عدوك على عورتك، ولا تستتر عنك عوراتـه، ولن تحكـم ذلك فى نفسك إلا مع شدة الحذر وكتمان السر "، فمـن الضروريات الحيويـة لأمـن الأمـة وسلامتها، الحفاظ على الأسـرار وكتمـان ما يستفيد منه العدو، ومن أجل ذلك فإن الإسلام ذاته، يعـد الأسرار أمانة من الأمانات التى على المسلمين أن يحافظوا عليها، فقال تعالى [*] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. [3]

هذا ويمكن أن نلاحظ نشأة جهاز المخابرات الإسلامية فى العهد المكي بالشكل الذى ذكر آنفاً من خلال الأحداث الآتية :

١ـ سرية الدعوة الإسلامية :

جعل رسول الله ﷺ يذكر جميع ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سراً إلى مـن يطمئن إليه من أهله [4]، وظل رسول الله ﷺ يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثـلاث سـنين، مستخفياً إلى أن أمر بإظهار الدعوة. [5] وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة ـ طوال هـذه الفترة ـ خرج إلى شعب مكة [**]، وخرج معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مـستخفياً مـن أبيـه أبي

(١) هاني : الجاسوسية. ص ١٠٥.

(٢) مختصر سياسة الحروب : ص ١٩.

(*) سورة الأنفال : آية ٢٧.

(٣) محفوظ : العسكرية فى الإسلام. ص ٨٥.

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ١ ص ٤٢٧.

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ـ دار المعارف ـ مـصر ـ الطبعـة السادسة ١٩٩٠م. جـ٢ ص ٣٢٢.

(**) شعب مكة : الشعب الطريق فى الجبل، وشعب مكة واد بين مكة والمدينة يصب فى وادى الصفراء. الحموى : معجم البلدان. جـ٣ ص ٣٤٧.

طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. (١)

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم. (٢) فقد ظل النبي ﷺ طوال هذه السنوات الثلاث يدعو إلى عبادة الله الواحد سراً، ومن أجل ذلك اتخذ عليه الصلاة والسلام فى هذه المرحلة مجموعة من الإجراءات الوقائية التى يمكن عن طريقها منع جواسيس وعيون مشركي مكة من التعرف على أخبار الدعوة الإسلامية ويمكن إيجاز هذه الإجراءات الوقائية فيما يأتي :

أ ــ أن الرسول ﷺ كان لا يعرض الإسلام إلا على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه وفى مقدمتهم زوجته السيدة خديجة بنت خويلد وصديقه الحميم أبي بكر الصديق رضى الله عنهما، وغيرهما من الرعيل الأول.

ب ــ أن الرسول ﷺ لم يكن يظهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش، وكان الرسول ﷺ يجتمع بالمسلمين ويرشدهم إلى الدين مستخفياً، وأمر المسلمين إذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات أن يذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش.

ج ــ لما أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين ــ ما بين رجل وامرأة ــ اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم وهو الأرقم بن أبي الأرقم (*) ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم بعيداً عن أعين الرقباء من قريش. (٣)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ١ ص ٢٢٩.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ١ ص ٤٢٩.

(*) أرقم بن أبي الأرقم بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم... كانت داره بمكة على الصفا وهي الدار التى كان النبي ﷺ يكون فيها فى أول الإسلام. توفى سنة ٥٥هـ بالمدينة. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٢٢٣.

(٣) المباركفورى : الرحيق المختوم. ط ــ دار إحياء التراث ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع. ص ٧٢.

٢ــ الهجرة إلى الحبشة :

لما كثر المسلمون وظهر الإيمان وتحدث به ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فقال لهم رسول الله ﷺ تفرقوا فى الأرض، فقالوا أين نذهب يا رسول الله ؟ قال : ههنا، وأشار إلى الحبشة. (١) خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة (**) منهم الراكب والماشي وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً. (٢)

تبرز فى الهجرة الأولى للحبشة ثمار السرية التى حافظ عليها المسلمون لدرجة أن منهم من قدم إلى الشعيبة ماشيا، وأن الخبر بخروجهم قد تسرب إلى كفار مكة، ومع ذلك كان لديهم من الوقت الكافي لإنجاح فكرة الهجرة، حتى أن قريشاً لم تدرك منهم أحداً. كما برزت فى الهجرة الأولى للحبشة عبقرية النبي ﷺ المخابراتية فى تضليل خطى قريش، فقد اختار لأصحابه المهاجرين ميناء الشعيبة للانتقال إلى الحبشة على غير المعتاد فى السفر إليها، فهو ميناء قديم وقلما تتجه إليه السفن لكنه فى نفس الوقت قلما تتجه الأنظار إليه، وكان اختياره للشعيبة إجراء وقائي لربما يصل الخبر إلى قريش فيذهبوا فى أثرهم، وقد كان، لكنه كان أفضل من ميناء جدة الجديد وذلك لكثرة الرواد عليه، فكان من السهل جداً أن ينكشف أمرهم.

هناك نقطة أخرى متعلقة بفكرة الهجرة إلى الحبشة تنم عن فكر الرسول ﷺ الخارق فى قيادة وإرشاد أتباعه إلى ما فيه صلاحهم وهي عملية الهجرة إلى الحبشة بالذات، والتى تعد فى حد ذاتها من أكبر عمليات التمويه والتضليل للعدو، ذلك التمويه الذى يعد بدوره من أكبر أسلحة

---

(١) ابن سعد : الطبقات. جـ١ ص ١٧٣.

(**) الشعيبة : مرفأ السفن فى ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. الحموى : معجم البلدان. جـ٣ ص ٣٥١.

(٢) تاريخ الطبرى : جـ٢ ص ٣٢٩.

رجال المخابرات. ذلك أن النبي ﷺ لم يفكر فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية، لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكاً بدينها الوثني، وكذلك لم يفكر فى هجرة أصحابه إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين، لأن كلاً من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبي ببلاد العرب، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً خصوصاً إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم، أما اليمن فكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوي، فلم يطمئن الرسول ﷺ إلى الإلتجاء إليها، وكذلك كان شأن الحيرة التى كانت مثل الشام بعيدة غاية البعد عن مكة خاصة وأن المهاجرين كانوا فقراء مستخفين من قريش هذا فضلاً عن أن اليمن والحيرة والشام كانت أسواقاً هامة لتجارة قريش وكانت لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة فلو علمت قريش بوجودهم فى بلد منها، لطلبت إلى أهل ذلك البلد أن يردوهم إليها ويخرجوهم منها، كما حاولت ذلك مع النجاشي لولا تسامحه وقوة خلقه. لذلك اتجه الرسول ﷺ إلى بلاد الحبشة لما كان يعرف فى ملكها من العدل والتسامح [1] هناك شئ آخر متعلق بهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، هو أن المسلمين إذا كانوا قد نجحوا بفضل إرشادات النبي ﷺ لهم وبفضل محافظتهم على هذه الإرشادات ـــ والتى فى مقدمتها المحافظة على السرية فى التحرك ـــ إلا أنهم قد استفادوا من هذه التجربة المخابراتية فى أرض الحبشة نفسها.

ذلك بأن المسلمين ما كادوا يستقرون على أرض الحبشة حتى خرج على النجاشي رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه، فأصاب المسلمين حزناً شديداً، خوفاً من أن يظهر ذلك الثائر على النجاشي فيأتي بعده فلا يعرف للمسلمين حقهم الذى كان يعرف لهم، فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض : من يخرج فيحضر الوقيعة حتى ينظر على من تكون ؟ فقال الزبير [*]، وكان

---

(١) د/ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام. جـ١ ص ٧٥.

(*) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ أسلم وهو ابن ست عشرة سنة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ وهاجر إلى الحبشة الهجرتين جميعاً. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٩٢ ـــ ٩٣.

من أحدثهم سناً : أنـــا. فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره، فجعل يسبح عليها فى النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة، فهزم الله ذلك الملك وقتله وظهر النجاشي عليه فجاء الزبير فجعل يلوح بردائه ويقول : ألا فأبشروا فقد أظهر الله النجاشي. (١)

هذا ويمكن أن نستفيد من هذه الرواية السالفة الذكر بعدة أمور هي:

أ ـــ أن المسلمين المهاجرين إلى الحبشة عندما كان وجودهم فى خطر نظـــراً لاضـــطراب الأوضاع السياسية وقتئذ، كان المخرج الوحيد لهم من هذا المأزق هو سلاح المخـــابرات وجمـــع المعلومات التى من خلالها كان سيحددون موقفهم من البقاء أو عدمه، بأيديهم ولم يتكلـــوا علـــى غيرهم، فمع أن الأخبار بإنتصار النجاشي كانت فى صالحهم، لكن لو هـــزم النجاشـــي لكـــان وجودهم فى الحبشة فيه خطورة عليهم، خاصة وأن الأخبار كانت ستصل إليهم متـــأخرة وبعـــد فوات الوقت للهروب، وذلك لوجود العائق المائي أمامهم ـــ النيل ـــ فلهذا فضلوا القيام بهـــذه الطلعة المخابراتية.

ب ـــ أن براعة المسلمين فى حل مشاكلهم فى أرض الهجرة الأولى لم تقتصر على التفكير فى الطلعات الاستخباراتية فقط، بل تعدتها إلى حل جميع المشاكل التى يمكـــن أن تواجـــه رجـــال المخابرات، فقد اختاروا لهذه المهمة الهامة الخطيرة، شاباً قوياً له دراية بالـــسباحة، فـــضلاً عـــن توصلهم لاختراع فكرة (قربة الهـــواء) التى تشبه اليوم (امبوبة الأكسوجين) التى يضعها علـــى ظهورهم رجال الضفادع البشرية فى القوات البحرية الآن.

ج ـــ أن الزبير بن العوام رضى الله عنه لم يكتف بمعرفة المنتصر فى الواقعة، ويحتفظ بهـــذا الخبر لنفسه بل برزت فى هذه الرواية قمة السرعة وقتذاك فى توصيل الأخبار، حيث أخذ يلـــيح لهم بردائه، معلناً بنصر النجاشي وذلك قبل أن ينقل لهم الخبر مشافهة وتفصيلاً.

د ـــ أن هذه المهمة المخابراتية التى قام بها الزبير بن العوام رضى الله عنه، والتى نقلتها لنا كتب التاريخ، لاشك وأن النبي ﷺ قد علم بها، وقد أدى ذلك بدوره إلى أن أصبح الزبير بـــن

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـــ٢ ص ٢٣.

العوام محط نظر من النبي ﷺ بعد ذلك، فجعله أحد رجال مخابراته المهمين فى العهد المدني، عندما تشكل هيكل الدولة الإسلامية وهيكل جهاز مخابراتها على الوجه الأكمل.

٣ــ بيعة العقبة. (*)

لما حضر موسم الحج مشى أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا في يثرب بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ﷺ والإسلام يومئذ فاش بالمدينة، فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين فى جماعة الأوس والخزرج وهم خمسمائة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ مكة، فسلموا على رسول الله ﷺ ثم وعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه فى الشعب الأيمن... وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، فخرج القوم بعد هداه يتسللون الرجل والرجلان. (٢) انطلق رسول الله ﷺ مع العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم (٣)" وبعد أن تمت البيعة لرسول الله ﷺ من الأوس والخزرج طلب الرسول ﷺ منهم أن ينتخبوا من بينهم إثنى عشر نقيباً ليكونوا رؤساء عليهم، فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. (٤) وقد سمح النبي ﷺ لعمه العباس أن يحضر هذه البيعة السرية والهامة فى تاريخ الإسلام ومستقبله، على الرغم من أنه كان لا يزال مشركاً ففي ذلك ما يؤكد على جواز الاستعانة بالكافر فى المهمات الإسلامية الخاصة إذا تم التأكد منه وعدم خيانته لدولة الإسلام. هذا وقد برزت فى هذه البيعة عدة مبادئ وأمور هامة تتعلق بالمخابرات الإسلامية تمثلت فى الآتي :

أ ــ أن النبي ﷺ وهو القائد الأعلى للدولة الإسلامية ولجهاز مخابراتها، اختار الوقت

(*) العقبة التى بويع فيها النبي ﷺ بمكة هي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين. الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص ١٣٤.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ١ ص ١٨٨.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٢٠٢.

(٤) د/ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام. جـ١ ص ٨٣.

المناسب لهذه البيعة وهو ليلة النفر الأول لهدوء المكان وقلة الأرجل، وذلك وقاية من جواسيس كفار مكة، ولكى تسهل على الأوس والخزرج حرية الحركة والتسلل فى الخفاء.

ب ــ أن النبي ﷺ اختار لهم الوقت المناسب، وكذلك المكان المناسب للاجتماع بهم وهي (العقبة) التى تبعد نحو ميلين من مكة ــ أكثر من ثلاثة كيلو مترات ــ وفى ذلك إمعاناً أكثر فى السرية.

ج ــ أن النبي ﷺ أمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائبا، وذلك لحكمة تنم عن فكر مخابراتي عالي، هي أنهم كانوا نحو سبعين فى وسط خمسمائة من كفار قومهم، فتنبيه النائم ربما يؤدي إلى إيقاظ من بجواره من كفار قومه فتفشل المهمة. كما أن انتظار الغائب سوف يؤدي إلى تجمهرهم وهذا ربما يؤدي إلى لفت بعض الأنظار الساهرة إليهم، فينكشف أيضاً أمرهم كما أن الانتظار فى حد ذاته سوف يؤدي إلى تأخرهم عن الوقت المناسب الذى حدده لهم ﷺ ، وربما تكون الظروف غير مواتية لتحديد موعد غيره.

د ــ أن رسول الله ﷺ طلب منهم أن يحددوا شخصاً بعينه ليتكلم بالنيابة عنهم، كما اشترط أيضا ألا يطل فى الخطبة ؛ وذلك لأن كثرة وتعدد المتكلمين مع الإطالة لو كان المتكلم حتى واحداً، قد يؤدي كل هذا إلى مزيد من كسر سكون الليل، فيؤدي ذلك إلى قذفت عيون قريش إلى المكان فينفضح أمرهم، كما أخبر ونبه رسول الله ﷺ .

هـ ــ أن النبي ﷺ وهو المؤسس الحقيقي لجهاز المخابرات الإسلامية، ما أمرهم بكل ما تقدم ذكره، إلا لعلمه بأن عليهم، بل وعليه ﷺ عيوناً من المشركين، وهذا يؤكد على أن جهاز المخابرات الإسلامية قد نشأ وظهر بالفعل مع ظهور الإسلام ذاته، ليقاوم به النبي ﷺ جهاز مخابرات المشركين ومن والاهم.

٤ــ الهجرة إلى المدينة.

هاجر معظم المسلمين من مكة بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ إلى يثرب، وبقـــى ﷺ فى مكة لم يبرحها بعد، وحار أهل مكة فى أمره، هل سيظل فى مكة كما حدث عندما هاجر أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وبقى هو ؟ أم سيلحق بالذين هاجروا إلى يثرب ويترك مكـــة، ويقـــع المحظور الذى حسبوا له ألف حساب ؟ لم يستطيعوا الوصول إلى نتيجة فى هذا الشأن ولم يعرفوا عن خطوات النبي ﷺ التى أعدها للمستقبل ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أحاط خططه بسرية تامـــة، فلم يفصح عن هدفه حتى لأقرب الناس إليه. (١)

لما أراد رسول الله ﷺ الهجرة ذهب إلى دار أبي بكر الصديق وليس عنـــد أبي بكـــر إلا ابنتاه : عائشة وأسماء... فلما دخل عليهم النبي ﷺ البيت قال لأبي بكر : أخرج من عنـــدك، قال : ليس علينا عينا، إنما هما ابنتاي قال: إن الله قد أذن لى بالخروج إلى المدينة (٢). فلمـــا أجمـــع رسول الله ﷺ الخروج ــ فيما بعد ــ أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة (*) لأبي بكر فى ظهر بيته... ثم عمدا إلى غار بجبل ثور، بأسفل مكة فدخلاه، وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبـــد الله أن يسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاراً، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليـــوم مـــن الخبر. وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار، فكان عبد الله بن أبي بكر يكون فى قريش نهاراً معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة يرعى فى رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه. (٣)

---

(١) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام فى عصر النبوة. ص ١٦٤.

(٢) تاريخ الطبرى : جـــ٢ ص ٣٧٥.

(*) الخوخة : مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب، بلغة أهل الحجاز. ابن منظور : لسان العـــرب. مادة خوخ.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـــ٢ ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥.

بعد هذا السرد الموجز لأحداث الهجرة النبوية إلى يثرب نلاحظ أنه كان يوسع النبي ﷺ أن ينجو بنفسه قبل مؤامرة قريش على اغتياله ﷺ بأيام أو أسابيع، ولكنه ﷺ هاجر فى نفس الليلة التى عزمت فيها قريش على اغتياله ولهذا سببين، الأول : أن بقاءه حتى ليلة التنفيذ فى مكة كان نابعاً من ثقته فى ربه بأنه جل وعلا سوف يحميه مهما كانت الأسباب، الثاني : أن بقاءه ﷺ حتى ليلة التنفيذ فى مكة، كان له غرض آخر ينم عن عقليه مخابراتية كبرى هو الإمعان فى تضليل قريش، حتى لا تتسرع فى تنفيذ خطتها لو علمت بإسراعه للهجرة، فأراد النبي ﷺ أن يعطيها شعوراً بالاطمئنان، بأن أحداً لم يعرف بما دبرت، فتظل على جهالتها، وفى نفس الوقت كان ﷺ قد أعد للهجرة كل شئ.

هذا ويمكن أن نلاحظ على الهجرة النبوية إلى يثرب الملاحظات الآتية :

أ ـ أنه ﷺ لم يتجه فى سيره شمالاً وهو الاتجاه الطبيعي والمباشر من مكة إلى المدينة، ولم يتجه غرباً سالكاً طريق الساحل، بل اتجه جنوباً بشرق، وهو اتجاه لا يتصور الإنسان أن يلجأ إليه مهاجر يستهدف الشمال، ولا يمكن أن يفكر فيه المشركون حينما يكتشفون الأمر، فيسارعون إلى اللحاق به. (١)

ب ـ أن النبي ﷺ على الرغم من ثقته المطلقة فى صديقه الحميم أبي بكر الصديق ﷺ وعلى الرغم من أنه ﷺ كان فى عقر داره، ويعلم جيداً أن أبا بكر لا يمكن أن يخبأ له أحداً من عيون قريش فى داره، إلا أنه ﷺ إمعاناً فى المحافظة على السرية، أمر أبا بكر أن يخرج من عنده، وربما يكون ﷺ يقصد بهذا الأمر عبيد وخدام أبي بكر ولكن عندما أعلمه ﷺ بأنه ليس فى الدار سوى ابنتيه عائشة وأسماء رضى الله عنهما، وطمأنه، أعلن رسول الله ﷺ له أمر الهجرة، ولم تكن كل هذه الحيطة من النبي ﷺ ، إلا لأن الموقف العام، لم يكن يحتمل أى خطأ أو سهو، لأن نتيجة ذلك كان ثمنها حياته ﷺ.

(١) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية الإسلامية. ص ١٠٩.

ج ــ أن النبي ﷺ عندما أراد أن يخرج من بيت أبي بكر إلى غار ثور، لم يخرج من الباب الرئيسي للبيت لعلمه ﷺ بعيون قريش التى كانت تعد عليه حركاته وسكناته، ولكنه خرج من خوخة لأبي بكر فى ظهر بيته، وهو ما يشبه الآن ما هو أقل من (الباب الخلفي) للمنازل، وفى ذلك أيضا قمة الإمعان فى تضليل خطى قريش وأتباعها.

د ــ أن النبي ﷺ فى خضم هذا الجو المفعم بالمخاطر الجسام، لم ينس ــ وهو القائد الأعلى للمخابرات الإسلامية ــ الأمور البسيطة التى يمكن أن تمر على أي إنسان دون أن يدري. من ذلك أنه ﷺ قد كلف عبد الله بن أبي بكر الصديق ﷺ يجمع الأخبار من مكة فكان بمثابة أحد رجال مخابراته فى هذا الخطب الجلل، وكان على عبد الله أن يأتي إليه كل ليلة بما جد من أخبار، فبالتالي سوف تكون له آثار أقدام، وكان النبي ﷺ وهو قرشي الأصل يعلم براعة قومه فى تقصي الأثر، فلهذا لم ينس ﷺ هذا الأمر وكلف عامر ابن فهيرة بأمرين، الأول : إمداده ﷺ وصحبه باللبن، والثاني : محو آثار أقدام رجل المخابرات الإسلامية البارع عبد الله بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما.

بهذا الاستعراض لأهم الأحداث النبوية والتى توضح لنا نشأة المخابرات الإسلامية ونموها ــ والتى تمثلت فى سرية الدعوة، والهجرة الأولى إلى الحبشة وبيعة العقبة الثانية، والهجرة النبوية إلى يثرب ــ يمكن أن نلاحظ على هذه الفترة من عمر جهاز المخابرات الإسلامية الملاحظات الآتية :

١ــ أن المخابرات الإسلامية فى هذا الطور من النشأة كانت أقرب إلى المخابرات الوقائية أكثر بكثير من الميل إلى المخابرات الإيجابية، إذ لم تكن تهتم بجمع المعلومات عن قريش، بقدر ما كانت تهتم بمنع وصول أخبار النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم إلى كفار قريش.

٢ــ أن الوسيلة الرئيسية التى كان يتبعها جهاز المخابرات الإسلامية فى منع وصول أخبارهم وتحركاتهم إلى كفار مكة فى هذا الطور، تمثلت فى " المحافظة على السرية التامة "، ولما كان مفعول هذه الوسيلة يبطل كانت المتاعب والشدائد تزداد على النبي ﷺ والصحابة فى جميع

تحركاتهم.(*)

٣ــ أن هذه الفترة من النشأة اشتملت على الكثير من الإرشادات والتوجيهات النبوية المخابراتية، أصبحت فيما بعد من مبادئ رجال المخابرات الإسلامية فى طور الازدهار المدني، وكانوا يمشون على نهجها فى تحركاتهم.

٤ــ أن التخطيط المخابراتي الذى قام وأمر به النبي ﷺ فى أحداث الهجرة إلى المدينة، كان من أعظم التخطيطات التى لا يمكن أن يجود الزمان بمثلها فى البراعة، حتى مع تقدم الوسائل والتقنيات الحديثة التى تحت أيدي رجال المخابرات فى العصر الحالي.

(*) على سبيل المثال أن المسلمين عندما هاجروا إلى الحبشة فى المرة الأولى بوسيلة المحافظة على السرية فى التحرك والمقصد كتبت لهم السلامة، لكن عندما كشف مقصدهم وأذن لهم رسول الله ﷺ فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، كانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى. للمزيد انظر. ابن سعد : الطبقات جـ١ ص ١٧٦.

مقر جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ

ذكر آنفاً أن يثرب أصبحت بعد هجرة النبي ﷺ إليها معقل الإسلام، وملجأ جماعة المسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي ﷺ ، بل وعاصمة الدولة الإسلامية الناشئة، وأصبح وضع المسلمين مختلفاً كل الاختلاف عن وضع الخوف والضعف والاضطهاد فى مكة، فبالهجرة قامت دولة الإسلام، وتطور معها بالتالي جهاز مخابراتها الذى نشأ منذ ظهور الإسلام ذاته.

هذا وإذا كان لكل دولة من الدول مقراً تدير منه أمورها المختلفة وتحرك من خلاله إداراتها المتعددة، وكان من بين هذه الإدارات إدارة المخابرات، فإنه من خلال الروايات التاريخية التى بين أيدينا نستطيع أن نتوصل إلى مقر إدارة أو جهاز المخابرات على العهد النبوي. بالنسبة إلى طور النشأة فى العهد المكي يمكن القول بأن مقر المخابرات الإسلامية الناشئة كان فى دار الأرقم بن أبي الأرقم، فقد كانت داره بمكة على الصفا، وهي الدار التى كان النبي ﷺ يكون فيها أول الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير [1]. فلم تكن دار الأرقم مقراً لتلقى مبادئ الدين الإسلامي فقط بل كانت مقراً للتشاور أيضاً والدليل على ذلك أنها كانت موضوعة تحت الحراسة من أشداء الرعيل الأول من الصحابة، ففي قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ ذكر ابن سعد أنه رضى الله عنه انطلق حتى أتى الدار — دار ابن أبي الأرقم — وعلى باب الدار حمزة وطلحة وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ . [2]

لكن بعد الهجرة النبوية اختلف الأمر، فقد كانت القيادة العسكرية النبوية توجه من المسجد الجيوش المنطلقة إلى غزو الأعداء وقتالهم... كما كان المسجد مقر القيادة العسكرية النبوية التى كانت تتلقى المعلومات عن الأعداء من خلال العيون سواء كانوا من المسلمين أو من غير

---

(١) ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٢٤٩.

المسلمين، فكان المسجد بمثابة المقر العام لجهاز المخابرات الإسلامية فى العهد النبوي.[١]

أما مقر القيادة والمخابرات المؤقت أو غير الدائم فهو المقر الميداني، فقد كان رسول الله ﷺ يتشاور مع الصحابة والقادة فى تحديد هذا المقر وتحصينه والاستفادة منه، ولقد بينت كتب السيرة النبوية مقر القيادة النبوية فى غزوة بدر الكبرى وأحد والخندق وغيرها من الغزوات. [٢]

فعلى سبيل المثال الدال على المقر المؤقت للقيادة العسكرية وقيادة جهاز المخابرات، أن سعد بن معاذ [*] ــ فى غزوة بدر ــ قال : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم... فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم بنى لرسول الله ﷺ عريشاً كان فيه. [٣]

وكما كان مقر المخابرات فى العهد المكي ــ دار الأرقم ــ موضوعة تحت الحراسة، كذلك كان مقر المخابرات ــ وخاصة المؤقت مقر الميدان ــ موضوعاً تحت الحراسة، فبعد أن بنى العريش لرسول الله ﷺ كان سعد ابن معاذ ﷺ واقفاً على باب العريش متقلداً بالسيف ومعه رجال من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين، والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ﷺ إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة. [٤] فلم يكتف

---

(١) د/ أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١٦ ــ ١٧.

(٢) المرجع السابق : ص ١٩.

(*) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد الأنصاري أسلم على يد مصعب ابن عمير، كان لواء الأوس يوم بدر مع سعد بن معاذ وشهد أحداً والخندق ومات بعدها متأثراً بجراحه بعد أن قطع منه الأكحل. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٣٨٨.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٤٠٣.

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤١٠.

الصحابة رضوان الله عليهم بحراسة مقر القيادة فقط، بل أعدوا أفضل وسائل الانتقال ـــ الركائب النجائب ـــ وكانت أيضا على أهبه الاستعداد للانطلاق بالقائد العظيم محمـــد ﷺ إلى عاصـــمة دولته المدينة المنورة وذلك لأن فى سلامته ضمان لاستمرار قيام الدولة الإسلامية الناشئة الفتيـــة.

هذا ولعله من باب إتمام الفائدة أن نذكر أنه كما كان للمخابرات الإسلامية مقراً تـــدار منـــه، كذلك كان لكفار مكة مكاناً أيضاً كانوا يديرون منه شئونهم والتى منها أيـــضاً طلعـــاتهم الاستخباراتية ضد المسلمين فى مكة قبل الهجرة وفى المدينة بعدها. وقد تمثل مقر مخابرات المشركين فى مكة فى دار الندوة التى بناها قصى بن كلاب ـــ جد النبي ﷺ ـــ فكانوا يجتمعون إليه فتقضى فيها الأمور ثم كانت قريش بعده، تجتمع فيها فتتشاور فى حروبها وأمورها وتعقد الألوية، وتزوج من أراد التزويج [1] أيضاً.

فقد كانوا يبحثون فيها أمورهم السرية، من ذلك أن قريشاً لما رأت أن رســـول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهـــاجرين إلـــيهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة... فاجتمعوا لذلك وتواعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله ﷺ . وقد بلغ من قمة السرية فى دار الندوة وما حـــاكوه مـــن مؤامرة ضد رسول الإنسانية ﷺ أن النبي ﷺ لم يعلم بما دبر نحوه إلا عن طريق الوحي ـــ كمـــا سيرد ذلك فى طرق جهاز المخابرات الإسلامية فى جمع المعلومات عن الأعداء ـــ ولعل السر فى أن الوحي هو المبلغ للنبي ﷺ بما دار فيها من مؤامرة يرجع إلى سببين :

١ـــ أن ذلك لا يرجع إلى قصور فى جهاز المخابرات الإسلامية الناشئ والذى أثبت تفوقه على كفار مكة خاصة فى الهجرة إلى المدينة، ولكن يرجع إلى أن الغالبية العظمى من الذين أسلموا فى مكة ـــ فى هذا التوقيت بالذات ـــ قد أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فلم يبـــق فى مكة إلا النبي ﷺ وأبو بكر وعلي بن أبي طالب والمستضعفين من الذين آمنوا ـــ وهؤلاء كانوا ما

(١) البلاذرى : فتوح البلدان. تحقيق / طـــه سعد. ط ـــ دار ابن خلدون ـــ الإسكندرية ـــ لم تذكر ســـنة الطبع ص ٧٥.

بين معذب أو سجين ـــ وبالتالي قد انتقل جهاز المخابرات وغالبية رجاله إلى المدينة، فلم يكن أمام النبي ﷺ من يرسله كي يستطلع له ما يدور فى دار الندوة، ولهذا تدخلت عناية السماء لسد هذا العجز.

٢ـــ أنهم كما ذكر ابن كثير " قد اتعدوا " أى أن الاجتماع فى دار الندوة وتحديد الموعد كان سراً أيضاً، ويبدو أنهم كذلك قد أحكموا غلق الأبواب والنوافذ وربما وضعوها تحت الحراسة الخفية من الخارج، بل ويبدو أيضاً أنهم تحدثوا وهم خافضى الصوت، ولكنهم نسوا بأنه إذا غفلت عنهم عيون النبي ﷺ فإن عيون الله عز وجل لا تنام.

هذا ولعل من باب إتمام الفائدة أيضا أن نذكر أنه كما كان للمخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ مقراً دائماً وآخر مؤقتاً تدار منه وكذلك كان حال كفار مكة ـــ دار الندوة ـــ كذلك حاول المنافقون ـــ والذين كانوا بمثابة الطابور الخامس فى قلب عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة ـــ أن يكون لهم مقراً تدار منه عملياتهم المخابراتية السرية ضد الإسلام وأهله وكانت تلك المحاولة على غرار مقر المخابرات الإسلامية، والتى تمثلت فى المسجد. ذلك أن طائفة من المنافقين بنوا صورة مسجد قريباً من مسجد قباء وأرادوا أن يصلى لهم رسول الله ﷺ فيه حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه، وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك، فلما رجع منها ونزل بذى أوان ـــ مكان بينه وبين المدينة ساعة ـــ نزل عليه الوحي فى شأن هذا المسجد وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ التوبة : آية ١٠٧ . أما قوله " ضراراً " فلأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، " وكفراً " بالله لا للإيمان به، " وتفريقاً " للجماعة عن مسجد قباء. " وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل " وهو أبو عامر الراهب الفاسق قبحه الله، وذلك أنه لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى عليه ؛ ذهب إلى مكة فاستنفرهم فجاءوا عام أحد، فلما لم ينهض أمره ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله ﷺ، وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب، وكان يكتب إلى

إخوانه الذين نافقوا بعدهم ويمنيهم وما بعدهم الشيطان إلا غروراً، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين.فبنوا هذا المسجد فى الصورة الظاهرة، وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الراهب، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين، ولهذا قال تعالى: " وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ". ثم قال : " وليحلفن " أى الذين بنوه " إن أردنا إلا الحسنى " أى إنما أردنا ببنيانه الخير قال الله تعالى " والله يشهد إنهم لكاذبون ". ثم قال الله تعالى لرسوله : " لا تقم فيه أبدا " فنهاه عن القيام فيه، لئلا يقرر أمره. (١)

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٣٩.

موظفو إدارة المخابرات الإسلامية

ذكر آنفاً أن المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ كان لها مقراً تدار منه، كل العمليات المخابراتية، فكان من الطبيعي أيضاً أن يكون فى هذا المقر خاصة الدائم ـ المسجد ـ بعض الموظفين الذين كانوا يعاونون النبي ﷺ فى إدارة جهاز المخابرات خاصة فى عملية الكتابة والقراءة للرسائل السرية والرسائل الأعجمية، هذا إلى جانب القائم على حفظ أسرار النبي ﷺ العسكرية وغير العسكرية، وكان عقله وذاكرته وقتئذ بمثابة السجلات التى تحفظ فيها أسرار الدول الآن.

كان أول وأهم موظفي إدارة المخابرات على عهد النبي ﷺ هو (صاحب السر) الذى كان تودع عنده كل أسرار النبي ﷺ وكان المتولي لهذه الوظيفة دون غيره من الصحابة رضوان الله عليهم قاطبة هو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان (*). كان حذيفة بن اليمان ﷺ، صاحب سر رسول الله ﷺ لقربه منه، وثقته به، وعلو منزلته عنده (١)، والمراد بالسر ما أعلمه به النبي ﷺ من أحوال المنافقين. (٢) فقد رجع رسول الله ﷺ من تبوك حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من أصحابه فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق واستعدوا لذلك وتلثموا، فلما بلغوا العقبة أمر رسول الله ﷺ حذيفة أن يردهم فاستقبلهم حذيفة بمحجن فضرب وجوه رواحلهم، وأبصرهم وهم متلثمون فرعبهم الله وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة فقال له رسول الله ﷺ : هل علمت ما كان شأنهم وما أرادوا،

(*) حذيفة بن اليمان : هو ابن حسيل بن جابر بن ربيعة بن عمرو بن جروة، لم يشهد حذيفة بدراً وشهد ما بعد ذلك من المشاهد مع رسول الله ﷺ... مات بعد قتل عثمان بأشهر بالمدائن سنة ست وثلاثين. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(١) التلمساني : تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. تحقيق / أحمد أبو سلامة. ط ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م. ص ٤٧.

(٢) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٩٢.

قال : لا، قال : فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت العقبة طرحوني منها... إن الله أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم، فسمى له اثني عشر رجلاً [1]" وقيل : أن النبي ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان فجمعهم له، فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم وبما تمالأوا عليه. [2]

وعلى الرغم من أن المشهور بأن حذيفة بن اليمان هو صاحب سر رسول الله ﷺ في أمر المنافقين فقط، لكن يبدو أنه ﷺ، كان صاحب أسرار رسول الله ﷺ كلها، لأن التلمساني ذكر آنفاً أنه صاحب (سر) رسول الله ﷺ ولم يقل (صاحب السر) والنكرة ـ كما هو معروف ـ تفيد العموم وليس الخصوص.

هذا وقد كان حذيفة بن اليمان أميناً على أسرار رسول الله ﷺ حتى بعد وفاته ﷺ فقد روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال لحذيفة : أقسمت عليك بالله أأنا منهم ؟ ـ يعني أصحاب العقبة ـ قال : لا ولا أبرى بعدك أحداً، يعني حتى لا يكون مفشياً سر النبي ﷺ . [3]
هذا وإذا كان حذيفة ابن اليمان ﷺ، هو المتولي لوظيفة حفظ أسرار النبي ﷺ ، فقد كانت هناك بعض الوظائف الأخرى في إدارة المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ وهي وظيفة الكاتب والقارئ لرسائل النبي ﷺ السرية، وقد كان المتوليان لهذه المهمة دون غيرهما من الصحابة تقريباً الصحابي الجليل أبي بن كعب [*] في المكاتبات العربية وزيد بن ثابت [**] ﷺ في المكاتبات الأعجمية.

---

(١) السيوطي : الخصائص الكبرى. ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع. جـ٢ ص ٢٧٩.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٣٥.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٣٥.

(*) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي الأنصاري سيد القراء شهد العقبة الثانية وبدراً وما بعدها، وكان ربعة نحيفاً أبيض الرأس واللحية لا يغير شيبه. ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٦٧٠.

(**) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان الأنصاري... مات بالمدينة سنة خمس وأربعين وهو ابن ست وخمسين سنة. ابن سعد : الطبقات. جـ ٥ ص ٣٠٦ وما بعدها.

فأول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة أبي بن كعب الأنصاري... فكان إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري فكتب له، فكان أبي وزيد يكتبان الوحي بين يديه وكتبه إلى من يكاتب من الناس وما يقطع وغير ذلك. (١)

على الرغم من أن النبي ﷺ كان له العديد من الكتاب ممن يكتب له الوحي والمراسلات والمعاهدات والمعاملات، لكن يبدو من خلال الروايات التاريخية التى وصلت إلينا والخاصة بالعمليات المخابراتية، أن أبي بن كعب، كان المختص الوحيد بكتابة وقراءة الرسائل السرية العربية التى كانت تأتي إلى النبي ﷺ أو تصدر عنه، فقد كتب أبي الرسالة التى كتبها لرسول الله ﷺ وأرسلها مع سرية عبد الله بن جحش (***) وأمره ﷺ ألا يفتحها إلا بعد مسيره بأيام، وقبل غزوة أحد أرسل العباس عم النبي ﷺ برسالة إلى النبي ﷺ ليخبره بمسير قريش إليه، وأرسلها مع رجل من قبيلة (غفار)، فقدم الغفارى فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة ووجده بقباء فخرج حتى وجد رسول الله ﷺ على باب مسجد قباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب فقرأه عليه أبي بن كعب، واستكتم أبياً ما فيه. (٢) من الروايات التاريخية الأخرى الدالة على أن أبي بن كعب هو المكلف بكتابة وقراءة الرسائل السرية العربية، أن أبا سفيان كتب كتاباً لرسول الله ﷺ وبعثه مع أحد أتباعه، فلما أتى بالكتاب دعا رسول الله ﷺ أبي بن كعب، فدخل معه قبته، فقرأ عليه كتاب أبي سفيان، وكتب إليه رسول الله ﷺ بالرد. (٣) والدليل على أن هذه الرسالة كانت سرية أن أبي بن كعب قرأ الرسالة لرسول الله ﷺ فى قبته وليس أمام جموع المسلمين وكذلك الرد منه ﷺ على أبي سفيان.

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان. ص ٤٨٨.

(***) عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة... أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقتل يوم أحد شهيداً. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤٢٩ بتصرف بسيط.

أما زيد بن ثابت رضى الله عنه، والذى كان مختصاً بكتابة وقراءة الرسائل السرية الأعجمية، فقد كان حافظاً لبيباً عالماً وعاقلاً [1] فاستغل رسول الله ﷺ هذه القدرات العقلية فيه فطلب منه أن يتعلم من اللغات ما يستطع من خلاله أن يتعامل مع ما يأتيه أو يصدر عنه ﷺ من رسائل سرية بألسن أعجمية. يقول زيد بن ثابت نفسه عن ذلك : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتى بي إليه فقيل : يا رسول الله، غلام من بنى النجار قد قرأ ـــ حفظ ـــ ست عشرة سورة، فأمره رسول الله ﷺ أن يتعلم كتاب اليهود، قال : إنى لم آمنهم أن يبدلوا كتابي... فكان زيد يتعلم فى مدارس ماسكه ـــ بالمدينة ـــ فعلم كتابهم فى خمس عشرة ليلة حتى كان يعلم ما حرفوا وبدلوا. [2] فكان اختيار النبي ﷺ لزيد بن ثابت ـــ وهو الصحابي الجليل حديث السن ـــ فى محله، فقد استطاع ﷺ أن ينجز ما كلفه به النبي ﷺ فى خمسة عشر يوماً أو سبعة عشر على اختلاف الروايات، وهو وقت قياسي جداً. هذا من ناحية، الناحية الثانية، أن تكليف النبي ﷺ لزيد بن ثابت ﷺ لم يكن لتعلم كتاب اليهود الديني ـــ التوراة ـــ كما يفهم من كلام ابن سعد المذكور آنفاً، بل كي يتعلم اللغة ذاتها كي تسهل عليه مراسلتهم، فقد ذكر ابن كثير ما يؤكد ذلك بقوله [3] : " أمره رسول الله ﷺ أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبي ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلمه فى خمسة عشر يوماً... قال زيد : وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب عنه إذا كتب ".

هناك نقطة أخرى وهي أن تعلم زيد بن ثابت للغة اليهود أو لغة غيرهم كان بقصد الرد على الرسائل السرية الأعجمية ـــ وإن كان من مقاصدها أيضاً حفظ كتاب الله من عبث اليهود ـــ فعن زيد بن ثابت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : إنه يأتينى كتب من أناس لا أحب أن يقرأها كل

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٦٨١.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ٣٠٨.

(٣) السيرة النبوية. جـ٤ ص ٦٨١.

أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب السريانية (*) ؟ قال : قلت : نعم، فتعلمتها فى سبعة عشر. (١) هذا ولم يكن زيد بن ثابت ﷺ متعلماً للغة اليهود فقط، بل ذكر التلمساني أنه ﷺ، كان يكتب للملوك ويجيب بحضرة النبي ﷺ وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن. (٢)

ولا غرابة فى ذلك، ففي العصر الحالي نجد الكثير من الناس ممن يجيد السبع لغات — كما يقولون — فيمكن أن يكون زيد بن ثابت قد تعلم لغة اليهود فى ذلك الوقت — السريانية — ثم تعلم اللغات الأخرى من باب عالمية الإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى، لكى يحقق النبي ﷺ للأمة الاكتفاء الذاتي فى عدم الاتكال على الآخرين من غير المسلمين، الذين يجيدون مثل هذه اللغات، ويمكن أن يمثلوا خطراً داهماً على الدولة باطلاعهم على أدق أسرارها.

المخابرات بين التكليف والتطوع

يحدد علم النفس للقيادة العسكرية نمطين هما القيادة الإرغامية والقيادة الإقناعية، أما القيادة الإرغامية فهي القيادة التى يرغم بها القائد مرءوسيه على طاعته معتمداً على سلطة مركزه وقوته، وأما القيادة الإقناعية فهي القيادة التى يحصل بها القائد على طاعة مرءوسيه وهم مقتنعون بأوامره... والقيادة العسكرية الناجحة هى التى تستطيع أن تجمع بين النمطين كان النبي ﷺ لا يستبد برأي، بل كان يتبع مبدأ الشورى، فيستشير أصحابه ويترل على الرأى الذى يبدو صوابه بصرف النظر عن صاحبه كبيراً كان أو صغيراً. ومع ذلك كان الرسول ﷺ يلجأ إلى أسلوب

(*) انبعثت اللغة السريانية من اللغة الآرامية، ولم تلبث أن فاقت أمها فى خدمة المعارف علمياً وتاريخياً، وكانت السريانية عند ظهور الإسلام من اللغات الحية وظلت محتفظة بوجودها فى عالم الأدب إلى القرن الرابع عشر للميلاد ففي هذا الوقت لاقت السريانية مصرعها فى غبار المعارك التترية. أمين مدني : التاريخ العربي ومصادره. ط — دار المعارف — مصر — لم تذكر سنة الطبع. ص ٢٦١ — ٢٦٤.

(١) التلمساني : تخريج الدلالات السمعية. ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٠٨.

القيادة الإرغامية عند الضرورة، وخاصة فى أوقات الحرب، وكان الخير يبدو دائماً فى أعقاب ما حمل أصحابه عليه. (١)

كانت العمليات المخابراتية على عهد النبي ﷺ تتم عن طريق التكليف بجمع المعلومات من النبي ﷺ لبعض صحابته رضوان الله عليهم وهؤلاء كانوا هم عصب جهاز المخابرات الإسلامية، وهم الذين وضع لهم رسول الله ﷺ شروطاً معينة لاختيارهم لهذه المهمات ـ كما سيرد ذكره ـ وكانت عملية جمع المعلومات تتم أيضا عن طريق التطوع الشخصي من بعض الصحابة، وذلك لإحساسهم الكبير بأهمية هذه المهمة فى إحراز النصر على أعدائهم، ولكن من خلال الروايات التاريخية التى وصلت إلينا، يبدو أن التطوع بجمع المعلومات كان قليلاً جداً، وإن دل ذلك على شئ، فإنما يدل على أن المجهود الكبير الذى قام به المسلمون فى جمع المعلومات عن أعدائهم والذى امتلأت به كتب السير، وكذلك حجب معلوماتهم عن عدوهم، إنما يدل على أن المسلمين على عهد النبي ﷺ كان لديهم جهاز مخابرات كامل العدد والكفاءة، وأنهم لم يتركوا مثل هذه الأمور الهامة الخطيرة تحت رغبة المتطوعين إن شاءوا فعلوها وإن شاءوا تركوها.

فمن أمثلة التطوع فى جمع المعلومات عن العدو والتى تعتبر من الأشياء النادرة التى وردت فى كتب السير، أنه بينما كان رسول الله ﷺ فى طريقه إلى حنين، جاءه فارس فقال : يا رسول الله، إن انطلقت من بين أيديكم على جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنها(*) ونسائها ونعمها فى وادي حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله (٢)" فلم يأمر النبي ﷺ هذا الفارس بالتجسس على هوازن، بل قام بذلك من عند نفسه،

---

(١) محمد محفوظ : الإستراتيجية العسكرية الإسلامية. ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢.

(*) يقال لكل شاخص لسفر فى حج أو غزو . ظاعن، والظعينة : الهودج تكون فيه المرأة، وقيل : كل بعير يوطأ للنساء فهو ظعينة، وإنما سميت النساء : ظعائن لأنهن يكن فى الهودج. ابن منظور : لسان العرب. مادة ظعن.

(٢) الواقدى : المغازي. جـ٣ ص ٨٤٩.

وهذا يدل على مدى اهتمام المسلمين عامة بأهمية المخابرات وأثرها فى ميادين القتال. هذا وقد تمثلت قدرة النبي ﷺ العسكرية الفائقة، فى أنه ﷺ كان يجمع بين النمطين السالفي الذكر من القيادة، فقد كان يرغم الصحابة بالقيام بالعمليات المخابراتية، ولكن فى نفس الوقت عن طريق الإقناع والتطوع، حيث كان ﷺ يبدى رغبته فى جمع المعلومات عن العدو لمصلحة الأمة جميعاً ـــ إرغام ـــ ثم يترك لمستمعيه من الصحابة حرية القيام بهذه المهمة دون أن يرغم ﷺ شخصاً بعينه ـــ إقناع ـــ.

من ذلك على سبيل المثال، " عن جابر ﷺ، قال : قال النبي ﷺ : من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب ؟ فقال الزبير : أنا، ثم قال : من يأتيني بخبر القوم ؟ قال الزبير : أنا، فقال النبي ﷺ: إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير "، لأن الأحزاب من قريش وغيرهم لما جاءوا إلى المدينة وحفر النبي ﷺ الخندق بلغ المسلمين أن بنى قريظة من اليهود نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين ووافقوا قريشاً على حرب المسلمين [1]، وقد تطوع الزبير بن العوام بالقيام بهذه المهمة على الرغم من خطورتها، لأن رجال المخابرات أو الجاسوس الجيد هو الذى يعمل بوحي من وطنيته وحب فى نصره دينه، وهو ينظر إلى هذه الأعمال على أنها أعمال لغرض وطني صالح، ولهذا يخضع لنظام محكم راضياً باتباع هذا النظام مؤدياً ما يطلب منه على أكمل وجه مهما واجه من أخطار. [2]

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ٥٢ ـــ ٥٣.

(٢) هاني : الجاسوسية. ص ٦٩.

شروط اختيار رجال المخابرات الإسلامية

يقرر العلم العسكري أنه يتحتم توافر صفات وخصائص معينة فيمن يتولى عملاً من أعمال المخابرات منها : الذكـــاء، والفهم العميق، والقدرة على التصرف، والقدرة على إصدار الحكم السليم، وصفاء الرؤية، والمرونة وسرعة التحول من حال إلى حال، والثبات والاتزان فى مواجهة أخطر المواقف وأعقدها، وحاسة حب الاستطلاع، والقدرة على كتمان المعلومات. (١)

إذا كانت هذه هي الشروط التى قررها العلم العسكري الحديث لاختيار رجال أى جهاز مخابرات عامة، فإن النبي ﷺ قد وضع مثل هذه الشروط، بل وأدق وأفضل منها بكثير، عنـــد اختياره لعناصر رجال مخابراتـــه، خاصة الثابتين منهم، ممن كلفهم ﷺ بالعديد مـــن المهمـــات المخابراتيـــة.هذا ولم يكن النبي ﷺ يراعي فى عملية الاختيار هذه، الاعتبارات والمقومات الدينية للشخصية المختارة فقط، بل كان ﷺ يفضل المقومات الشخصية الأخرى على المقومات الدينية، مع عدم المانع فى الاختيار إذا ما توفرت المقومات الدينية والمقومات الشخصية معاً.قال رسول الله ﷺ : إني لأؤمر الرجل على القوم، وفيهم من هو خير منه ؛ لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب. (٢)

هذا ومن خلال الروايات التاريخية التى بين أيدينا يمكننا أن نتعرف على أهم الشروط التى وضعها النبي ﷺ لاختيار رجال جهاز مخابراتـــه وهي كالآتي :

١ــ الرجل المناسب فى المكان المناسب :

يعد وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب من أعظم مبادئ الإدارة السليمة، ومن أهم أسباب النجاح فى إنجاز الأعمال وتحقيق الأهداف، ويقوم هذا المبدأ على أســـاس المواءمـــة بـــين

---

(١) محمد محفوظ : الاستراتيجية العسكرية الإسلامية. ص ١٥٢.

(٢) البيهقي : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحقيق د / عبد المعطي قلعجي. ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م. جـــ٤ ص ٤٠٠.

متطلبات العمل، وبين قدرات الفرد الذى سوف يشغل هذا العمل... وكان رسول الله ﷺ خير من طبق مبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، وسجل عصر النبوة قدرته الفائقة وخبرته الواسعة فى معرفة النفوس والأخلاق والمواهب والقدرات، ومعرفة ما يلائمها من المهام والأعمال وكذلك معرفة الوقت المناسب. (١)

عرف الرسول ﷺ نفسيات وقابليات أصحابه ؛ لأنه كان يعيش بينهم كفرد منهم يشاركهم فى السراء والضراء، عرف مزايا الجميع وكلف كل واحد منهم بواجب يتفق مع قابليته البدنية والعقلية، لذلك استطاع أكثر أصحابه إنجاز مهمتهم بكفاءة وإتقان. (٢)

حينما أراد الرسول القائد أن يبعث بسرية من جند جيش الإسلام لاستطلاع أخبار قافلة قريش اختار لقيادتها عبد الله بن جحش، لمعرفته بما لديه من خصائص وقدرات تقتضيها تلك المهمة عبر عنها ﷺ فى قوله : " لأبعثن عليك رجلاً أصبركم على الجوع والعطش " (٣) وبعث معه رسول الله ﷺ ثمانية رهط من المهاجرين (*)، ليس فيهم من الأنصار أحد (٤) فلم يجعل النبي ﷺ عبد الله بن جحش أميراً لهذه السرية المخابراتية، لأنه من أصبر الناس على الجوع والعطش فقط، بل جعل رسول الله ﷺ جميع أفراد هذه السرية من المهاجرين ولم يكن فيها أحد من الأنصار،

---

(١) محفوظ : العسكرية فى الإسلام. ص ٥٨ ــ ٦٠.

(٢) خطاب : الرسول القائد. ص ٣٠٦.

(٣) محفوظ : العسكرية فى الإسلام. ص ٦١.

(*) وهم : أبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن بن حرثان حليف بن أسد ابن خزيمة، وعتبة بن غزوان حليف بنى نوفل، وسعد بن أبي وقاص الزهرى، وعامر ابن ربيعة الوائلي حليف بنى عدى، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين ابن ثعلبة بن يربوع التميمي حليف بنى عدى أيضا، وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث حليف بنى عدى أيضا، وسهل بن بيضاء الفهرى، فهؤلاء سبعة ثامنهم أميرهم عبد الله بن جحش رضى الله عنهم. ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٦٦.

(٤) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

وذلك لأنه ﷺ كان يجعل الرجل المناسب فى المكان المناسب، فالقافلة قافلة قريش والمهاجرين قرشيين مثلهم، فهم أعرف الناس بوجوههم وسلوكهم بخلاف الأنصار الذين لم يكونوا يعرفون كل القرشيين مثل المهاجرين، هذا فضلاً عن أن جعل كل أفراد هذه السرية من المهاجرين، أفضل فى إتمام مهمتها، وذلك لشدة حنق المهاجرين على كفار قريش، واستعداد المهاجرين وحماسهم فى فعل أى شئ ضد كفار مكة الذين أذاقوهم فيها كل أنواع العذاب المادي والمعنوي قبل هجرتهم إلى المدينة.

٢ــ الثقة التامة :

لقد كانت الثقة التامة فى العضو المختار ليكون من ضمن هيكل جهاز المخابرات الإسلامية من أهم وأكبر الشروط التى عول عليها النبي ﷺ فى عملية الاختيار هذه، وهو شرط ضروري وحيوي جداً أكد عليه أيضا المتخصصون فى هذا المضمار بعد عهد النبوة، يقول مثلاً الهرثمى[1] : " ولتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه ونصيحته، فإن الظنين لا ينفعك خبره، وإن كان صادقاً، والمتهم عين عليك لا لك ".

كان النبي ﷺ يختار أقرب المقربين إليه ممن يثق فيهم ثقة تامة كي يصبحوا من رجال مخابراته فلو أخذنا بعض النماذج من هؤلاء الرجال ــ سيرد ذكرهم جميعاً فيما بعد [*] ــ لوجدناهم من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ حتى أن ابن سعد فى طبقاته [**] قد وضع أغلبهم فى طبقة البدريين من المهاجرين والأنصار، أى من أوائل الذين آمنوا بالله ورسوله، هذا فضلا عن أن بعضهم كانت تربطه برسول الله ﷺ صلة الرحم فضلا عن العلاقات الخاصة كالصداقة المتينة، فتوفر فى هؤلاء جميعاً شرط الثقة التامة.

---

(١) مختصر سياسة الحروب : ص ٢٤.

(*) انظر الملاحق من هذا البحث، بما ثبت بأسماء جميع من اشترك فى العمليات المخابراتية على عهد النبي ﷺ.

(**) راجع طبقات ابن سعد الأجزاء ٣، ٤.

عن علي ﷺ، قال : لما دنا القوم منا ـــ فى غزوة بدر ـــ وصاففناهم إذا رجل منهم يسير فى القوم على جمل أحمر، فقال رسول الله ﷺ : يا علي ناد لي حمزة ـــ وكان أقربهم من المشركين ـــ من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟ ثم قال رسول الله ﷺ : إن يك فى القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر، فجاء حمزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال [1]" فكان رجل مخابرات النبي ﷺ فى هذه الوقت العصيب حمزة بن عبد المطلب ﷺ وهو غني عن التعريف بشخصه وبمنزلته فى الإسلام، وكان من أعمام رسول الله ﷺ الذين اشتركوا فى جمع المعلومات له أيضاً عمه ﷺ العباس ابنعبد المطلب وقد كان يكتب له بأخبار المشركين فى مكة كما ذكر آنفاً.

وكان من رجال مخابرات رسول الله ﷺ الثابتين البارعين الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص والذى يقول محدثاً عن مكانته فى الإسلام [2] : " لقد أتى علىّ يوم وإنى لثلث الإسلام " وكان منهم أيضا أبو عبيدة بن الجراح والذى أخذ بيده رسول الله ﷺ عندما أتى أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والإسلام فقال : هذا أمين هذه الأمة. [3] وكان من رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ الراشد عمر بن الخطاب، والراشد علي بن أبي طالب وحذيفة بن اليمان صاحب السر وغيرهم ممن توفرت فيهم صفة الثقة التامة فى شخصهم رضوان الله عليهم.

شروط أخرى :

إلى جانب الشرطين السابقين الذين ذكر آنفاً هناك شروط أخرى توفرت فى بعض رجال مخابرات النبي ﷺ كانت سبباً فى اختيار النبي ﷺ لهم، من ذلك قول عائشة رضى الله عنها

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ـــ المغازى ـــ تحقيق د / عمر تدمرى. ط ـــ دار الكتاب العربي ـــ بيروت ـــ لبنان ـــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م. ص ٨٩.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ١٢٩.

(٣) ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٣٧٩ ـــ ٣٨١.

متحدثة عن الهجرة النبوية [1] : " ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكيدون به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ". فقد كان فى عبد الله بن أبي بكر الصديق من الصفات ما أهله لأن يكون سبباً فى اختيار النبي ﷺ له فى هذه المهمة المخابراتية الخطيرة، وهي أنه كان شاباً وثقفاً ولقناً، أى حاذقاً وسريع الفهم إضافة إلى الوعي التام لكل ما كان يقال عن النبي ﷺ وصحبه وما يكاد ضدهما من مؤامرات وهي صفات لا غنى عنها لأى رجل مخابرات فى أى عصر ومصر. ومن الشروط الواجب توافرها فى رجل المخابرات خفة الحركة وسرعتها وقد توفرت هذه الصفة فى طلحة بن عبيد الله أحد رجال مخابرات النبي ﷺ فقد كان طلحة بن عبيد الله إذا مشى أسرع. [2] حينما أراد النبي ﷺ أن يعين أحد المسلمين ليأتيه بأخبار المنافقين فى المدينة، اختار حذيفة بن اليمان العبسي، دون غيره من أصحابه، وذلك لأن حذيفة كان يتمتع بمزايا الكتمان الشديد فلا يفشي سره لأحد، وبحضور البديهة فلا يرتبك فى المواقف الحرجة وبتقديره العميق لأهمية صيانة المعلومات عن الأعداء، فلا يفشي نياته ونيات المسلمين وأهدافهم، وبالذكاء وموهبة حب الاستطلاع. [3] هذا ولم يكن النبي ﷺ يضع شروطاً خاصة فى اختيار رجال مخابراته فقط، بل كانت له مواصفات خاصة أيضا فى الأدلاء أو العملاء [*] الذين كان يستعين بهم فى تضليل العدو، فقد استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل هو عبد الله بن أريقط فى الهجرة، وكان هادياً خريتاً، والخريت : الماهر بالهداية. [4]

---

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٢٣٢.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٢٠٠.

(٣) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ١١٤.

(*) العامل هو الذى يتولى أمور الرجل فى ماله وملكه وعمله... وعملة الرجل : باطنته فى الشر خاصة، وكله من العمل. ابن منظور : لسان العرب. مادة عمل.

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٢٤٦.

النبي ﷺ وتعليم الصحابة أصول المخابرات

توجد فى السنة النبوية أقوال وأفعال كثيرة تبين غايات القتال وأهدافه فى الإسلام، وتحض عليه كوسيلة للجهاد فى سبيل الله ونشر دينه، كما تحدد قواعده وأساليبه وآدابه والسلوك الواجب اتباعه فيه، وساعد على ذلك كون النبي ﷺ قائداً للمسلمين فى الحرب والسلم على السواء، فهو ﷺ بالإضافة إلى أنه صاحب رسالة سماوية مقدسة، خلق فى المجتمع العربي وفى العالم نواة لمجتمع جديد متقدم، وأثبت من خلال غزواته تلك أنه قائد عسكري بارع. (١)

لم يكتف النبي ﷺ بوضع الشروط اللازمة لاختيار رجال مخابراته فقط، بل كان يعمل على تعليمهم أصول المخابرات، ففي العهد المكي كانت المهمات المخابراتية بمثابة التدريب العملي لبعض الصحابة، تمهيداً للدور الأكبر للمخابرات الإسلامية فى العهد المدني، فلم تكن سرية الدعوة الإسلامية، أو تعاليمه ﷺ للأنصار قبل بيعة العقبة، وكذلك ما قام به عبد الله بن أبي بكر الصديق من دور محمود فى الهجرة، إلا بناءً على تعليمات وتوجيهات مسبقة من النبي ﷺ لهؤلاء الرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم.

هذا وقد أمدتنا كتب السيرة بالعديد من الروايات التى تؤكد أن النبي ﷺ كان يقوم بتعلم رجال مخابراته أصول علم المخابرات. فإذا كانت ــ مثلاً ــ عملية خط سير السرايا الإسلامية على عهده ﷺ كانت تسير بالليل وتكمن بالنهار ــ كما سيرد ذكر ذلك فى طرق مكافحة التجسس ــ من أجل المحافظة على السرية فى مقصدها ووجهتها، فإن هذا المبدأ قد علمه ﷺ لبعض رجال مخابراته قبل الهجرة. إذ لما فرغ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الذى أمره به رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة، فكان يسير الليل، ويكمن النهار حتى قدم المدينة وقد

(١) د/ ياسين سويد : الفن العسكري الإسلامي. ط ــ شركة المطبوعات للنشر ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٩٠م.ص ٦١.

تقطرت قدمـــاه. (١)

وكان النبي ﷺ يعلم رجال مخابراتـــه المحافظة على السرية وعـــدم إذاعـــة الأخبـــار العسكرية، فعندما كلف رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص ليأتي له بخبر قريش عقب غزوة أحد، فإن سعداً لما رجع جعل يرفع صوته بأن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله ﷺ يشير إلى سعد أن اخفض صوتك، ثم قال رسول الله ﷺ : إن الحرب خدعة، فلا ترى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، فإنما ردهم الله تبارك وتعالى. ويقال أن النبي ﷺ عندما كلفه بهذه المهمة قال له : إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفت أعضاد المسلمين، فـــذهب فرآهم قد امتطوا الإبل فرجع، فما ملك أن جعل يصيح سروراً بانصرافهم. (٢) وبعد هزيمة أحد، كان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقول الناس : قتل رسول الله ﷺ كعـــب بـــن مالك (*)، قال : عرفت عينيه تزهران ـــ تضيئان ـــ من تحت المغفر (**)، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ فأشار إلى رسول الله ﷺ أن أنصت. (٣)

أمر النبي ﷺ كعب بن مالك أن يصمت ـــ على الرغم من أن مقصده خيراً وهو طمأنه المسلمين بنجاه النبي ﷺ لأن النبي ﷺ كان يعلم بأن المشركين قد جاءوا من مكة لتحقيق أحـــد هدفين : إما القضاء على المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، وإما قتل النبي ﷺ فيـــستريحوا من الإسلام والمسلمين، فلما ظنوا أنهم قد حققوا أحد هدفيهم ـــ قتل النبي ـــ وفي نفس الوقـــت هزم المسلمون، أراد النبي ﷺ أن يتركهم وظنهم هذا، الذي رضوا به، فلو سمعوا كلام كعب

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ. جـــ٢ ص ١٠٦.

(٢) الواقدي : المغازي. جـــ١ ص ٢٩٩.

(*) كعب بن مالك بن أبي كعب شاعر رسول الله ﷺ، شهد العقبة والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما خلا تبوك مات سنة خمسين. ابن سعد : الطبقات. جـــ٤ ص ٣٩٣.

(**) المغفر : زود ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوه. ابن منظور : لسان العرب. مادة غفر.

(٣) ابن هشام : السيرة. جـــ٣ ص ٣١.

بن مالك، بأنه ﷺ مازال على قيد الحياة، لكروا على المسلمين مرة أخرى، فى وقت كان من الممكن أن يحققوا فيه أهدافهم بالفعل، فلهذا أمره النبي ﷺ بالصمت.

من التعليمات التى كان يعلمها النبي ﷺ لرجال مخابراته، أنه ﷺ كان يأمرهم بالاتزان، وخفة الحركة، وعدم إحداث إرباك فى معسكر العدو، لأن مهمتهم الرئيسية هي جمع المعلومات وليس القتال. فعندما بعث رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبر الأحزاب قال له : اذهب فانظر ما فعل القوم، ولا ترمين بسهم، ولا بحجر ولا تطعن برمح، ولا تضربن بسيف حتى ترجع إلىّ.. اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يقولون [1] كانت تعليمات النبي ﷺ لحذيفة فى غاية الدقة، وذلك حفاظاً على السرية ونجاح مهمته، فقد ذهب حذيفة ووجد فرصة كبيرة لقتل أبي سفيان رأس الأحزاب [***]، ولكنه تذكر قول النبي ﷺ له، وكان السبب فى عدم أمر النبي ﷺ له بالقتال ؛ لأن المعلومة التى سيأتي بها أهم وأفضل من قتل رأس الأحزاب نفسه، لأن قتله كان سيثير حمية المشركين ليس إلا، وكان فى استطاعتهم توليه أحد غيره، فتصعب الأمور على المسلمين أكثر وأكثر.

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يمد رجال مخابراته بالمعلومات اللازمة التى يحتاجون إليها، لإنجاز مهماتهم على أكمل وجه، من ذلك أن عبد الله ابن مسعود [*] مر بأبي جهل حين أمر النبي ﷺ بالتماسه، وقال : إن خفى عليكم فى القتلى، فانظروا إلى أثر جرح فى ركبته، فإن ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشف منه ــ ينقص عنه أو يزيد عليه ــ بيسير ــ فدفعته، فوقع على ركبته فجحش ــ خدش ــ فيها. [2]

وكانت الاستعانة برجال المخابرات فى الجيوش استعداداً للحرب، من آخر وصايا النبي ﷺ لقواد جيوشه، مع حرصه ﷺ على أمرهم بالسرعة فى الحركة لسبق الأخبار، إذ لما كان يوم

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٨٩.

(***) انظر المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

(*) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب من حلفاء بنى زهرة بن كلاب.. أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ١٣٩ وما بعدها.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٦٢.

الإثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة، أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم... ودعا أسامة بن زيد (*) فقال : يا أسامة، سر على اسم الله وبركته، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش... وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون أمامك والطلائع (1)" ذلك لأن تدبيرات التجسس إذا أحسن إعدادها وكانت على نطاق واسع، تستطيع أن تحرز نصف الانتصار حتى قبل أول ضربة يلقى بها فى المعركة. (2)

(*) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، حب رسول الله ﷺ مات بالجرف فى آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٥٧ وما بعدها.

(١) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ١١١٧، ابن سعد : الطبقات. جـ٢ ص ١٧٠

(٢) نور صالح : جواسيس غيروا مجرى التاريخ. ص ١٢٥.

الهيكل العام لجهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ

كان الهيكل العام لجهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ يتكون ـــ كغيره من أجهزة المخابرات الأخرى ـــ من قائد عام لهذا الجهاز، وهو النبي ﷺ ، ومن مجموعة من الرجال تم اختيارهم بدقة وعناية كاملة كي يكونوا هيكل الجهاز.

١ـــ القائد العام لجهاز المخابرات الإسلامية.

كان القائد العام لجهاز المخابرات الإسلامية، النبي ﷺ ، وإذا كان النبي ﷺ قد ترك لبعض الصحابة قيادة الجيوش الإسلامية فى بعض الغزوات والسرايا، وكانت لهم فى هذه القيادة الكلمة الأولى ـــ خاصة فى ميدان المعركة ـــ إلا أن النبي ﷺ لم يترك مهمة قيادة جهاز المخابرات لأي أحد غيره ﷺ وفى هذا تأكيد على أهمية هذا الجهاز وخطورته.

هذا ولم يكن النبي ﷺ هو القائد العام لجهاز المخابرات الإسلامية، والذى تصب عنده معلومات رجاله فقط، دون أن يبذل أى مجهود سوى تحليل هذه المعلومات واتخاذ القرار المناسب على ضوءها، بل كان ﷺ يقوم فى بعض الأوقات بجمع المعلومات بشخصه الكريم ﷺ . خرج رسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى بدر فلقى سفيان الضمرى، فقال رسول الله : من الرجل ؟ فقال الضمرى : بل من أنتم ؟ فقال رسول الله : فأخبرنا ونخبرك، قال الضمرى : وذاك بذاك ؟ قال النبي ﷺ : نعم، قال الضمرى : فسلوا عما شئتم، فقال النبي ﷺ : أخبرنا عن قريش، قال الضمرى : بلغنى أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكة فإن كان الذى أخبرني صادقاً فإنهم بجنب هذا الوادي، قال رسول الله ﷺ : فأخبرنا عن محمد وأصحابه، قال : خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذى خبرنى صادقاً فهم بجانب هذا الوادي. قال الضمرى : فمن أنتم ؟ قال النبي ﷺ : نحن من ماء وأشار بيده نحو العراق ـــ يقصد أن الله خلقه من ماء مهين ـــ فقال الضمرى : من ماء العراق، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه، ولا يعلم أحد من

الفريقين بمثل صاحبه. [1] نخلص من هذه الرواية أن رسول الله ﷺ لم يعتمد على خبر السماء، بل قام بالاعتماد على شخصه الكريم، وذلك ليعطينا مثالاً وقدوة صادقة ولكل القادة المسلمين فى كل عصر ومصر، على السعي وراء النصر، مهما كلف ذلك من مجهود، حتى ولو كان هذا المجهود مبذول من القائد الأعلى نفسه، وذلك مع العلم بأنه ﷺ قد أرسل من قبل بسبس (*) وعدى (**) لكي يأتوا له بخبر القوم فقد ذكر الواقدى أنه بعد لقاءه ﷺ مع الضمرى لقيه بسبس وعدى فأخبراه الخبر. [2] فلم يعتمد ﷺ عليهما فقط بل قام بجمع المعلومات بشخصه الكريم ليس لعدم ثقته ﷺ فى رجال مخابراته، بل ليعطي لنا درساً آخراً هو تعاون الجميع من أجل خدمة الهدف الواحد، كذلك تبدو لنا من خلال هذه الرواية براعة النبي ﷺ فى جمعه للمعلومات عن الأعداء، فقد أنكر النبي ﷺ شخصه عن الضمرى فى البداية وفى النهاية، فى البداية لكي يعطى له الضمرى المعلومة دون خوف أو حرج، وفى النهاية لأن خبر خروج النبي ﷺ وقريش قد أصبح شائعاً ـــ كما يفهم من كلام الضمرى ـــ فربما يأتي للضمرى أحد من قريش بعد النبي ﷺ فيخبره الضمرى بأنه لقى النبي ﷺ وخاطبه، وفى ذلك كشف له ولأصحابه ﷺ .

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٥٠.

(*) بسبس بن عمرو بن ثعلبة بن خرشة بن زيد... بن قيس بن جهينة، شهد بدراً وأحداً وليس له عقب. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥١٩.

(**) عدى بن أبي الزغباء بن سبيع بن ثعلبة... بن قيس من جهينة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وليس له عقب. المصدر السابق : جـ٣ ص ٤٦٠.

(٢) المغازى. جـ١ ص ٥١.

ولما ذهب حكيم بن حزام (***)، وبديل بن ورقاء (****) مع أبي سفيان يتجسسون الأخبار عن المسلمين قبل فتح مكة، قبض عليهم جنود رسول الله ﷺ ، فذهبا حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى النبي ﷺ فأسلما وجعل يستخبرهما عن أهل مكة. (١) وإذا كانت حالات جمع النبي ﷺ بنفسه للمعلومات عن العدو قليلة ونادرة، فإن ذلك يمكن أن يرجع إلى سببين :

أ ــ أن النبي ﷺ كان لديه من الرجال الأوفياء ممن يعتمد عليهم فى جمع المعلومات فترك لهم هذه المهمة، وما كان خروجه ﷺ لذلك، إلا للإقتداء به ﷺ.

ب ــ أنه ﷺ كان القائد العام لجهاز المخابرات الإسلامية، وإليه كانت ترد جميع المعلومات كي يتخذ القرار المناسب على ضوءها، فليس من المعقول أن يتعدد خروجه لجمع المعلومات ويترك مقر القيادة بلا قائد.

٢ــ رجال المخابرات الإسلامية.

لم تذكر بعض المصادر التاريخية فى الكثير من رواياتها من قام بتبليغ الأخبار إلى النبي ﷺ ، واكتفت بعبارة [بلغ النبي ﷺ]، لكن من خلال المصادر الأخرى نجد أن هناك أكثر من أربعين رجلاً (*) تقريباً كانوا بمثابة الهيكل العام المكون لجهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ ويمكن تقسيم هؤلاء الرجال إلى طبقتين :

(***) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى أسلم فى فتح مكة... مات بالمدينة سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة. ابن سعد : الطبقات جـ٦ ص ٥٠.

(****) بديل بن ورقاء بن عبد العزى بن ربيعة بن عمرو بن ربيعة شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنين وحجة الوداع. المصدر السابق : جـ٥ ص ١٩٨.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٥٤٧ بتصرف بسيط.

(*) انظر ملاحق هذا البحث.

الطبقة الأولى : ويمثلها مجموعة من الصحابة كانوا بمثابة العصب الرئيسي لجهاز المخابرات الإسلامية، وتم وضعهم فى هذه الطبقة، لأنهم قاموا بأغلب الطلعات المخابراتية التى تمت على عهد النبي ﷺ وكانوا موضع سره. يأتي فى مقدمة هذه الطبقة الخلفاء الراشدين الثلاثة (*) أبو بكر وعمر وعلي (***) رضى الله عنهم، فمن الأمثلة الدالة على اشتراك أبى بكر فى هذا الأمر أنه لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال : من يذهب فى إثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير [1]، أما عمر بن الخطاب ﷺ فإنه فى غزوة الخندق أتى إلى رسول الله ﷺ وهو فى قبته فقال : يا رسول الله، بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، وقال : من نبعث يعلم لنا علمهم ؟ فقال عمر : الزبير بن العوام، فكان أول الناس بعث رسول الله ﷺ الزبير ابن العوام. [2]

وكان من رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ الصحابي الجليل عباد بن بشر فقد ذكر الواقدي أكثر من رواية تفيد ذلك. (****)

(**) لم أعثر فى أى مصدر من المصادر التاريخية ما يفيد أن الخليفة الراشد عثمان ابن عفان ﷺ قد اشترك فى أى عمل مخابراتي على عهد النبي ﷺ، وربما يكون السبب فى ذلك أنه كما ذكر ابن سعد، كان رجلاً يهاب الحديث وكان كثير الحياء ــ الطبقات جـ٣ ص ٥٠، ٥٦ ــ وهي صفات جميلة وحميدة، ولكن لا تصلح فى المهمات المخابراتية، نظراً لما يتبع الحياء من حمرة للوجه تساعد على انكشاف الأمر.

(***) ذكر آنفاً مثالاً لاشتراك الإمام علي فى المخابرات غير ما سيرد ذكره بعد ذلك.

(١) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ١٠١.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٥٧.

(****) انظر على سبيل المثال. جـ٢ ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

وكان من رجال مخابرات النبي ﷺ ، عاصم بن ثابت الأنصاري (*) فعن أبي هريرة ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري... وذلك عقب موقعة بدر الكبرى (١) وذكر الكتاني أنه عليه السلام بعثه وحده عيناً لقريش. (٢) وكان من الطبقة الأولى فى رجال مخابرات النبي ﷺ أيضا جابر ابن عبد الله (**) وأبو عبيدة بن الجراح، فعن جابر قال : بعثنا النبي ﷺ فى ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد (***) عيراً لقريش.(٣) هذا وكان من هذه الطبقة أيضاً حذيفة بن اليمان، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بين عبيد الله، وعمار بن ياسر، وعبد الله ابن أبي بكر الصديق.

الطبقة الثانية : يمثل هذه الطبقة أيضاً مجموعة من الصحابة رضوان الله عليهم، أو بعض العملاء الموالين للدولة الإسلامية ثم أسلموا بعد ذلك .وتم وضع هؤلاء فى الطبقة الثانية ؛ لأنهم لم يقوموا إلا بمهمة مخابراتية واحدة أو مهمتين على أكثر تقدير، كما أن بعضهم قد ورد اسمه فقط فى المصادر التاريخية ضمن جواسيس النبي ﷺ دون أن تذكر هذه المصادر تاريخ أو نوعية المهمة المخابراتية التى كلفوا بها.

(*) عاصم بن ثابت بن قيس الأنصاري كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ قتل هو وأصحابه يوم الرجيع على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة ابن سعد : الطبقات . جـ٣ ص ٤٢٨.

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ١٦٦.

(٢) التراتيب الإدارية : ص ٣٩١.

(**) جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصاري هو من الستة نفر الذين أسلموا من الأنصار أول من أسلم منهم بمكة شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥٣١.

(***) الراصد بالشئ الراقب له، والترصد : الترقب، والمرصاد المكان الذى يرصد فيه العدو. ابن منظور : لسان العرب. مادة رصد.

(٣) البيهقي : دلائل النبوة. جـ٤ ص ٤٠٦.

تحدث التلمساني عن جواسيس النبي ﷺ فذكر منهم بسبس وعدى بن الزغباء، وسعيد بن زيد (****)، وبسر بن سفيان الخزاعي (*****)، وعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي (******)، وحذيفة بن اليمان، وطلحة بن عبيد الله. (١) وذكر الكتاني أن خبيب بن عدى الأنصاري (*) كان من جواسيس رسول الله ﷺ ، وكذلك جبلة بن عامر البلوى (**)، كان عيناً للمصطفى يوم الأحزاب (٢)" كما ذكر أن غالب بن عبد الله الليثى (***) هو الذى بعثه ﷺ ليسهل له الطرق وليكون له عيناً (٣)" وذلك دون أن يذكر فى أى غزوة أو سرية كان هذا البعث، أو يكون عيناً على من أيضا.

وكان من رجال هذه الطبقة أيضا عمرو بن أمية (****)، فقد بعثه رسول الله ﷺ عيناً وحده إلى

(****) هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نقيل بن عبد العزى، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها توفى سنة ٥١ هـ ودفن بالمدينة، ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٣٥٢.

(*****) بسر بن سفيان بن عمرو بن عويمر بن صرمه الخزاعي أسلم سنة ست من الهجرة وشهد مع رسول الله الحديبية وما بعد ذلك من المشاهد. المصدر السابق. جـ٥ ص ١٨٧.

(******) عبد الله بن أبي حدرد بن عمير بن أبي سلامة الأسلمي، شهد مه رسول الله ﷺ الحديبية ثم خيبر وما بعد ذلك من المشاهد توفى سنة ٧١هـ. المصدر السابق : جـ٥ ص ٢١٥.

(١) تخريج الدلالات السمعية. ص ٤٦٦ ــ ٤٧٢.

(*) خبيب بن عدى بن مالك بن عامر الأنصارى شهد أحداً مع رسول الله ﷺ أسر يوم الرجيع وقتل بمكة. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٣٠٨.

(**) جبلة بن عمر بن أوس بن عامر البلوى، شهد جبلة أحداً. المصدر السابق : جـ٤ ص ٣٦٨.

(٢) التراتيب الإدارية : ص ٣٩١.

(***) غالب بن عبد الله الليثى أحد بنى كعب بن مالك.ابن سعد:الطبقات. جـ٥ ص ١٢٢.

(٣) التراتيب الإدارية : ص ٣٧٨.

(****) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس، أسلم بعد أحد وكان رجلاً شجاعاً مات بالمدينة فى خلافة معاوية بن أبي سفيان. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٢٣٣.

مكة [1]، ومنهم حسيل بن نويرة الأشجعي [2]، ومنهم مؤنساً وأنساً ابنى قصالة (*****)، فقد كانا عيناً للنبي ﷺ وأتياه بخبر قريش حين نزلوا أحداً. [3] وكان من هذه الطبقة كذلك عمى النبي ﷺ العباس ابن عبد المطلب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما، ومنهم أيضا عبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن جحش، إلى جانب العديد غيرهم ممن سيرد ذكره فى الأوراق التالية ضمن الأحداث. (******)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٣١.

(٢) كان دليل النبي ﷺ إلى خيبر، وهو الذى قدم على رسول الله ﷺ من الجناب ـــ أرض غطفان ـــ فأخبره أن جمعاً من غطفان بالجناب. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٦٨.

(*****) أنس ومؤنس ابنى فضالة بن عدى بن حرام بن الهيثم بن ظفر، كانا عيني رسول الله ﷺ فى ذلك وأمينيه وشهدا معه يوم أحد. المصدر السابق : جـ٤ ص ٢٦٢ ـــ ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

(******) راجع الملاحق بها ثبت بأسماء رجال المخابرات على عهد النبي ﷺ.

شبكة المخابرات على عهد النبي ﷺ

المقصود بشبكة المخابرات على عهد النبي ﷺ ، عملية توزيع رجال المخابرات الإسلامية على الأماكن المعادية للدولة الإسلامية، إذ لم يكن رجال المخابرات قابعين فى المدينة المنورة ـــ المقر الدائم للمخابرات ـــ ولا يفارقونها إلا فى حالات التكليف لهم بجمع المعلومات عن الأعداء فقـــط، بل كان هناك مجموعة من الرجال والعملاء غير المسلمين الثابتين فى هذه الأماكن وكان الغرض من الحرص على مكوثهم فى هذه الأماكن، هو رصد تحركات هؤلاء الأعداء، وسرعة تبليغها للـــنبي ﷺ فى المدينة المنورة.

هذا وقد تركز توزيع رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ فى الأماكن التالية :

١ـــ المخابرات الإسلامية فى مكة.

من المعروف أن مكة المكرمة قبل فتحها، كانت معقل الكفر ومنبع المعانـــدين للدولـــة الإسلامية الناشئة، فلهذا تركزت العمليات المخابراتية عليها أكثر من غيرها، وكان بها مجموعـــة ثابتة من مخابرات النبي ﷺ . كان فى مقدمة هؤلاء الرجال العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ . قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعباس ابن عبد المطلب، وكان الإســـلام قـــد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يهـــاب قومـــه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامـــه. (١) فكان إسلام العباس بن عبد المطلب ﷺ قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون بمكة يثقون به، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ فكتب إليه رسول الله ﷺ : إن مقامك بمكة خير، فلذلك قال رســـول الله ﷺ يوم بدر : " من لقى منكم العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرها ". (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة. جـــ٢ ص ٢١٠.

(٢) التلمساني : الدلالات السمعية. ص ١٥٢.

فقد اختار له رسول الله ﷺ عذراً وجيهاً فى عدم قتله، وهو أنه قد أخرج مكرهاً لقتال رسول الله ﷺ وهذا بالفعل صدقاً ؛ لأنه ابن أخيه، ولكن الحقيقة التى لم يعلنها النبي ﷺ لهم هي أن العباس كان مسلماً يكتم إسلامه هذا من ناحية، والثانية أنه كان من أكبر رجال مخابراته ﷺ فى مكة، ولم يكن فى مقدور النبي ﷺ أن يعلن عن ذلك ؛ لأن الكشف عن إسلامه فيه خطورة على حياة العباس، كما أن الكشف عن حقيقة مكثه فى مكة برغم إسلامه فيه حرمان للمسلمين جميعاً من مصدر كبير للمعلومات لو كشف ربما لا يعوض. هذا وقد قام العباس بن عبد المطلب بدور كبير فى نقل أخبار قريش إلى النبي ﷺ ، من ذلك أنه لما أجمعت قريش المسير إلى رسول الله ﷺ قبل أحد، كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من غفار، واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره أن قريش قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح. (١)

فكان لوضع العباس وبقاءه فى محله، أن وصلت أخبار قريش إلى النبي ﷺ على وجه السرعة، حيث جد الغفارى فى السير حتى أنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ـــ والتى تبلغ مسافتها خمسمائة كيلوا متراً فى ثلاثة أيام ـــ وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ فى مسجد قباء (٢) وهي سرعة فائقة إذا ما قيست بظروف مواصلات ذلك العصر.

إلى جانب العباس بن عبد المطلب ودوره الفعال فى جهاز المخابرات الإسلامية، كانت توجد قبيلة خزاعة، فقد كانت عيبة (*) نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة... وكان الأصل فى موالاة خزاعة للنبي ﷺ أن بنى هاشم فى الجاهلية كانوا تحالفوا

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٤.

(٢) المبار كفورى : الرحيق المختوم. ص ٢٢٥.

(*) العيبة ما توضع فيه الثياب لحفظها، أى أفهم موضع النصح له والأمانة على سره فشبه الصدر الذى هو مستودع السر بالعيبة التى هي مستودع الثياب.ابن حجر : فتح البارى. جـ٥ ص ٣٣٦.

مع خزاعة (**) فاستمروا على ذلك فى الإسلام (١)" ولما كان صلح الحديبية دخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، وجاءت خزاعة يومئذ لرسول الله ﷺ كتاب عبد المطلب فقرأه عليه أبي بن كعب، وكان رسول الله ﷺ عارفاً بهذا الحلف. (٢)

فكانت خزاعة كلها عيوناً للنبي ﷺ على قريش فى مكة والدليل على ذلك أيضا الحوار الذى دار بين قرة بن هبيرة القشيري (***)، ونوفل بن معاوية الديلى (*)، حيث قال نوفل مخاطباً قرة : لنا عدو قريب داره، وهم عيبة نصح محمد لا يغيبون عليه حرفاً من أمورنا. قال : من هم ؟ قال : خزاعة. قال : قبحت خزاعة (٣).. وكانت قريشاً تعرف ما بين النبي ﷺ وبين خزاعة وأنهم عيون للنبي ﷺ عليهم، يؤكد ذلك ما ذكره الواقدى فى غزوة الحديبية، بأن بديل بن ورقاء الخزاعي لما انصرف من عند رسول الله ﷺ وأخبره خبر قريش بمكة، وهبط بركبه على كفار مكة، قال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه إنما جاءوا يريدون أن يستخبروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد. (٤)

(**) كان بين عبد المطلب وخزاعة حلف قديم فلذلك قال عمرو بن سالم الخزاعي :

اللهم إنى ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

البلاذرى : فتوح البلدان. ص ٥٨.

(١) فتح البارى : جـ٥ ص ٣٣٦.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٨٢ بتصرف بسيط.

(***) قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير، وفد على النبى ﷺ فأكرمه وكساه واستعمله على صدقات قومه. ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ٢٠٢.

(*) نوفل بن معاوية بن عمرو بن صخر الديلى، شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة مات بالمدينة فى خلافة يزيد بن معاوية. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٣١.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٣٠.

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٩٤.

فقد كان بديل بن ورقاء الخزاعي من عملاء النبي ﷺ في مكة نفسها، على الرغم من أنه لم يسلم إلا قبل فتح مكة، فقد كانت داره في مكة، يؤكد ذلك أنه لما هجمت بكر على خزاعة بمعاونة قريش، دخلت خزاعة مكة، ولجئوا إلى دار بديل بن ورقاء، ودار مولى لهم يقال له رافع (١) فخرج بديل في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. (٢) حتى لقوا أبا سفيان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ يشد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا للذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ فقال : سرت في خزاعة في هذا الساحل في بطن هذا الوادي. فعمد أبو سفيان إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى. فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً. (٣)

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يفتح مكة، نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران (**)، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل، فخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، هل يجدون خبراً أو يسمعون به. (٤)

يبدو في هذه الرواية وجه التناقض بينها وبين سابقتها، فبديل ابن ورقاء هو المبلغ لرسول الله ﷺ خبر هجوم بكر وقريش على خزاعة، فكيف به هنا يخرج مع أبي سفيان وحكيم بن حزام ليتجسسوا أخبار رسول الله ﷺ ؟ لكن يمكن فك هذا التناقض بأن خروج بديل هنا لم يكن من

---

(١) ابن هشام : السيرة. جـ٤ ص ٢٣.

(٢) الطبري : جـ٣ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٥٣٠.

(**) الظهران : وادي قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تضاف إلى هذا الوادي فيقال مر الظهران. الحموي : معجم البلدان. جـ٤ ص ٦٣.

(٤) الطبري : جـ٣ ص ٥٠.

أجل التجسس على رسول الله ﷺ بل كان له سببين :

أ ـــ أن خروجه مع أبي سفيان هنا كان من أجل المواراة وللمزيد فى خدعة قريش حتى يغتهم رسول الله ﷺ وقد ذكر آنفاً أنه أخفى خبر ذهابه إلى رسول الله ﷺ عن أبي سفيان.

ب ـــ أنه كان يعلم أن رسول الله ﷺ سوف يغزو مكة، فأراد أن يطمئن إلى ذلك، ليس لعدم ثقته فى رسول الله ﷺ بل لأنه كان حتى تلك اللحظة مازال كافراً ولم يوقن بصدق رسالته ﷺ .

هذا ولم يكن بديل بن ورقاء هو الخزاعي الوحيد الذى كان يخبر رسول الله ﷺ بأحوال كفار مكة، بل قام بهذه المهمة العديد من الخزاعيين، فقبل غزوة أحد، قدم عمرو بن سالم الخزاعي (*) فى نفر من خزاعة، ساروا من مكة أربعاً ـــ أى قطعوا المسافة فى أربعة أيام للسرعة ـــ فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذى طوى (**)، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبر (١) إذ لم يأت للنبي ﷺ خبر مسير قريش إليه قبل أحد من عمه العباس بن عبد المطلب فقط ـــ كما ذكر آنفاً ـــ بل وصله من خزاعة أيضا.

ولما فصلت قريش من مكة إلى المدينة ـــ فى غزوة الخندق ـــ خرج ركب من خزاعة إلى النبي ﷺ فأخبروه بفصول قريش... فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم (٢). وقبل صلح الحديبية، بعث رسول الله ﷺ بسر بن سفيان الخزاعي عيناً إلى قريش فى مكة (٣). وعندما أراد رسول الله ﷺ فتح مكة بعث بين يديه عيوناً خيلاً يقتصون العيون وكانت خزاعة لا

(*) عمرو بن سالم بن حصيرة بن سالم الخزاعي، كان شاعراً شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٩٨.

(**) ذو طوى : موضع عند مكة. الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص ٤٥ .

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤٤٤.

(٣) التلمسانى : الدلالات السمعية. ص ٤٦٥.

تدع أحداً يمضي وراءها [١]، أى أنهم اشتركوا فى حماية الطريق المؤدي إلى مكة من أن تخترقه جواسيس قريش.

هذا وخير ما يؤكد على أن رجال النبي ﷺ بمكة كانوا على يقظة تامة بكل ما يدور بها، من أن قريشاً قالوا : إن ثأرنا بأرض الحبشة، فانتدب إليها عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة[*]، وكان مخرجهما بعد وقعة بدر، فبلغ النبي ﷺ مخرجهما، فبعث عمرو بن أمية الضمرى [**]، بكتاب إلى النجاشي. [٢] على الرغم من أن هذه الرواية لم تشر إلى من بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ من رجال مخابراته المقيمين بمكة، إلا أنها تفيد مدى قوة جهاز المخابرات فى مكة من نواحي عديدة منها : أن ذهاب عمرو بن العاص إلى الحبشة فى هذه المهمة الخطيرة ضد المهاجرين بالحبشة قد وصلت أخبارها إلى النبي ﷺ على الرغم من أن طريق السفر إلى الحبشة بعيداً عن المدينة مستقر النبي ﷺ وأصحابه، وليست فى خط سير عمرو بن العاص أصلاً مما يدلل على التواجد الفعال للمخابرات الإسلامية فى مكة قبل فتحها. الناحية الثانية : هي سرعة توصيل الخبر إلى النبي ﷺ وعمله ﷺ على إجهاض مهمات ونوايا المشركين ضد المسلمين.

٢ــ المخابرات الإسلامية فى أودية الجزيرة العربية.

لم يكن رجال المخابرات الإسلامية متواجدين فى مكة المكرمة فقط، بل فى أغلب الأودية المحيطة بمكة والمدينة والتى كانت توجد بها مضارب الأعراب الموالين لقريش، وكانوا دائمى التفكير فى الإغارة على المدينة المنورة فكان من الواجب غرس بعض رجال المخابرات الثابتين بينهم. فمن

---

(١) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ٥٤٦.

(*) عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، أسلم يوم فتح مكة. ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ٨٩.

(**) عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، كان قديم الإسلام بمكة هاجر إلى الحبشة فى المرة الثانية. المصدر السابق. جـ٤ ص ١١٣.

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ١٢٩.

هذا القبيل نجد أن أنيس بن أبي مرثد الغنوى (***)، كان عيناً لنبي بأوطاس (١) وهو واد فى ديار هوازن، وفيه كانت وقعة حنين للنبي ﷺ ببنى هوازن. (٢) وقبل غزوة أحد، أرسل أبو تميم الأسلمى (****) غلامه مسعود ابن هنيدة (*****)، من العرج على قدميه، إلى رسول الله ﷺ يخبره بقدوم قريش عليه، وما معهم من العدد والعدد والخيل والسلاح ليوم أحد (٣) والعرج قرية جامعة فى وادي من نواحي الطائف. (٤)

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من ثعلبة ومحارب بذى أمر، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف مدينة رسول الله ﷺ جمعهم رجل منهم يقال له (دعثور بن الحارث بن محارب)، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج فى أربعمائة رجل وخمسين معهم أفراس (٥) وذى أمر موضع بنجد من ديار غطفان (٦) وعلى الرغم من أن هذه الرواية لم تذكر اسم من بلغ رسول الله ﷺ هذا الخبر، إلا أنها تدل على مدى السرعة التى وصل بها هذا الخبر إلى رسول الله ﷺ ، لدرجة أن النبي ﷺ لم يعط لهم الفرصة للقيام بالهجوم على أطراف مدينته المنورة، بل فاجأهم فى عقر دارهم فهذه السرعة بالطبع كانت نابعة من رجل مخابرات مقيم هناك.

(***) أنيس بن مرثد بن أبي مرثد بن الحصين بن يربوع الغنوى من حلفاء قريش ومواليهم، كان مرثد حليفاً لحمزة بن عبد المطلب، شهد أنيس مع رسول الله فتح مكة وحنين مات سنة ٢٠هـ. ابن سعد:الطبقات.جـ٥ ص ١٠٥.

(١) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٩١.

(٢) الحموى : معجم البلدان. جـ١ ص ٢٨١.

(****) أبو تميم الأسلمى هو أوس بن حجر، أسلم بعد أن قدم رسول الله ﷺ المدينة ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ٢١٥.

(*****) مسعود بن هنيدة مولى أوس بن صجر، شهد المريسع مع النبي ﷺ وقد اعتقه مولاه. المصدر السابق. جـ٥ ص ٢١٦.

(٣) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٩٠.

(٤) الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص ٩٨.

(٥) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٩٥.

(٦) معجم البلدان. جـ١ ص ٢٥٢.

ويماثل الأمر فى (ذى أمر) الوضع كذلك فى (عرنه) وهو واد بحذاء عرفات [١]" فقد كان للنبي ﷺ به بعض رجال المخابرات، وإن كانت المصادر التاريخية قد بخلت علينا بذكر أسمائهم، وربما يكون السبب فى ذلك أن النبي ﷺ لم يخبر بهم أحداً لحساسية موقفهم. فعن عبد الله بن أنيس [*]، قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لى الناس ليغزوني وهو بعرنة فائته فاقتله : قال : قلت : يا رسول الله انعته لى حتى أعرفه، قال : إذا رأيته وجدت له قشعريرة، قال : فخرجت متوشحاً سيفى حتى وقعت عليه وهو بعرنة.. فقتلته.. فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال : أفلح الوجه، قال : قلت : قتلته يا رسول الله، قال : صدقت. [٢]

(١) المصدر السابق. جـ٤ ص ١١١.

(*) عبد الله بن أنيس بن أسعد بن حرام بن حبيب وهو حليف لبنى سواد من بنى سلمة من الأنصار، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، مات فى خلافة معاوية ابن أبي سفيان. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٣٩٩.

(٢) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ٢٦٧.

طرق الإنفاق على المخابرات على عهد النبي ﷺ

تعد المخابرات من العمليات الصعبة التي تتطلب الكثير من الأموال لسد نفقاتها، فضلا عن أجور العاملين بها، وكان الجيش على عهد النبي ﷺ لا يتجاوز — في البداية — بضع مئات، ومغنمه ما يصيب من قتال قوم على فاقة وشظف، فيتولى النبي ﷺ قسمته بينهم أولاً بأول، وقد كان آخر ما أتى به ﷺ ثمانمائة ألف درهم من البحرين فأقام حتى أمضاه. (١)

كانت المخابرات الإسلامية في بداية العهد المدني تعاني من قلة في النفقات، وكان هذا بالطبع يرجع إلى أن المسلمين الأوائل من المهاجرين قد تركوا أموالهم وديارهم حباً في دينهم ونصره لرسولهم، كما أن الأنصار قاموا بأعظم عملية تكافل اجتماعي عرفه التاريخ مع إخوانهم من المهاجرين، فلم يبق معهم إلا القليل

عن جابر بن عبد الله قال : بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة... كنا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط — ورق الشجر — ثم نبله بالماء فنأكله. (٢) وعن سعد بن أبي وقاص قال : خرجنا إلى بدر مع رسول الله ﷺ ومعنا سبعين بعيراً، فكانوا يتعاقبون، الثلاثة والأربعة، والإثنان، على بعير، وكنت أنا من أعظم أصحاب النبي ﷺ ... ولم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً. (٣)

وقد انعكست الظروف المالية وقلتها في البداية على العمليات المخابراتية، فقد عقد رسول الله ﷺ لواء لسعد بن أبي وقاص إلى الخرار — الخرار موضع من الجحفة قريب من خم — قال سعد : فخرجت في عشرين رجلاً أو أحد وعشرين على أقدامنا، فكنا نكمن النهار ونسير

---

(١) أمين الخولي : الجندية والسلم واقع ومثال. ط — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢م. ص ٧٣.

(٢) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ٥٢٢.

(٣) الواقدي : المغازي. جـ١ ص ٢٦.

الليل حتى صبحناها ـــ أى الخرار ـــ فنجد العير قد مرت بالأمس، وقد كان النبي ﷺ عهد إلى ألا أجاوز الخرار، ولولا ذلك لرجوت أن أدركهم (١)" فلو كان لدى صحابة رسول الله ﷺ فى ذلك الوقت ـــ قبل بدر ـــ وسيلة مناسبة أو أى وسيلة للمواصلات لكان فى إمكانهم إنجاز مهمتهم تلك وهي استطلاع عير تجارة قريش، ولكنهم لم يجدوا وسيلة سوى السير على الأقدام فكانت سبباً فى تأخرهم عن مشاهدة العير القادمة من الشام.

هذا وبعد وقعة بدر الكبرى تغير الوضع المالي للمسلمين إلى الأفضل من ذى قبل، فبالتالي انعكس ذلك على جهاز المخابرات الذى تعددت طرق الإنفاق عليه على عهد النبي ﷺ ، فقد تم الإنفاق على العمليات المخابراتية وعلى رجال المخابرات من مصادر مالية مختلفة بعضها كان خاضعاً لظروف تلك العملية نفسها، فكان من طرق الإنفاق على المخابرات من غنائم الغزوات وهو الأشهر والغالب.

ذكر الواقدى أن هناك ثمانية نفر من الصحابة رضوان الله عليهم، لم يحضروا بدراً، وضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم، فكلهم مستحق فى بدر... طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد، بعثهما رسول الله ﷺ يتحسسان العير. (٢) وكان طلحة قد كلم رسول الله ﷺ فى سهمه فقال له رسول الله ﷺ : " لك سهمك " قال : وأجرى يا رسول الله :قال:وأجرك.(٣)

وكان رسول الله ﷺ يكافئ من يساعد رجال مخابراته بالمكافآت المادية والعينية، من ذلك أن كشد(*) قد ساعد طلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد في التجسس على عير قريش، فقدم

---

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ١١.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٠١.

(٣) التلمساني : الدلالات السمعية. ص ٤٦٦.

(*) كشد الجهني رأى النبيﷺ ولعله كشد، والكشد فى اللغة حب يؤكل ثم سمى به. ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة تحقيق / محمود إبراهيم البنا. ط ـــ دار الشعب ـــ مصر ـــ لم تذكر سنة الطبع. جـ٤ ص ٤٧٣.

كشد بعد ذلك، فأخبر النبي ﷺ سعيد وطلحة إجارته إياهما، فحياه رسول الله ﷺ وأكرمه وقال : ألا أقطع لك ينع (*) ؟، فقال : إني كبير وقد نفد عمرى، ولكن أقطعها لابن أخي، فقطعها له (١)" ومن ذلك أيضا أن النبي ﷺ استأجر ـ حسل بن نوبرة الأشجعي ـ بعشرين صاعاً ليدل أصحابه على طريق خيبر ففعل، ثم أسلم. (٢)

وكان رسول الله ﷺ يساعد رجال مخابراته فى الإنفاق على زواجهم نظير ما يقدمونه من خدمات مخابراتية للدولة الإسلامية، وكان ذلك الإنفاق يتم ـ كما ذكر آنفاً ـ غالباً من الغنائم. عن عبد الله ابن أبي حدرد الأسلمى قال تزوجت امرأة من قومي فأصدقتها مائتي درهم، قال : فأتيت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحى، فقال : " كم أصدقت ؟ فقلت : مائتي درهم، فقال : سبحان الله والله لو كنتم تأخذونها من واد ما زدتم، والله ما عندى ما أعينك به "، فلبثت أياماً ثم اقبل رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس فى بطن عظيم من جشم يريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله ﷺ فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين فقال : " أخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم " فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف، حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر مع غروب الشمس فكمنت فى ناحية وأمرت صاحبي فكمنا فى ناحية أخرى من حاضر القوم... فاستقنا إبلاً عظيمة وغنماً كثيرة فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فأعطاني من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً فى صداقي فجمعت إلى أهلي. (٣)

ولم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التى يعطي فيها النبي ﷺ رجل مخابراته عبد الله بن أبي حدرد ما يساعده على زواجه، بل كان عبد الله بن أبي حدرد هو أيضا رجل مخابرات النبي ﷺ

(*) ينع: عن يمين رضوى لمن كان متجهاً من المدينة إلى البحر على سبع مراحل، وكان يسكنها الأنصار وجهينة وليث. الحموى : معجم البلدان. جـ٥ ص ٤٥٠.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠.

(٢) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٧٧.

(٣) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ بتصرف بسيط.

قبل غزوة حنين، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الجعرانة (*) بعد منصرفة من حنين وأخذ فى تقسيم الغنائم فأرسل إلى عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى وقال له : خذ هذه القطعة من الغنم قال عبد الله بن أبي حدرد : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاةً ضائنة.(١)

هذا وكانت أجور الأدلاء الذين يساعدون رجال المخابرات والجيش الإسلامي فى مهمته تدفع أيضا من الغنائم، فقد بعث النبي ﷺ أبا سلمة (**) إلى بنى أسد فخرج فى أصحابه وخرج معه أحد بنى طى دليلاً له ــ وهو نفس الطائى الذى أتى بخبر نية بنى أسد فى الإغارة على المدينة فنكب بهم الطائى عن الطريق وعارض الطريق وسار بهم ليلاً ونهاراً فأصابوا إبلاً وشاء، ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعاً ورجع معه الطائى، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم، فأعطى أبو سلمة الطائى الدليل رضاه من المغنم (٢) وكان هذا الطائى مستحقاً لذلك العطاء ــ فهو فضلاً عن أنه موصل الخبر لرسول الله ﷺ فقد قال عنه الواقدى فى موضع آخر : وكان خريتاً ــ ماهراً ــ سلك بهم غير الطريق ــ المعروف ــ لكى يعمي الخبر على القوم. (٣)

وكانت المهمات المخابراتية يتم الإنفاق عليها أحياناً من خلال التبرعات العينية التى كان يقوم بها كبار الصحابة رضوان الله عليهم، من ذلك أن النبي ﷺ أقام بذى قرد (***) يوماً وليلة يتحسب الخبر، وقسم فى كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها وكانوا خمسمائة... وأقام رسول

(*) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب. الحموى : معجم البلدان جـ٢ ص ١٤٢.

(١) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ٩٣٩.

(**) أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم ويدعو فيها. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٢٢٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٣٤٣.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ص ٣٤٤.

(***) ذى قرد : ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. الحموى : معجم البلدان جـ٤ ص ٣٢١.

الله ﷺ سعد بن عبادة (*) فى ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة... فبعث سعد إلى النبي ﷺ بأحمال تمر و بعشرة جزائر بذى قرد، وكان فى الناس قيس ابن سعد بن عبادة (**) وكان هو الذى قرب الجزور والتمر إلى النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : يا قيس، بعثك أبوك فارساً، وقوى المجاهدين، وحرس المدينة من العدو، اللهم ارحم سعداً وآل سعد. (١)

إذا كانت هذه هي الطرق المتبعة فى سد نفقات المخابرات، فأحياناً كان المقابل على القيام بهذه المهمات أكبر من هذا العائد المادى الزائل، وهو الوعد بالجنة ورفقه النبي ﷺ يوم القيامة. عن حذيفة ابن اليمان، قال : لقد رايتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقر. فقال رسول الله ﷺ ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة ؟. (٢) وعن جابر رضى الله عنه قال : " قال النبي ﷺ : من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب ؟ فقال الزبير : أنا، ثم قال : من يأتيني بخبر القوم ؟ قال الزبير : أنا، فقال النبي ﷺ : إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير ". (٣)

وكان إرسال حذيفة بعد نهاية الغزوة وإرسال الزبير قبل النهاية عندما بلغ المسلمين أن بنى قريظة من اليهود نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين ووافقوا قريشاً على حرب المسلمين. (٤)

(*) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي حذيمة الأنصاري، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، توفى سعد بحوران من أرض الشام سنة خمس عشرة. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥٧٠.

(**) قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصارى، استعمله رسول الله ﷺ على الصدقة توفى بالمدينة فى آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان، المصدر السابق جـ٥ ص ٣٦٩ وما بعدها.

(١) المغازى : جـ٢ ص ٥٤٧.

(٢) السيوطى : الخصائص الكبرى. جـ١ ص ٢٣٠.

(٣) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ٥٢.

(٤) المصدر السابق : جـ٦ ص ٥٣.

أحياناً كانت المكافأة على حفظ الأسرار، بالوعد الصادق منه ﷺ في بعض متاع الدنيا لمن يكتم أسراره. من ذلك أن قريشاً لما رصدت مكافأة كبيرة لقتل النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة خرج في أثره ﷺ سراقة بن مالك (***)، فلما وصل إليهم قال سراقة : فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يسألاني إلا أن قالا : أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من أدم. (١) فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله ﷺ : كيف بك يا سراقة إذا سورت بسوارى كسرى ؟ قال : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم، فعاد سراقة فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال : كفيتم ما هاهنا، ولا يلقى أحداً إلا رده (٢) وقال لهم : ارجعوا قد عرفتم بصرى بالأثر، فرجعوا عنه. (٣)

وإذا كانت هذه هي طرق الإنفاق على المخابرات على عهد النبي ﷺ ، إلا أن رجال مخابراته ﷺ لم يكونوا يقومون بمثل هذه الأعمال حباً في المال، أو جرياً وراء منصب، ولكن حباً في الله ورسوله، وحباً في نصره الإسلام.

فقد حارب الإسلام بأسلوب قوي عوامل الضعف ونزعات الخوف وغرس في نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والإستهانة بزخرف الحياة في سبيل الحق ونصرته، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٤) . الحجرات : آية ١٥ .

(***) سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك... بن عبد مناف بن كنانة أسلم بعد حنين عندما قدم النبي ﷺ إلى الجعرانة. ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ١٤٨.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٠٥.

(٣) ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ١٥٠.

(٤) خطاب : الرسول القائد. ص ٢٥.

تمهيـــد

تعددت طرق جهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ فى جمع المعلومـــات عـــن الأعداء ـــ أو ما يعرف بالمخابرات الإيجابية ـــ وذلك ما بين الطلعات العسكرية الاستخبارية، أو عن طريق العملاء والأدلاء، أو استجواب الأسرى والحصول على ما معهم من معلومات، كمـــا كان للوحي دوراً كبيراً فى تبليغ الأخبار للنبي ﷺ ، إلى غير ذلك من طـــرق الحـــصول علـــى المعلومات.

هذا وإلى جانب تعدد الطرق فى جمع المعلومات، تعددت أيضاً وســـائل توصـــيل هـــذه المعلومات إلى مركز القيادة.

كما تعددت أيضاً طرق القيادة الإسلامية فى التعامل مع هذه المعلومات الواصلة إليها. وقد أتـــت هذه التعددية فى الطرق والوسائل والتعامل، بثمارها الجيدة النافعة على الدولة الإسلامية، وهـــذا ما سوف نتعرف عليه فى الأوراق التاليـــة.

دور الوحي فى تبليغ الأخبار إلى النبي ﷺ

على الرغم من أن دور الوحي فى تبليغ الأخبار إلى النبي ﷺ كان من أقل الطرق التى كان يعتمد عليها النبي ﷺ ، إلا أننى آثرت أن أبدء به الحديث عن طرق جمع المعلومات، لشرف هذا المصدر ؛ لأن المبلغ هو المولى عز وجل عن طريق الروح الأمين.

فقد توفرت لمحمد بن عبد الله صفة لم تتوفر لأحد غيره من قادة الدول، وهي صفة النبوة، والتى كان من لوازمها الوحي، وكانت مهمة هذا الوحي ليس حفظ الدين وتبليغ أوامره ونواهيه فقط، بل حفظ الدولة الإسلامية الناشئة أيضا، فلهذا كانت عناية السماء تتدخل وتبلغ الأخبار إلى النبي ﷺ ، ولكن فى أضيق الحدود. فقد كانت تتدخل عندما يقوم النبي ﷺ ورجال مخابراته، ببذل كل ما لديهم من جهد، فإذا ما عجزوا كانت السماء تأتي مكملة لهم، أو تأتي بما غاب عنهم من أخبار مطلقاً، كما أن عدم تدخل السماء فى توصيل الأخبار فى بعض الأحداث الجسام، كان له مغزاه وهو اعتماد المسلمين على أنفسهم وعدم الإتكال على القدرة الإلهية كلية.

يأتي فى مقدمة تدخل السماء فى توصيل الخبر إلى رسول الله ﷺ إخبار النبي ﷺ بما دبرت له قريش فى دار الندوة من مؤامرة لقتله ﷺ ، وكان لهذا التدخل ظروفه الخاصة ـ كما ذكر آنفاً فى الفصل الأول ـ فقد أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه.(١)

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده إذا نام.(٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٩١.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٢٢٩.

ولما ذهب النبي ﷺ إلى بنى النضير ليعينوه فى عقال بعض القتلى قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هـذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه. فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال : أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما أبطأ النبي ﷺ عن أصحابه قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به. (١) فكان توصيل الخبر إلى النبي ﷺ فى هذا الموقف، لأن المسألة لم تكن تحتمل التأخير، حيث كانت المؤامرة وليدة اللحظة، وأخذت حيز التنفيذ الفوري، فتدخلت عناية السماء كي تعصم رسول الله ﷺ .

عندما أرسل رسول الله ﷺ خوات بن جبير (*) ليأتيه بخبر بنى قريظة فى غزوة الخندق. جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ ظفرت يا خوات، ثم خرج فأخبر أصحابه فقال : كان من أمر خوات كذا وكذا، وآتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه وهم يتحدثون، فلما رآني قال : أفلح وجهك، قلت : ووجهك يا رسول الله، قال : أخبرني خبرك، فأخبره، فقال رسول الله ﷺ : هكذا أخبرني جبريل وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ . (٢)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٤٦.

(*) خوات بن جبير بن النعمان بن أمية بن البرك، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، مات خوات بالمدينة فى سنة أربعين. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٤٤٢.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٦١.

لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش، وعلم بذلك الناس، كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ وأعطى الكتاب امرأةً (**) من مزينة، وجعل لها جعلاً على أن توصله قريشاً، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها، فخرجت، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب (١)" فبعث رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : " أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم. (٢) فكان تدخل الوحي فى هذا الموقف ؛ لأن المخابرات الإسلامية قد قامت بكل ما عليها من جهد فى منع وصول الخبر إلى قريش فتدخلت السماء لإتمام دور المخابرات الإسلامية فى ذلك، واستجابة لدعاء الرسول ﷺ بأن يأخذ عنه عيون قريش حتى يأتيهم بنفسه ـــ كما سيرد ذكر ذلك فى الفصل القادم ـــ.

عندما أراد رسول الله ﷺ غزو ثقيف، أقبل عيينة بن بدر (*) حتى جاء رسول الله ﷺ فقال : أئذن لى أن أكلمهم لعل الله أن يهديهم فأذن له فانطلق حتى دخل عليهم الحصن فقال : بأبي أنتم تمسكوا بمكانكم والله لنحن أذل من العبيد وأقسم بالله لئن حدث به حدث لتملكن العرب عزاً ومنعه، فتمسكوا بحصنكم وإياكم أن تعطوا أيديكم ولا يتكاثرن عليكم قطع هذا الشجر، ثم

(**) هذه المرأة يقال لها سارة جاءت إلى النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فقال عليه السلام : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا، قال : أمهاجرة جئت ؟ قالت : لا، قال: فما جاء بك ؟ قالت : قد ذهب الموالى يوم بدر ـــ أى قتلوا فى ذلك اليوم ـــ فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بنى المطلب فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها ذلك الكتاب إلى أهل مكة، فخرجت سائرة، فأطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك.الفخر الرازى : مفاتيح الغيب.ط ـــ دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م. جـ٢٩ ص٢٥٧.

(١) المغازى : جـ٢ ص ٧٩٧.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٥٣٦.

(*) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو... أسلم قبل فتح مكة، عمى فى خلافة عثمان. ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ١٧٤.

رجع عيينة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : ماذا قلت لعم يا عيينه ؟ قال : قلت لهم وأمرتهم بالإسلام، ودعوتهم إليه وحذرتهم النار، ودللتهم على الجنة، فقال لـه رسـول الله ﷺ كذبت بل قلت لهم : كذا وكذا، فقص عليه رسول الله ﷺ حديثه، فقال : صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله عز وجل وإليك من ذلك. (١)

بعث رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق بعد إسلامهم بأكثر من عامين الوليد بن عقبة بن أبى معيط (**) مصدقاً لهم ـ جامعاً للزكاة ـ فخرجوا ليتلقوه، ففزع منهم، وظن أنهم يريدونه بسوء، فرجع عنهم، وأخبر رسول الله ﷺ أنهم ارتدوا ومنعوا الزكاة وهموا بقتلـه، فتكلم المسلمون فى غزوهم، فحينما هم كذلك إذ قدم وافدهم منكراً لرجوع مصدقهم عنهم دون أن يأخذ صدقاتهم وأنهم إنما خرجوا إليه مكرمين له، فأكذبه الوليد بن عقبة، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ يعني الوليد بن عقبة ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ (***). (٢)

وكان تدخل السماء فى هذا الموقف بتصحيح معلومات المسلمين كى لا يقومـوا بخطـأ جسيم هو قتل إخوانهم فى الدين، فهذه كانت أهم الأحداث التى تدخلت فيها السماء فى توصيل الأخبار إلى النبي ﷺ وهي حالات قليلة جداً قياساً بعدد الغزوات والسرايا التى قام بها النبي ﷺ أو كلف بها بعض أصحابه ﷺ وهذا يقف دليلاً قوياً على أن المسلمين كـانوا يعتمـدون علـى أنفسهم فى جمع المعلومات، ولم يكونوا يتكلون على العناية الإلهية فى ذلك الأمر.

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ٩٣٢، ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ١٧٨.

(**) الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس... أسلم يوم فتح مكة... مات بالرقـة وقبره بعين الرومية الطبقات. جـ٦ ص ٣٦.

(***) سورة الحجرات : آية ٦.

(٢) ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغازى والسير. تحقيق د/ شوقي ضيف. ط ـ المجلس الأعلى للـشئون الإسلامية. القاهرة سنة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م. ص ٢٠٣

دور السرايا فى جمع المعلومات

السرايا قوة محدودة مهمتها الحصول على المعلومات فى الميدان عن العدو وأوضاعه، وأسلحته، وكذلك عن الأرض وطبيعتها، وكذلك الطرق، وهي نوعان : دوريات استطلاع، وهي التى تحصل على المعلومات دون قتال لذلك تكون صغيرة العدد سريعة الحركة، ودوريات القتال : وهي التى تقاتل لكي تحصل على المعلومات لذلك تكون قوية فى عددها وعدتها.(١)

وينبغي لصاحب الطلائع أن يكون رجلاً مذكوراً، بعيد الصوت، ثقة ناصحاً عاقلاً مدبراً، نجداً جسوراً، حاضر الحذر، وينبغي لجميع الطلائع أن يكونوا من أهل النصيحة، والنجدة والتجربة للحرب. (٢)

وقد توفرت كل هذه الشروط فى جنود وقادة السرايا على عهد النبي ﷺ فقد كانوا من المقربين إليه ﷺ وكان بهم من الكفأة ما استطاعوا من خلاله أن يحققوا طلعاتهم الاستخباراتية بنجاح فائق النظير، بغض النظر عن بعض الإخفاقات التى كان لها ظروف معينة.

لم يكتف رسول الله ﷺ بالاستخبارات العسكرية التى تعتمد على عناصر فى الجيوش المعادية ومعسكراتها أو عيون من المسلمين وغيرهم بجمع الأخبار عن هؤلاء الأعداء وتزود الرسول ﷺ ، بل كان يرسل السرايا والبعوث العسكرية يستطلع أخبار الجيوش المعادية وسرايا الأعداء وكذلك قوافلهم التجارية وحراسها وقادتها (٣)" وكان من أهداف السرايا أيضا كسب ود القبائل التى تقع فى طريق القوافل التى تمر بها تجارة قريش، فإذا نجح فى كسب ود هذه القبائل وأقام معها علاقات صداقة فسوف يفوز بمعلومات دقيقة عن خطط قريش وبالفعل حققت تلك السرايا نتائج

---

(١) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية الإسلامية. ص ٤٣٩.

(٢) الهرثمى : مختصر سياسة الحروب. ص ٤٨.

(٣) أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ٧٨.

طيبة فى هذا السبيـــل. (١) ففي غزوة الأبواء ـــ فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة ـــ وادع رسول الله ﷺ ، مخشى بن عمرو الضمرى، وكان سيدهم فى زمانـــه، على أن لا يغـــزو بنى ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً وكانت هذه أول غزوة غزاها (٢) النبي ﷺ وحقق ﷺ من خلالها هذا النجاح.

وكانت تتراوح القوة التى تتألف منها السرايا من بضعة أفراد إلى بضع مئات وتعتبر مقدمة لتولى مهام أكبر منها، وهي تفيد القائد من جوانب كثيرة منها دراسة الأرض والطرق واستطلاع أحوال العدو والدخول معه فى تجربة القتال الفعلي لسبر أغواره واختبار قوتـــه وقدرته القتالية إلى غير ذلك من جوانب الخبرة القتالية. (٣)

فبسبب تعقد أعمال الجاسوسية والصعاب التى تواجه عمليات التجسس وصعوبة الحصول على العملاء الموثوق بهم... فإنه حتى الأمم التى تقوم بنشاط واسع المدى فى أعمـــال الجاسوســـية تستخدم عدداً صغيراً نسبياً من الجواسيس (٤) فكلما كان العدد أقل كانت الفرصة أكبر فى تحقيق الهدف، مثل سرية عبد الله بن جحش، كانت حملة استطلاع، وجمع معلومات، ورصد أخبار عن قريش، ولم تكن حملة قتال أو تصدى لعيرها (٥) وحدد الهرثمى أقل عدد ممكن أن تتكـــون منـــه السرية فقال (٦) : " ولا يكونون أقل من ثلاثة : أحدهم يأتي بالخبر، واثنان يتقدمان إلى العدو ". والمتصفح لأحداث سرايا النبي ﷺ يجد أن النبي ﷺ لم يرسل سرية لجمع الأخبار أقل من هـــذا

(١) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام فى عصر النبوة. ص ١٧٩.
(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٢ ص ٧.
(٣) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ٣١١.
(٤) هاني : الجاسوسية بين الوقاية والعلاج. ص ٧١.
(٥) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام فى عصر النبوة. ص ٢١٧.
(٦) الهرثمى : مختصر سياسة الحروب. ص ٤٩.

العدد. وليس على رجال السرية، إلا أن يأتوا بالخبر، ولا يباشروا اللقاء إلا عن ضرورة (١). وقد عابت قريش على رسول الله ﷺ أن قاتل عبد الله بن جحش عير قريش فى الشهر الحرام، ونتج عن المعركة أسيرين. إلا أن رسول الله ﷺ لم يأمر سريته بالقتال فى الشهر الحرام ولا غير الشهر الحرام، إنما أمرهم أن يتجسسوا أخبار قريش فقط. (٢)

كان رسول الله ﷺ فى غزواته كثيراً ما يرسل السرايا الاستطلاعية لجمع المعلومات عن العدو، ففي غزوة ذات الرقاع، بعث رسول الله ﷺ السرايا فرجعوا إليه مع الليل، وخبروه أنهم لم يروا أحداً وقد وطئوا آثاراً حديثة (٣). وعن أبي هريرة ﷺ قال : " بعث النبي ﷺ سرية عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا " بعثهم عيوناً إلى مكة ليأتوه بخبر قريش (٤)" هذا إلى جانب غيرها من السرايا العديدة التى أرسلها النبى ﷺ لجمع المعلومات عن العدو — إلى جانب الطلعات الفردية لرجال مخابراته — ولم تكن كلها ترسل قبل الغزوات فقط، بل كانت تخرج فى بعض الحالات من أجل جمع المعلومات أصلاً.

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٦.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ص ٣٩٦.

(٤) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٣٧٨.

جمع المعلومات عن طريق الأدلاء والعملاء

كان رسول الله ﷺ حريصاً على الاستفادة من الخبراء بالطرق العسكرية الآمنة، فكان ﷺ يختار الأدلاء، وكانوا مهرة فى هذا الفن، وكانت الأهداف المنشودة تتحقق باستخدامهم، إذ كانوا يرشدون الجيوش إلى الطرق الآمنة، وإلى أقصر هذه الطرق أحياناً مع أمنها لتصل إلى أهدافها بسرعة (١) فقد كان ثابت بن الضحاك (*) دليل النبي ﷺ إلى حمراء الأسد. (٢)

وعندما كان رسول الله ﷺ فى طريقه إلى أحد، نام ﷺ حتى أدلج فلما كان فى السحر قال رسول الله ﷺ : أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب ؟ فقام أبو حثمة الحارثى (**)، فقال : أنا يا رسول الله (٣) ولما أراد ﷺ أن يغزو الطائف قدم النبي ﷺ خالد بن الوليد من حنين على مقدمته، وأخذ من يسلك به من الأدلاء إلى الطائف. (٤)

وكانت السرايا التى يقودها بعض الصحابة رضوان الله عليهم تستعين بالأدلاء أيضاً، ففي سنة ٧ هـ بعث رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب ﷺ فى ثلاثين راكباً ومعه دليل من بنى هلال، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، فلما انتهوا إلى بلادهم هربوا منهم وكر عمر راجعاً إلى

---

(١) أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١٩٢.

(*) ثابت بن الضحاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدى الأنصارى شهد بيعة الرضوان كان رديف النبي ﷺ يوم الخندق وكان ممن بايع تحت الشجرة، مات سنة خمس وأربعين. ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة. ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ. جـ١ ص ١٩٣.

(٢) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٧٧.

(**) أبو حثمة : هو عبد الله بن ساعدة بن عامر بن عدى بن حارثة... كان كبيراً وشهد مع رسول الله أحد وما بعد ذلك من المشاهد. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٢٨٣.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢١٧.

(٤) المصدر السابق : جـ٣ ص ٩٢٣.

المدينة (١)" وفى سرية زيد بن حارثة فى جمادى الآخرة سنة ٦ هـ كان معه دليل من بنى عذرة. (٢)

هذا وقد استطاع المسلمون من خلال هؤلاء الأدلاء وغيرهم، التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة المؤدية إلى مكة خاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها. (٣) لم يكن النبي ﷺ يستعين بالأدلاء من أجل معرفة أفضل الطرق التى يمكن أن يسلكها فقط، بل كان هؤلاء الأدلاء مصدراً هاماً يمد جهاز المخابرات الإسلامية بالمعلومات قبل الغزوات والسرايا، أو أثناءها أيضا.

فقد قدم رجل من أشجع يقال له (حسيل بن نويرة) وقد كان دليل النبي ﷺ إلى خيبر، فقال له رسول الله ﷺ : من أين يا حسيل ؟ قال : قدمت من الجناب ـ من أرض غطفان ـ فقال رسول الله ﷺ : ما وراءك ؟ قال : تركت جمعاً من غطفان بالجناب، قد بعث إليهم عيينه بن حصن يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم. فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى تزحف إلى محمد جميعاً، وهم يريدونك أو بعض أطرافك. فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما، فذكر لهما ذلك (٤)" ثم بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد فى ثلاثمائة رجل إلى الجناب لقتال تجمع غطفان هناك، فخرج معهم حسيل بن نويرة دليلاً، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر... ثم دنوا من القوم، فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثلثا نهار أو نصفه، فإن أحببتم كمنتم وخرجت طليعة لكم حتى أتيكم بالخبر، وإن أحييتم سرنا جميعاً، قالوا : بل نقدمك، فقدموه، فغاب عنهم ساعة ثم كر عليهم فقال : هذا أوائل سرحهم فهل لكم أن تغيروا عليهم ؟. (٥)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٤١٨.

(٢) المغازى : جـ٢ ص ٥٥٧.

(٣) خطاب : الرسول القائد. ص ٦٠.

(٤) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٢٧.

(٥) المصدر السابق : جـ١ ص ٧٢٨.

على الرغم من أن حسيل بن نويرة هو الذى أتى بخبر هذا التجمع المعادى لرسول الله ﷺ ، إلا أنه لم يكتف بذلك فقط، بل أصبح دليلاً لأصحاب رسول الله ﷺ ، ثم قام بجمع المعلومات أثناء السرية بنفسه، وربما يكون كل هذا المجهود منه لأنه اعتنق الإسلام فى ذلك الوقت، كما ذكر آنفاً فى ترجمته.عندما أراد رسول الله ﷺ أن يغزو دومة الجندل (*) خرج فى ألف من المسلمين، وكان معه دليل له من بنى عذرة يقال له (مدكور) هاد خريت ـ أى ماهر ـ فخرج رسول الله ﷺ مغذا للسير، ونكب عن طريقهم، ولما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل ـ وكان بينه وبينها يوم أو ليلة ـ قال له الدليل : يا رسول الله، إن سوائمهم ترعى فأقم لى حتى أطلع لك. قال رسول الله ﷺ : نعم. فخرج العذرى طليعة حتى وجد آثار النعم والشياه وهم مغربون، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره وقد عرف مواضعهم فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد بها أحداً. (١)

هذا ولم يكن المسلمون يأخذون المعلومات من الأدلاء فقط، والذين يمكن أن يطلق عليهم (شبه عملاء) لأنهم كانوا على الحياد بين النبي ﷺ والأطراف المعادية له، لكن نجح جهاز المخابرات الإسلامية، فى أن يكون من ضمن مصادر معلوماته (العملاء) من أتباع الأطراف المعادية أنفسهم، وهو ما يطلق عليه الآن (العميل المزدوج) وربما يكون قد اكتسب هذا الاسم من الازدواجية فى الولاء.

من ذلك أن رسول الله ﷺ بعث علياً فى مائة رجل إلى حي سعد، بفدك (*) فى شعبان سنة ٦هـ فسار الليل وكمن النهار، فأصاب عيناً فقال : ما أنت ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بنى سعد ؟ قال : لا علم لى به، فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على

(*) دومة الجندل : على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة رسول الله ﷺ. الحموى : معجم البلدان. جـ٢ ص ٤٨٧.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٤٠٣.

(*) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان. الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص ٢٣٨.

يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم، فقال لـه : فأين القوم ؟ قال : تركتهم وقد تجمع منهم مائتا رجل، ورأسهم (وبر ابن عليم) قالوا : فسر بنا حتى تدلنا، قال : على أن تؤمنوني، قالوا : إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمناك، وإلا فلا أمان لك، قال : فذاك. (١)

فلم يكتف الإمام علي كرم الله وجهه ـــ وهو المتخصص فى القبض علـى الجواسـيس المعادية كما ذكر آنفاً فى قبضه على المرأة التى أرسلها حاطب إلى قريش ـــ بالقبض علـى هـذا الجاسوس وكشف أمره فقط، بل نجح أيضا ـــ وهو فى الأصل من رجال المخـابرات الإسـلامية البارعين ـــ فى تجنيد هذا الجاسوس لخدمة المسلمين وأخذ ما لديه من معلومات، بل وجعله دليلاً له ضد من كان يتجسس لحسابهم.

وفى فتح خيبر، أقام رسول الله ﷺ على محاصرة الذين فى قلعة الزبير بحصن النطاة (**)، ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال لـه (غزال) فقال : أبا القاسم، تؤمني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك ؟ فأمنـه رسول الله ﷺ على أهله وماله، فقال اليهودي : إنك لو أقمت شهراً ما بالوا، لهم دبول ـــ أى جدول ماء ـــ تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منـك، وإن قطعت مشربهم عليهم ضجوا، فسار رسول الله ﷺ إلى دبولهم فقطعها، فلما قطع علـيهم مشاربهم لم يطيقوا المقام على العطش، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال.. وافتتحـه رسـول الله ﷺ فكان آخر حصون النطاة. (٢)

ولم يكن غزال هذا هو اليهودي الوحيد الذى استطاع النبي ﷺ أن يجنده لصالحه ضـد بنى جلدته ففى فتح خيبر أيضاً، كان رسول الله ﷺ يناوب بين أصحابه فى حراسة الليـل لمـدة

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٥٦٢.

(**) منطقة النطاة تتكون من حصون عديدة أهمها ثلاثة حصون هي : حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير ومنطقة الشق أهم حصونها حصنان هما : حصن أبى، وحصن التزار أو البزاة والبرى، ومنطقة الكتيبة أهم حصونها ثلاثة حصون وهي : حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم. د/ أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١٠٣.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٦٦٦.

سبعة أيام ـــ فى فتح خيبر ـــ فلما كانت الليلة السادسة من السبع استعمل عمر بن الخطاب على العسكر فطاف عمر بأصحابه حول العسكر، فأتى برجل من اليهود فى جوف الليل فأمر عمر أن يضرب عنقه، فقال اليهودي : اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه فأمسكه عمر وانتهى به إلى بـــاب رسول الله ﷺ ... ودخل عمر باليهودي، فقال رسول الله ﷺ لليهودي : ما رواءك ومن أنت ؟ فقال اليهودي : تؤمني يا أبا القاسم وأصدقك ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم فقـــال اليهـــودي : خرجت من حصن النطاة من عند قوم ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة، قال رسول الله ﷺ : فأين يذهبون ؟ قال : إلى أذل مما كانوا فيه، وقد رعبـــوا منـــك حـــتى أن أفئدتهم لتخفق، وهذا حصن اليهود فيه السلاح والطعام، وفيه آلة حصونهم التى كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيبوا ذلك فى بيت من حصونهم تحت الأرض، قال رسول الله ﷺ : وما هو ؟ قال : منجنيق (*) مفككة ودبابتان (**) وسلاح من دروع وسيوف، فإذا دخلت الحـــصن غـــداً أوقفك عليه، فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيرى، وأخرى، قيل : ما هي ؟ قال : ستخرجه، ثم أنصب المنجنيق على حصن الشق، وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه مـــن يومك، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة... فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا بالمـــسلمين إلى النطـــاة، ففتح الله الحصن، واستخرج ما كان قال اليهودي فيه... وكان هذا اليهودي اسمه (سماك) وأسلم بعد فتح حصنى الوطيح وسلالم. (١)

من خلال الرواية السالفة الذكر، نستنتج أن هذا اليهودي لم يكن أسيراً فى الأصل، بـــل خـــرج بمحض إرادتـــه من حصن بنى جلدته، ثم وقع فى يد الحراسة الإسلامية المشددة بقيادة عمر بـــن الخطاب ﷺ، وربما يكون دافعه للخروج إحساسه بالإحباط من الحصار الإسلامي المشدد، وبـــأن النبي ﷺ قد قضى على جميع اليهود فى المدينة ولن تعجزه خيبر، فأراد أن ينجو بنفسه مقابل مـــا

(*) المنجنيق : آلة حربية يعمل من الخشب الجيد، مثلث متساوي الساقين، الطرسوسى : تبـــصرة أربـــاب الألباب. ص ١٦٦.

(**) الدبابة : آلة حربية يستعان بها فى نقب الأسوار وما شابهها. المصدر السابق ص ١٧٠.

(١) الواقدى : المغازى . جـــ٢ ص ٦٤٧ ـــ ٦٤٨.

يمد به المسلمين من معلومات، هذا من ناحية، الناحية الثانية أن النبي ﷺ قد أخذ منه من المعلومات ما يساوي قوة جيش بكامله، استطاع من خلالها أن يفتح خيبر بالفعل، كما عرف المسلمون بعض الآلات العسكرية الحديثة التي لم يعهدوها من قبل.

جمع المعلومات عن طريق الأسرى

استجواب الأسرى هي العملية التي تجرى مع الأسير للحصول منه على المعلومات من خلال إجاباته على الأسئلة التي توجه إليه عقب أسره (١) وفي العصر الحديث لا تجيز اتفاقية جنيف سنة ١٩٤٩م للدولة المحاربة استعمال الضغط على الأسير للحصول على معلومات تفيدها في عملها العسكري ضد دولته، وحددت المعلومات التي يمكن أن تطلبها إليه وهي الإدلاء باسمه ولقبه ورتبته العسكرية (٢) ولكن في نفس الوقت نجد أن القانون الدولي قد أخرج بعض الطوائف من عداد الأسرى كالجواسيس والجنود المرتزقة. (٣)

وعلى هذا يقول بول لاينبرجر (٤): " من المستحسن عند استجواب الأسرى أن نستجوبهم لأغراض معنوية بالإضافة إلى المعلومات العسكرية والعامة "، فأسرى الحرب من أهم المصادر بل وأكثرها فائدة بالنسبة للمخابرات في الميدان للحصول على المعلومات... فالجندي الذي وقع في الأسر، قد يفضي بمعلومات مفيدة عن طريق إجاباته على الأسئلة التي قد يبدو ظاهرياً أنها أسئلة بريئة خاصة عندما توجه هذه الأسئلة من أشخاص يتمتعون بخبرة عالية في عمليات الاستجواب. (٥) بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له. (٦)

---

(١) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ٤٣٩.

(٢) د/ عبد اللطيف عامر : أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية. ط ـ دار الكتاب المصري ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م. ص ١٥٠.

(٣) المرجع السابق : ص ١٠٢.

(٤) بول لاينبرجر : الحرب النفسية. ترجمة / حمير الرشيد. ط ـ دار أمية ـ الرياض.الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م. ص ١٣٦.

(٥) هانى : الجاسوسية. ص ٢٠٦.

(٦) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٩٧.

فكان من النتائج التى ترتبت على سرية علي بن أبي طالب الاستطلاعية لجمع المعلومات عن قريش أن أخذوا (يسار) غلام عبيد ابن سعيد بن العاص، و (أسلم) غلام منبتة بن الحجاج، و (أبو رافع) غلام أمية بن خلف، فأتى بهم النبي ﷺ وهو قائم يصلي... فضربوهم، فلما أضعفوهم بالضرب وسلم رسول الله ﷺ من صلاته، ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم (*). فقال أصحاب رسول الله ﷺ : يخبروننا يا رسول الله أن قريشاً قد جاءت، قال رسول الله ﷺ : صدقوكم، خرجت قريش تمنع عيرها وخافوكم عليها، ثم أقبل رسول الله على السقاء فقال : أين قريش ؟ قالوا خلف هذا الكثيب الذى ترى، قال: كم هم ؟ قالوا كثير، قال : كم عددهم ؟ قالوا : لا ندري كم هم. قال : كم ينحرون ؟ قالوا : يوماً عشرة ويوماً تسعة، قال : القوم ما بين الألف والتسعمائة، ثم قال رسول الله ﷺ للسقاء : من خرج من مكة ؟ قالوا : لم يبق أحد به طعم إلا خرج، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها، ثم سألهم رسول الله ﷺ هل رجع أحد منهم ؟ قالوا : رجع ابن أبي شريق ببنى زهرة... وبنو عدى بن كعب. (١)

من خلال الرواية السابقة يمكن أن نخلص بالملاحظات الآتية :

١ــ أنه يجوز ضرب الأسير الكافر ضرباً غير مفضى للموت من أجل أخذ المعلومات منه والدليل على ذلك ما فعله الصحابه بالسقاء من قريش إذ لم ينكره عليهم رسول الله ﷺ .

٢ــ أظهرت هذه الرواية عبقرية الرسول ﷺ الفذة فى القيادة حيث استطاع أن يأخذ من السقاء كل ما يريد وبسهولة تامة.

٣ــ استطاع رسول الله ﷺ بعبقريته الفذة فى القيادة أن يعرف عدد المشركين ــ

(*) قوله ﷺ لتضربوه إذا صدقكم أى إذا قال لكم كلاماً صادقاً وتتركوه إذا كذبكم أى إذا قال لكم كلاماً كاذباً... وفيه جواز ضرب الكافر الذى لا عهد له وإن كان أسيراً. صحيح مسلم. جـ٥ ص ١٧٠.

(١) الواقدى : المغازى: جـ١ ص ٥٣.

تقريباً بالتحديد ـــ عندما سئل عن عددهم فلم يعرف السقاء فسئل عن عدد ما يذبحون من الإبل فعرف منهم أنهم يذبحون ما بين العشرة أو التسعة وبما أنه ﷺ عربي الأصل يأكل مما يأكل كل العرب كان يعرف أن البعير يكفي لمائة فضرب مائة فى تسعة، أو عشرة كما قال السقاة ـــ فخرج بالعدد الصحيح فعرف من السقاء عدد المشركين ولكن بطريق غير مباشر ينم عن ذكاء لا يدانيه ذكاء.

٤ـــ سؤاله ﷺ عمن خرج ومن لم يخرج من قريش كان المغزى منه الشد من عزائم أصحابه بمعرفة من خرج وكذلك أخذ الحيطة والحذر ممن لم يخرج.

٥ـــ أن الرسول ﷺ قد أعطانا درساً كبيراً من دروس المخابرات، وهو أنه ﷺ لم يستجوب السقاء فى ملأ من الناس كي تسرب المعلومات بل في معزل من الناس، والدليل على ذلك أنه ﷺ عندما أخذ من السقاء المعلومات أقبل على الناس فقال : هذه قريش قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

عندما علم رسول الله ﷺ بتجمع ثعلبة ومحارب بذى أمر خرج فى أربعمائة رجل وخمسين ومعهم أفراس... ونزل بذى القصة (*)، فأصاب رجلاً منهم بذى القصة يقال له جبار من بنى ثعلبة، فقالوا : أين تريد ؟ قال : أريد يثرب، قالوا : وما حاجتك بيثرب ؟ قال : أردت أن أرتاد لنفسى وأنظر، قالوا : هل مررت بجمع، أو بلغك خبر لقومك ؟ قال : لا، إلا أنه قد بلغني أن دعثور بن الحارث فى أناس من قومه عزل فأدخلوه على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم وقال : يا محمد : إنهم لن يلاقوك، إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رءوس الجبال وأنا سائر معك ودالك على عوراتهم فخرج به النبي ﷺ وضمه إلى بلال. (١)

(*) ذى القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو طريق الربذة. الحموى : معجم البلدان. جـ٤ ص ٣٦٦.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٩٤.

نلاحظ على هذه الرواية أن مصدر جمع المعلومات عن العدو كان من خلال الأسرى — على الرغم من أن هذا الأسير أسلم بعد ذلك — كما نلاحظ أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يشاركون النبي ﷺ فى استجواب الأسرى، إلا أن النبي ﷺ فى كل الحالات قد تفوق عليهم فى هذا المضمار، فينما عرفوا من هذا الأسير تجمع دعثور فى أناس من قومه — وهي معلومة قديمة نحواً ما لأن النبي ﷺ قد خرج بأصحابه من أجل هذا التجمع — إلا أنه عندما دخل الأسير على النبي ﷺ استطاع أن يهديه إلى الإسلام، ثم دله على مكان هروبهم عندما علموا بمسيره ﷺ ، وهناك شئ آخر هو أن النبي ﷺ شك أن يكون إيمان هذا الرجل عن خوف أو تسرع فضمه إلى حراسة بلال بن رباح ﷺ، كي لا يذهب إلى معسكر العدو، ويخبرهم بما دار بينه وبين النبي ﷺ وأصحابه ولكن يبدوا أن الرجل كان صادق الإسلام والمعلومة.

وعندما علم رسول الله ﷺ بخبر تجمع بنى سليم ببحران (*) خرج رسول الله ﷺ فى ثلثمائة رجل من أصحابه فأسرعوا السير حتى إذا كانوا دون بحران بليلة، لقى رجلاً من بنى سليم فاستخبروه عن القوم وعن جمعهم، فأخبره أنهم قد افترقوا أمس ورجعوا إلى مائهم، فأمر به النبي ﷺ فحبس مع رجل من القوم، ثم سار النبي ﷺ حتى ورد بحران، وليس به أحد، وأقام أياما ثم رجع ولم يلق كيداً، وأرسل رسول الله ﷺ الرجل. (١)

ولما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحداً، فأقام أياماً، وبث

(*) بحران : موضع بناحية الفرع، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد. الحموى : معجم البلدان. جـ١ ص٣٤١.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٩٦.

السرايا ثم رجعوا وأخذ محمد بن سلمة (**) رجلاً منهم فأتى به رسول الله ﷺ فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة. (١) وفى سنة ٦ هـ بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بالجموم (*) فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بنى سليم فأصابوا منها نعماً وشاءً وأسروا جماعة من المشركين، وكان فيهم زوج حليمة هذه فوهبه رسول الله ﷺ لزوجها وأطلقهما.(٢)

هذا وإلى جانب دور الوحي فى تبليغ الأخبار للنبي ﷺ وكذلك الطلعات الفردية والسرايا والأدلاء والعملاء واستجواب الأسرى، فقد توفر للمسلمين مصدراً آخراً ــ وإن كان فى جبهة واحدة ــ فى جمع المعلومات وخاصة عن بلاد الشام وتحركات الروم فيها، وذلك عن طريق التجار الأنباط، فقد كان الأنباط يقدمون المدينة بالدرمك ــ دقيق الحوارى ــ والزيت فى الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط. (٣)

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين لم يكونوا يعتمدون على طريق واحد فى جمع المعلومات، بل كانوا يعتمدون على كل هذه الطرق السالفة الذكر، بل كانوا فى بعض الغزوات يعتمدون على أغلب هذه الطرق فى الغزوة الواحدة، فقد ذكر آنفاً أن النبي ﷺ لما غزا دومة الجندل كان ذلك بناء على معلومات من رجال مخابراته، ثم استعان فى نفس الغزوة بدليل من بنى عذرة فى السير وجمع

(**) محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد الأنصاري شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما خلا تبوك فإن رسول الله ﷺ استخلفه على المدينة... مات بالمدينة سنة ست وأربعين. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٤٠٨.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٧٧ ــ ١٧٨.

(*) الجموم : أرض لبنى سليم وبها كانت إحدى غزوات النبي ﷺ. الحموى : معجم البلدان. جـ٢ ص ١٦٣.

(٢) السيرة النبوية : جـ٣ ص ٣٣٨.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ٩٩٠.

المعلومات، وفى أثناء الغزوة أرسل السرايا بقيادة محمد بن مسلمة لنفس الغرض، ثم استجوب بعض الأسرى قبل رحيله إلى المدينة لمزيد من المعلومات أيضاً، لهذا كتب له النجاح فى غزوته ﷺ .

وسائل المخابرات الإسلامية فى تبليغ المعلومات على عهد النبي ﷺ

استخدمت المخابرات وسائل عديدة فى تبليغ المعلومات إلى النبي ﷺ وكبار صحابته رضوان الله عليهم، كما استخدمت القيادة الإسلامية بعض هذه الوسائل فى تبليغ أوامرها إلى رجال مخابراتها، وكان الغرض من استخدام هذه الوسائل المحافظة على السرية التامة للمعلومات، خزفاً من وقوعها فى أيدي الأعداء فتصبح النتيجة عكسية على مصالح المسلمين. كانت هذه المعلومات تبلغ بالمشافهة وأحياناً بالفعل مثل أعمال الأدلاء وإرشادهم للمسلمين على الطريق، وكانت أيضاً بالمراسلة، ومن خلال الروايات الواردة فى كتب التاريخ يمكن التمييز بين هذه الوسائل على النحو التالي.

١ــ المشافهة.

تأتي المشافهة فى المقام الأول من بين الوسائل التى استخدمتها المخابرات الإسلامية فى التعامل فيما بينها، وفى تبليغ المعلومات إلى قياداتها، وكانت هذه الوسيلة هي الأعم والأشهر على عهد النبي ﷺ ، وذلك نظراً لظروف العصر وقتذاك، ويدخل تحت هذه الوسيلة أغلب الروايات السالفة الذكر، والتى سيرد ذكرها فى الفصل الخامس.

٢ــ الرسائل.

تعد الرسائل من أهم الوسائل المستخدمة فى عالم المخابرات والتى يتم من خلالها إخفاء جميع المعلومات عن العدو إذا ما تم حجبها عنه، ولعل الدليل على أهميتها، أنها مازالت تستخدم حتى الآن فى عالم المخابرات ولم تفقد أهميتها، على الرغم من التقدم الكبير فى علم الاتصالات.

يقول الهرثمى عن أهمية الرسائل (١) : " تلطف لإخفاء كتبك مع رسلك وجواسيسك بألطف الحيلة، وأعلم أن بعض الحيل فى ذلك ألطف من بعض ". وذكر آنفاً أن أبي بن كعب كان

(١) مختصر سياسة الحروب : ص ٢٥.

متخصصاً فى كتابة الرسائل السرية باللغة العربية وقراءتها للنبي ﷺ وكان زيد بن ثابت متخصصاً فى الرسائل الأعجمية، وإذا كان هذا هو الحال فى مقر قيادة المخابرات الإسلامية، فإن رجال المخابرات الإسلامية كانوا يستخدمون الرسائل فى توصيل الأخبار للنبي ﷺ ، فقد أسلم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وكان يكتم إسلامه، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه إن مقامك بمكة خير. (١)

فقد ذكر آنفاً أن قريش لما أجمعت المسير إلى رسول الله ﷺ قبل أحد، كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه واستأجر رجلاً من غفار واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره خبر قريش (٢) فلم يكتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ بخبر قريش فقط، بل ختم هذا الكتاب ليكون دليلاً على أن الرسالة منه وليست من أحد غيره، كذلك جاءت الرسالة (*) شافية كافية ليس بها خبر قدوم قريش لمباغتة النبي ﷺ فى المدينة على غير استعداد فقط، بل جاء بها عددهم وحجم استعداداتهم، وذلك ليأخذ النبي ﷺ كل استعداداته لهذه الحملة الغاشمة المباغتة.

وكان رسول الله ﷺ يصدر بعض أوامره لقواده عن طريق الرسائل وذلك حفاظاً على السرية وعدم الكشف عن حقيقة مهمتها. قال عبد الله بن جحش : " دعاني رسول الله ﷺ حين صلى العشاء فقال : وافني مع الصبح، معك سلاحك، أبعثك وجهاً، قال : فوافيته الصبح وعلى سيفي وقوسي... فدعا رسول الله أبي بن كعب فدخل عليه، فأمره رسول الله ﷺ وكتب كتاباً، ثم دعاني فأعطاني صحيفة من أديم خولاني ــ نسبة إلى قرية من قرى اليمن ــ فقال : قد استعملتك على هؤلاء النفر، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم امض لما فيه... فانطلق حتى إذا

---

(١) الكتاني : التراتيب الإدارية. ص ٣٩١.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٤.

(*) راجع نص الرسالة فى المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة، كما سبق ذكرها فى الفصل الثاني من هذا البحث.

كان بيثر ابن ضميرة نشر الكتاب فقرأه فإذا فيه : سر حتى تأتي بطن نخلة (**) على اسم الله وبركاته، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش "(١)" وتعلم لنا من أخبارهم (٢)" فقد ابتكر النبي ﷺ أسلوب (الرسائل المكتومة) للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التى تفيده عن حركات المسلمين، وقد سبق المسلمون غيرهم فى ابتكار هذا الأسلوب الدقيق (للكتمان).(٣)

وقد بلغت قمة تفوق جهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ بأنهم لم يكونوا يستخدمون الرسائل فى تبليغ الأخبار أو إصدار الأوامر للقادة فقط، بل كانوا يكشفون أمر الرسائل المعادية التى كتبت ضد مصالحهم، وذلك فى عصر لم يكن فيه من الوسائل ما يمكن من خلالها اكتشاف تلك الرسائل.

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ؛ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم. فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي وأصحابه، اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ ، فبلغه ذلك فلقيهم فقال : لقد بلغ وعد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ فلما سمعوا ذلك تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش فكتبوا بعد بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة ــ آلة الحرب ــ والحصن وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول

(**) نخلة : موضع بالحجاز قريب من مكة فيه نخل وكروم. الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ٢٧٧.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٣ ــ ١٤.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٧٩.

(٣) خطاب : الرسول القائد. ص ٦١.

بيننا وبين خدم نسائكم شئ ـــ وهي الخلاخيل ـــ فبلغ كتابهم النبي ﷺ . (١) هذا وكان النبي ﷺ يستخدم الرسائل فى مخاطبته للملوك والحكام المعاصرين له ﷺ ، وذلك عندما أراد أن يعرض عليهم الإسلام وكان من ضمن هؤلاء المحملين بالرسائل حاطب بن أبي بلتعة فقد أرسله النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم مصر، فلا خلاف فى أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، لقول أبي سفيان لهرقل حين سأله ـــ عن رسول الله ﷺ : هل يغدر ؟ فقال : لا، ونحن منه فى مدة لا ندري ما هو صانع فيها. (٢)

وقد استغل حاطب بن أبي بلتعة هذا التدريب له من النبي ﷺ فى هذه المهمة، واستخدم نفس الطريقة ـــ الرسائل ـــ وحاول كشف أسرار النبي ﷺ لكفار مكة. فقد كتب حاطب إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل... ودفع الكتاب إلى امرأة من مزينة اسمها سارة جعل لها عشرة دنانير. (٣) وقد أعطاه حاطب لامرأة، لأن ذلك أدعى ألا يشك فيها أحد، ويبدو أن المرأة اختيرت لهذه المهمة بعناية، ولعلها كانت محترفة، وسبق لها القيام بمثل هذا العمل، لأنها وضعت الكتاب فى مكان لا يخطر على بال أحد حيث وضعته فى رأسها وضفرت عليه شعرها، حتى إذا تعرضت لعملية تفتيش لا يفطن له أحد. (٤) أما نص كتاب حاطب فقد جاء فيه : " أن النبي ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده، وقيل أنه كان فى الكتاب : أن النبي محمداً ﷺ قد نفر إما إليكم وإما إلى غيركم، فعليكم الحذر ". (٥)

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ١٤٩ ـــ ١٥٠.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٤٩٤.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٩٨، ابن هشام : السيرة. جـ٤ ص ٢٩ ـــ ٣٠.

(٤) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام فى عصر النبوة. ص ٣٣٠.

(٥) السهيلى : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق طه عبد الرؤوف. ط ـــ مؤسسة مختار للطباعة ـــ القاهرة ـــ لم تذكر سنة الطبع جـ٤ ص ٩٧.

وتجدر الإشارة إلى أن وسيلة الرسائل قد استخدمها الروم وأتباعهم أيضا فى التجسس على المسلمين من ذلك أن كعب بن مالك، لما تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حاول الروم استقطابه وتجنيده ضد رسول الله ﷺ يقول كعب بن مالك نفسه عن ذلك. فبينما أنا أمشى بسوق المدينة، إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى إذا جاءني دفع إلى كتاباً من ملك غسان ؛ وكنت كاتباً فإذا فيه : أما بعد، فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك (١) قال : قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك، قال: فعمدت بها إلى تنور " فسجرته بها ـــ أى أحرقته بلهب النار ـــ. (٢)

٣ـــ الشفرة السرية.

تعرف الكتابة السرية (*) بالرموز المصطلح عليها عند الفرنج (الكربتوجرافيا) وتعرف فى المتداول (بالشفرة) وهي تعريب لفظة " كيفر " أو " شيفر " وهي نفس المراد من لفظ الجفر فى اللغة العربية، وهو فن الرموز الاصطلاحية ويسميه العرب أيضا فن اللحن. (٣) والشفرة هي تعبير عن أسلوب تحويل لغة الرسالة من لغة مفهومة إلى لغة غير مفهومة يكون قد تم الاتفاق عليها وعلى رموزها بين المرسل والمرسل إليه مسبقاً، ولذلك يطلق عليها رسالة مشفرفة. (٤)

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٦٥٦.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٤ ص ١٣٢.

(*) الكتابة الرمزية أو السرية هي فن الكتابة بطريقة غير معروفة إلا للذين يتوافر لهم معرفة سر " مفتاح " الطريقة المستخدمة فى الكتابة، والمفتاح هو مجموعة رموز معينة مختارة متفق عليها بين طرفي التراسل يتم بواسطتها حل الرسائل وتحويلها إلى لغة مفهومة، أما " فك الرموز " فهو الجهد المنظم لترجمة هذه الكتابة لإعادة تحريرها فى لغة مفهومة أى بلغة صحيحة واضحة. هانى : الجاسوسية. ص ١٨٦.

(٣) الخولى : الجندية والسلم. ص ١٠٧.

(٤) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ٤٣٩.

وقد تستخدم الشفرة أيا من أحرف الهجاء فى مكان حرف آخر، أو أن يتم هجاء الكلمات عكسياً وقد توضع أرقام أو إشارات فى مكان الحروف (١) وكان العرب فى جاهليتهم قليلي العناية بالكتابة، فكان اللحن الكتابي عندهم قليل الاستعمال...ونجد اللحن الشفوي عند العرب كثيراً شائعاً لقلة معرفتهم بالكتابة.(٢) فاللفظ الذى كان مستعملاً ومرادفاً للشفرة هو اللحن وهو مأخوذ من رجل لاحن... إذا صرف كلامه عن جهته... وللحن ما تلحن إليه بلسانك أى ما تميل إليه بقولك ومنه قوله عز وجل : ﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾، أى فى فحواه ومعناه... قال ابن برى وغيره اللحن ستة معان : الخطاء فى الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى... واللحن الذى هو التعريض والإيماء ومنه قوله ﷺ وقد بعث قوماً ليخبروه خبر قريش ــ والصواب إلى بنى قريظة ــ : الحنو لى لحناً... أى أشيرا إلى ولا تفصحا وعرضا بما رأيتما. (٣) يبدو أن هناك شفرة أو لغة خاصة بين النبي ﷺ وسعد بن عبادة وسعد بن معاذ كانوا يستخدمونها فى الحالات التى لا يريدون أن يتعرف على كلامهم أحد، من ذلك أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يعطي الحارث بن عوف وعيينة بن حصن ثلث تمر المدينة على أن يرجعوا عن حصار المدينة فى غزوة الخندق، فشاور رسول الله ﷺ فى ذلك، وهو متكى عليهما، والقوم جلوس، فتكلم بكلام يخفيه ــ وأخبرهما بما أراد من الصلح. (٤)

وبعد أن بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ليأتي له بخبر قريظة ونقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ فى غزوة الخندق، دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، فقال : إنه قد بلغني أن بنى قريظة قد نقضوا العهد الذى بيننا وبينهم وحاربوا، فاذهبوا فانظروا إن كان ما بلغنى حقاً، فإن كان باطلاً فأظهروا القول، وإن كان حقاً فتكلموا بكلام

---

(١) الجاسوسية : ص ١٨٦.

(٢) الخولى : الجندية والسلم. ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٣) ابن منظور : لسان العرب. مادة لحن..

(٤) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٧٨ بتصرف بسيط.

تلحنون لى به أعرفه، لا تفتوا أعضاد المسلمين. (١) وكان إرسال النبي ﷺ لسعد بن عبادة وسعد بن معاذ وأسيد ابن حضير لبنى قريظة من منتهى الحكمة منه ﷺ ، لأنهم كانوا أحلاف اليهود قبل الإسلام، وهم أعرف الناس بهم، فربما يأتون بخبر نقضهم للعهد صريحاً، أو يستطيعون أن يقنعوهم بعدم مساعدة قريش فى حربهم مع رسول الله ﷺ وفى كل خير.

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم قالوا : عضل والقارة (*) أى كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع (٢)، ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بنى قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأتيه عن بنى قريظة خير، ثم إنه رفع رأسه وقال: أبشروا بفتح الله ونصره. (٣)

فقد كان سبب حرص الرسول ﷺ على استخدام هذا الأسلوب من أساليب الشفرة هو خوفه على معنويات المسلمين من الانهيار، وحرصه على كتمانه حتى يستكملوا إعداد الخندق وسائر استعداداتهم العسكرية قبل أن يعلمهم به. ولو أن النبي ﷺ سمح بإذاعة هذا النبأ الخطير قبل أن يعد المسلمون كل متطلبات القتال لانهارت معنويات المسلمين. (٤)

هذا وإلى جانب المشافهة واستخدام الرسائل والشفرة السرية فى توصيل الخبر إلى رسول

---

(١) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤٥٨.

(*) قدم على رسول الله ﷺ فى شهر صفر وهو آخر السنة الثالثة من الهجرة نفر من عضل والقارة وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، فذكروا له أنهم قد أسلموا ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلمونهم القرآن ويفقهونهم فى الدين فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة رجال... فنهضوا مع القوم حتى إذا صاروا بالرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز استصرخوا عليهم هذيلاً، وغدروا بهم. ابن عبد البر : الدرر. ص ١٦٨.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. جـ٢ ص ٥٧٢.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٢٠٠.

(٤) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ١٥٦.

الله ﷺ ، فقد كانت هناك وسائل أخرى ـــ وإن لم تكن على قدر كبير من الأهمية كـــسابقتها ـــ كانت تستخدم فى وقتها فقط، وكان يمليها على المسلمين الموقف العام فقط. من ذلك أن عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى، أغار فى خيل من غطفان على لقاح ـــ الإبل الحوامل ـــ لرسول الله ﷺ بالغابة (*)... وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى (**) فبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ. (١)

فقد كان الموقف العام وقتذاك لا يحتمل استخدام الرسائل أو الشفرة السرية فى تبليغ خبر إغارة العدو على لقاح النبي ﷺ، بل كان يتطلب وسيلة غاية فى السرعة، كى لا يفلـــت العـــدو بفعلته، فقد استخدم ابن الأكوع وسيلة (رفع الصوت) بشدة مع التعبير بكلمات قليلة دالة على خطورة الموقف ـــ الفزع الفزع ـــ وهذا يشبه الآن (مكبرات الصوت) أو (البث الإذاعـــي) لاستنفار القادة والجنود نحو حماية الدولـــة ومقدراتها من العدو.

(*) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة. الحموى : معجم البلدان. جـــ٤ ص ١٨٢.

(**) سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى شهد الحديبية مع رسول الله ﷺ وبايع تحت الشجرة توفى بالمدينـــة سنة أربع وسبعين. ابن سعد : الطبقات. جـــ٥ ص ٢١٠ وما بعدها.

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـــ٣ ص ١٧٦.

النبي ﷺ والتعامل مع معلومات المخابرات

ذكر آنفاً أن المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ كانت تأتي بالمعلومات من طرق شتى، وكانت تعمل على توصيل هذه المعلومات إلى القادة بوسائل شتى أيضاً، فكانت تؤدي بذلك دورها على أكمل وجه، وبقي أن نتعرف فى الأوراق التالية على دور القيادة الإسلامية ــ المتمثلة فى النبي ﷺ وكبار الصحابة رضوان الله عليهم ــ فى التعامل مع هذه المعلومات، ومدى الاستفادة منها فى خدمة الدولة الإسلامية.

المحافظة على سرية المعلومات.

كانت أول خطوة من خطوات التعامل مع هذه المعلومات هي المحافظة على سريتها، وعدم كشفها قبل الاستفادة منها. فقد كان من مبادئ النبي ﷺ دائماً أنه كان يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان، حتى قبل قيام دولته بهجرته ﷺ فقبل الهجرة من مكة إلى المدينة لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. (١)

وبعد قيام دولة النبي ﷺ بالمدينة المنورة زادت عملية المحافظة على السرية، لأن الأمر أصبح متعلقاً بمصير الدولة الإسلامية كلها، فكان النبي ﷺ يعمل على المحافظة على سرية المعلومات أكثر وأكثر، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال : بعث رسول الله ﷺ (بسبس) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال : لا أدري استثنى بعض نسائه، قال : فحدثه الحديث. (٢)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٢٣٤.

(٢) التلمساني : الدلالات السمعية. ص ٤٦٤.

ولما قرأ أبي بن كعب كتاب العباس بن عبد المطلب لرسول الله ﷺ والذى أخبره فيه بقدوم قريش إليه لحربه، دخل رسول الله ﷺ منزل سعد بن الربيع (*)، فقال : أفى البيت أحد ؟ فقال سعد : لا واستكتم سعداً الخبر. فلما خرج رسول الله ﷺ خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت : ما قال لك رسول الله ؟ فقال : مالك ولذلك لا أم لك ؟ قالت : قد كنت أسمع عليك، وأخبرت سعداً الخبر، فاسترجع سعداً وقال : لا أراك تستمعين علينا أنا أقول لرسول الله ﷺ تكلم بحاجتك ثم أخذ بجمع لبتها ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله ﷺ بالجسر وقد انقطعت من الإعياء فلم تقدر أن تتحرك، فقال : يا رسول الله إن امرأتي سألتني عما قلت فكتمتها فقالت قد سمعت قول رسول الله. فجاءت بالحديث كله. فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شئ فتظن أنى أفشيت سرك. فقال رسول الله ﷺ : خل سبيلها. وشاع الخبر فى الناس بمسير قريش.(١) فلم يكن النبي ﷺ وحده الذى يحافظ على أسرار الدولة الإسلامية، بل صحابته أيضا رضوان الله عليهم، فهذا هو سعد بن الربيع ذلك الصحابي الجليل الذى جر زوجته حتى أعياها وأتى بها رسول الله ﷺ لتسمعها لحديثه مع رسول الله ﷺ، فخاف أن تضيع ثقة النبي ﷺ فيه، ففعل فى زوجته ما فعل على الرغم من كونها مسلمة وما فعلته لم يكن من باب التجسس، ولكن من باب حب النساء للتطلع والتدخل فيما ليس لهن فيه، وقد كان رسول الله ﷺ أعرف منه بذلك فقد سأله عمن بالدار قبل دخوله فقال سعد : لا، لعدم اعتقاده بأن زوجته ستقوم بما قامت به، والدليل على عدم قصدها فى التجسس لصالح العدو أن رسول الله ﷺ ــ والذى لا تأخذه فى الله لومه لائم ــ قال له : خل سبيلها.

هذا ولم يكتف النبي ﷺ برسالة عمه العباس بخروج قريش لحربه، بل لما سارت قريش

(*) سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير الخزرجى الأنصارى شهد سعد العقبة وهو أحد النقباء الاثنى عشر، استشهد يوم أحد. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٤٨٤.

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

بالفعل إلى أحد بعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح (*) إلى القوم سراً، وقال للحباب : لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة. فرجع إليه فأخبره خالياً، وعندما أخبر الحباب رسول الله ﷺ بما رأى قال له رسول الله ﷺ : " لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل ". (١)

المشورة وأخذ الرأي.

بعد أن كان النبي ﷺ يحافظ على سرية المعلومات الواردة إليه من رجال مخابراته، كانت تأتي بعد ذلك الخطوة الثانية وهي عرض هذه المعلومات على كبار الصحابة والمقربين إليه ﷺ من أجل أخذ مشورتهم ومساعدته ﷺ في اتخاذ القرار المناسب، بناءً على هذه المعلومات الواردة. قال أبو هريرة : لم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، وكانت مشاورته أصحابه في الحرب فقط (٢) من ذلك أن رسول الله ﷺ لما مضى إلى بدر وكان على مقربة منها أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبرهم — أي الصحابة — بمسيرهم، واستشار رسول الله ﷺ الناس (٣) وجاء حسيل بن نويرة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بتجمع غطفان له وقال له : هم يريدونك أو بعض أطرافك، فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما، فذكر لهما ذلك، فقالا جميعاً : ابعث بشير بن سعد، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً فعقد له لواء (٤) وقبل صلح الحديبية سار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط (*) أتاه عينه فقال : إن قريشا جمعوا جموعاً وقد جمعوا لك

(*) الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي في خلافة عمر بن الخطاب وليس له عقب. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥٢٥.

(١) الواقدي : المغازي. جـ١ ص ٢٠٧ — ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٨٠.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ص ٤٨.

(٤) المغازي : جـ٢ ص ٧٢٨.

(*) غدير الأشطاط : قريب من عسفان. الحموي : معجم البلدان. جـ١ ص ١٩٨.

الأحابيش (**)، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وما نعوك، فقال : أشيروا أيها النـــاس علـــى، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت... قال أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال : امضوا على اسم الله (١).. ثم قال رسول الله ﷺ من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟... فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله... فسلك الجيش طريقاً وعراً، فلما رأت خيل قريش أنهم خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش.(٢)

وكان هذا الرأي المبني على معلومات المخابرات في محله، فلو أن الصحابة دخلوا مكـــة على تلك الصورة وصدهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الـــدماء ونهـــب الأموال... ولكن سبق في علم الله تعالى أنه سيدخل في الإسلام خلق منهم، وسيخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون، وكان بمكة في الحديبية جمع كثير من المؤمنين من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فلو طرق الصحابة مكة لما أمن أن يصاب ناس منهم بغير عمـــد. (٣)

تحليل المعلومات.

بعد أن كان يحافظ على سرية معلومات المخابرات، ثم عرضها على كبار الصحابة لأخذ رأيهم كانت تأتي بعد ذلك خطوة أخرى وهي تحليل هذه المعلومات للتأكد من صـــحتها ـــ ربمـــا تكون أخبار كاذبة كما سيرد ذكر ذلك بعد قليل ـــ قبل اتخاذ القرارات المبنية عليها. ذلـــك لأن عمل المخابرات لا يتطلب جمع المعلومات فحسب، بل أيضا يتطلب فرز وفحص وتقيـــيم تلـــك

(**) الأحابيش : هم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة وبنو الحارث بن عبد مناف ابن كنانه وبنو المصطلق من خزاعة، كانوا تحالفوا مع قريش قيل : تحت جبل يقال له الحبش أسفل مكـــة، وقيـــل : سمـــوا بـــذلك لتحبشهم أي تجمعهم، والحبش التجمع والحباشة الجماعة. ابن حجر : فتح الباري. جـــ٥ ص ٣٣٤.

(١) المصدر السابق : جـــ٥ ص ٣٣٣.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـــ٣ ص ٣١٤.

(٣) فتح الباري : جـــ٥ ص ٣٣٦.

المعلومات، ومدى الاعتماد على صحتها والوصول منها إلى نتائج معينة. (١) من هذا القبيل أنه بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة بعد سرية عبد الله بن جحش، فلم يبق أحد فى مكة إلا وقد اشترك فيها على قدر ما يطيقه... وبعد أن وصلت هذه المعلومات إلى رسول الله ﷺ استقر رأيه ﷺ على الآتي :

١ــ أن يعترض أبا سفيان وقافلته عند العودة، وقد قدر الرسول ﷺ زمن الذهاب والعودة بثلاثة أشهر.

٢ــ أن يبعث بالعيون ــ جماعات الاستطلاع ــ لمراقبة الطريق وللإفادة عن القافلة عند اقترابها أثناء العودة. (٢)

ولما سمع رسول الله ﷺ بتجمع هوازن قبل غزوة حنين، بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبر منهم... ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأخبره خبر ابن أبى حدرد، فقال عمر : كذب، فقال ابن أبى حدرد : إن تكذبني فطالما كذبت الحق يا عمر، فقال عمر : ألا تسمع يا رسول الله إلى ما يقول ابن أبى حدرد : فقال رسول الله ﷺ : قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر. (٣)

وهكذا كان النبي ﷺ يقوم بالمحافظة على معلومات رجال مخابراته، ثم يقوم بعرضها على كبار صحابته لأخذ مشورتهم، ثم يقوم مجلس القيادة بتحليل هذه المعلومات للتأكد من صحتها، وبعد ذلك كانت تأتي الخطوة الأخيرة وهي اتخاذ القرار المناسب بناء على هذه المعلومات.

---

(١) هانى : الجاسوسية. ص ٢٦.

(٢) محمد فرج : فن إدارة المعركة فى الحروب الإسلامية. ط ــ مجمع البحوث الإسلامية ــ القاهرة سنة ١٩٧٢م.
ص ٥٥ ــ ٥٦.

(٣) تاريخ الطبرى : جـ٣ ص ٧٣.

النبي ﷺ وسرعة التعامل مع معلومات المخابرات

كان الرسول الكريم ﷺ إذا سمع بتجمع ضده فى أى مكان يسرع إلى مكانه ليقضى عليه قبل أن يستفحل أمره، كما حدث فى غزواته عليه السلام. (١) لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال : " هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها " فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً (٢) وانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر. (٣) ولما بلغ رسول الله ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له : المريسع (*)، واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق (٤) وتبرز فى هذه الرواية مدى السرعة الفائقة فى تعامل النبي ﷺ مع الأخبار الواردة له عن أعدائه لدرجة أنه ﷺ لم يعط لهم الفرصة حتى لمغادرة مائهم، فاستفاد النبي ﷺ بعنصر المباغتة الذى كتب له النصر فى النهاية.

ومن هذا القبيل أن أبا سفيان حين رجع إلى مكة ورجع فل قريش من بدر، نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (**)، فخرج فى مائتى راكب من قريش، حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن

---

(١) فرج : فن إدارة المعركة. ص ١٧٣.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٨١.

(٣) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤٢١.

(*) المريسع : اسم ماء فى ناحية قديد إلى الساحل. الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ١١٨.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٨٢.

(**) ذكر الواقدى أن أبا سفيان قد حرم الدهن وليس الغسل من الجنابة وهو الرأي الصحيح لأن أبا سفيان لم يكن قد أسلم بعد ولم يكن الاغتسال من الجنابة من سنن الجاهلية، بل حرم على نفسه الدهن ـ اللحوم ـ. انظر الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٨١.

مشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس. (١) فلما كان بالسحر خرج بالعريض ـــ واد بالمدينة ـــ فوجد رجلاً من الأنصار مع أجير له فى حرثه فقتله وقتل أجيره وحرق بيتين بالعريض وحرق حرثاً لهم، ورأى أن بعينه قد حلت... ثم ذهب هارباً، وخاف الطلب، فبلغ رسول الله ﷺ فندب أصحابه فخرجوا فى أثره، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون فيلقون السويق وهي عامة زادهم، فجعل المسلمون يمرون بها فيأخذونها، فسميت تلك الغزوة غزوة السويق لهذا الشأن، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى المدينة. (٢) على الرغم من أن هذه الرواية لم توضح لنا كيف وصل هذا الخبر إلى رسول الله ﷺ إلا أن هذه الرواية توضح مدى السرعة التى كانت تصل بها الأخبار إلى النبي ﷺ ودل على ذلك أن هجوم أبى سفيان الغاشم هذا قتل فيه رجلان أعزلان وكان فى وقت السحر حيث يندر تواجد الناس فى هذا الوقت فى الطرقات أو المزارع، ومع ذلك وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ كذلك تبرز لنا هذه الرواية السرعة الفائقة فى تعامل النبي ﷺ مع معلومات مخابراته، فقد بعث ﷺ أصحابه فى طلب أبى سفيان، لدرجة أن أبا سفيان ورفاقه من سرعة تعقب المسلمين لهم أخذوا يخففون فى أحمالهم كى لا تكون عائقاً لهم فى سرعة الهرب. هذا وخير ما يؤكد على سرعة وصول المعلومات إلى النبي ﷺ وسرعة تعامله ﷺ مع هذه المعلومات واتخاذ القرار المناسب لها، ما ذكره ابن كثير عن سرية زيد بن حارثة ﷺ، كان سبب بعثة زيد ابن حارثة، أن نعيم بن مسعود (*) قدم المدينة ومعه خبر هذه العير وهو على دين قومه، واجتمع بكنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير، ومعهم سليط بن

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٥٤٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(*) نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف الأشجعى... أسلم يوم الأحزاب... ومات فى خلافة عثمان بن عفان ﷺ. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٦٦ ـ ١٦٨.

النعمان من أسلم، فشربوا، وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر (**)، فتحدث بقضية العير نعيم بن مسعود، وخروج صفوان بن أمية فيها وما معه من الأموال، فخرج سليط من ساعته فأعلم رسول الله ﷺ فبعث من وقته زيد بن حارثة فلقوهم فأخذوا الأموال وأعجزهم الرجال. (١)

(**) حرمت الخمر بالمدينة بعد وقعة بنى النضير. ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٨٠. ويمكن التأكد على أن سليط بن النعمان لم يشرب الخمر فى هذه الجلسة مطلقاً، والدليل على ذلك أنه قد وعى كل ما قيل فى المجلس على غير المعتاد مع من يشرب الخمر .

(١) المصدر السابق : جـ٣ ص ٩.

النبي ﷺ والأخبار الكاذبة

من صور وأساليب الحرب النفسية (*)، الإشاعات وهي أخبار مشكوك فى صحتها ويتعذر التحقق من أصلها، وتتعلق بموضوعات لها أهمية لدى الموجهة إليهم، ويؤدي تصديقهم أو نشرهم لها، إلى إضعاف روحهم المعنوية... ومن أهداف الحرب النفسية بث الفرقة والشقاق بين صفوف العدو وجماعاته، والتفريق بين العدو وحلفائه ودفعهم إلى التخلي عن نصرته، وتحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتهم. (١) بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ــ وذلك قبل صلح الحديبية ــ فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة... ثم أتي رسول الله أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل... وكان رسول الله ﷺ قد بايعهم على الموت.(٢) فقد كان غرض المشركين من إشاعة خبر مقتل عثمان بن عفان ﷺ، إضعاف روح المسلمين المعنوية للتعجيل برحيلهم إلى المدينة مرة أخرى، ولكن رسول الله ﷺ تعامل مع هذا الخبر الباطل ــ كما ظهرت حقيقة بعد ذلك ــ بمزيد من القوة عندما بايعه أصحابه رضوان الله عليهم على الموت.

مر شاش بن قيس اليهودي، وكان شيخاً كبيراً عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث (**) وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار... ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا... فبلغ ذلك

(*) سيرد ذكر الحرب النفسية بتفصيل أكثر وذلك فى الفصل الخامس من هذا المبحث.

(١) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ١٢٢.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٣١٩.

(**) كان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج. ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٤٦.

رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال : يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام... فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين.(١) وهكذا استطاع النبي ﷺ أن يحبط مخططات اليهود الرامية إلى التفريق بين جماعة المسلمين، وذلك بفضل حنكته السياسية ﷺ وبفضل تعاليم الإسلام السمحة التى تدعو إلى المساواة بين جميع أفراد الأمة الإسلامية.

(١) المصدر السابق : جـ٢ ص ١٤٧.

تمهيد

يهدف الأمن الوقائي (*)، إلى منع تسرب معلومات محددة إلى عامة النـــاس والحيلولـــة دون وصولها إلى غير المسئولين، سواء بالصدفة أو بمجهودات إيجابية وعرقلة كل محاولات تبـــذل للحصول عليها، أما القصد من أعمال " مقاومة الجاسوسية " فهو القبض على الجواســـيس. (١) وقديماً قال الهرثمى (٢) " ما استطعت أن تحترس فى كتمان سرك فى حربك فافعل، فإن فى ذلك بإذن الله إمضاء تدبيرك، وقطع مكيدة من يكيدك... لا تستهين فى إظهار سرك بـــصغير لـــصغره، ولا بأعجمى لعجمته " وإذا كان جمع المعلومات سلاحاً ذا حدين، فإن المسلمين قد أبطلوا أحد حديه وأفسدوه باتباعهم السرية فى تحركاتهم العسكرية. (٣)

إن ما تتميز به استراتيجية الردع الإسلامية أنها لا تستهدف ردع العدو الخارجي الظاهر فقط، بل تستهدف أيضا ردع أعداء الأمة من القوى المضادة التى تعمل ضدها فى الخفاء، والتى قد يكـــون خطرها ـــ إذا غفلت عنها الأمة أو لم تتصد لها ـــ أفدح بكثير من خطر العدو الظاهر وذلك مـــا يفهم بوضوح من نص الآية الكريمة : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ الأنفال : آية (٦٠)، إن عدو الله واضـــح ... و (عـــدوكم) واضح أيضاً... أما الفئة الثالثة وهي المعبر عنها بقوله جل شأنه (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) فقد فسرها السابقون بالمنافقين، إلا أنه ينطوي بلغة العصر على كل القوى المضادة التى

(*) الأمن الوقائي:هو جميع الإجراءات التى تتخذها الدولة للتحفظ على أسرارها وحماية منشآتها الحيويـــة فى الداخل والخارج، بغرض تأمينها ضد محاولات المخابرات الأجنبية لإلحاق الضرر بها، عن طريق عمليـــات التجسس والتخريب المادي.هانى : الجاسوسية.ص ٩٩.

(١) المرجع السابق : ص ١٠١.

(٢) مختصر سياسة الحروب : ص ٢٢.

(٣) فرج : فن إدارة المعركة. ص ٤٨.

تحقد على الأمة وتبث سمومها فى الخفاء. (١) فقد ذكر آنفاً فى الفصل السابق أن جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ قد تعددت طرقه فى جمع المعلومات عن الأعداء، وهو ما يعرف (بالمخابرات الإيجابية) كذلك تعددت طرق جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ فى مكافحة التجسس على أخبار المسلمين وهو ما يمثل الشق الآخر من مهام جهاز المخابرات، أو ما يعرف (بالمخابرات الوقائية) وذلك مع ملاحظة أن طرق جهاز المخابرات الإسلامية فى مكافحة التجسس على المسلمين قد فاقت بكثير طرقه فى جمع المعلومات، وربما يكون ذلك راجعاً إلى أن ستر عورات المسلمين كان أهم من إطلاعهم على عورات أعدائهم.

(١) محفوظ : العسكرية فى الإسلام. ص ٢٤ ــ ٢٥.

طرق جهاز المخابرات فى مكافحة التجسس

تعددت طرق جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ — فى مكافحة التجسس على أخبار المسلمين، حتى فاقت هذه الطرق العشر، وهي حسب الأهمية والأكثر استخداماً جاءت على النحو التالي :

١ــ المواراة :

يعلمنا النبي ﷺ أن إهمال التخطيط والتواكل والاستكانة وترك الحذر أمور ليست من الإسلام، وأنه لابد من أن نخطط لكل أمر من أمورنا بالأسلوب العلمي دون أن نترك شيئاً للصدفة. ولعل أبلغ دليل على ذلك أن سنته صلوات الله وسلامه عليه جرت على التخطيط العلمي لكل عمل وفى كل مجال، وهو رسول الله ﷺ الذى كان يعلم أن الله ناصره وحافظه. (١)

كانت أولى وأهم الخطوات التى كان يتبعها النبي ﷺ فى مكافحة التجسس على أخبار المسلمين — وخاصة فى التحركات العسكرية — المواراة فعن كعب بن مالك قال : " لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها " (٢) كان النبي ﷺ يريد أمراً فى الحرب لا يظهره، كأن يريد أن يغزو وجهة الشرق، فيسأل عن أمر فى وجهة الغرب، ويتجهز للسفر فيظن من يراه ويسمعه أنه يريد جهة الغرب (٣)" فينبغي للأمير — أو القائد — أن يفعل ذلك لئلا تتبعه الجواسيس، فيقع التحرز، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيعلمهم ليأخذوا الأهبة. (٤) فكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم. (٥)

---

(١) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ١٠٨.

(٢) ابن حجر : فتح البارى. جـ٦ ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق : جـ٦ ص ١٥٩.

(٤) صحيح مسلم : جـ ٨ ص ١١٢.

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٤ ص ١١٨.

ومن الأمثلة الدالة على استخدام النبي ﷺ لمبدأ المواراة فى مكافحة التجسس على أخباره ﷺ، أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بنى سليم كثيراً ببحران، فتهيأ رسول الله ﷺ لـذلك ولم يظهر وجهاً (١)" والمقصود بقول الواقدى " لم يظهر وجهاً " أى لم يكشف عن نيته الحقيقية فى التوجه، وذلك كي يحقق هدفين الأول : حجب المعلومات عن جواسيس العدو، والثاني : الاستفادة من عنصر المباغتة للعدو فى عقر داره كي يشل حركته فيتحقق النصر عليه فى النهاية.

ولما أراد رسول الله ﷺ عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع (*) قبل عامين خلوا ـــ من موقعة الأحزاب ـــ وهم ستة من كبار الصحابة : اغتالت أربعة منهم وباعت الاثنين الباقين لقريش فضربت قريش عنق أحدهما وصلبت الثاني... فأظهر الرسول ﷺ أنه يريد الشام حتى يستطيع مباغتة بنى لحيان دون أن يعرفوا بحركته إليهم، فتحرك شمالاً، فلما اطمأن إلى انتشار أخبار حركته إلى الشمال باتجاه الشام، عاد راجعاً باتجاه مكة مسرعاً فى حركته حتى بلغ منازل بنى لحيان ولكن بنى لحيان فروا إلى رؤوس الجبال، واستطاعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم. (٢)

عندما أراد رسول الله ﷺ أن يفتح مكة لم يرد أن يعلم قريش بذلك بل أراد أن يغزوها بغتة فمارس فى سبيل ذلك جميع الأساليب التى من شأنها أن يحقق بها هدفه مثل حراسة الطريق بين مكة والمدينة وكذلك التمويه والمواراة عن نيته الحقيقية فى الاتجاه بالجيش، فكان ظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وظان يظن ثقيفاً، وظان يظن هوازن. وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى(**) فى ثمانية نفر إلى بطن إضم (***) ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار. (٣)

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٩٦.

(*) الرجيع : ماء لهذيل بناحية الحجاز بين عسفان ومكة وكان بعث الرجيع فى شهر صفر من السنة الثالثة للهجرة.ابن عبدالبر : الدرر. ص ١٦٨.

(٢) خطاب : الرسول القائد. ص ١٦٥.

(**) أبو قتادة بن ربعى بن بلدمة بن خناس، شهد أحداً وما بعد ذلك من المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٣٧٨ وما بعدها.

(***) إضم : ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة. الحموى : معجم البلدان جـ١ ص ١٠٥.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٩٧.

٢ــ ظلام الليل.

كان من أهم وسائل حجب المعلومات عن العدو حرص القادة المسلمين على أن يكــون تحرك قواتهم ليلاً وليس نهاراً إمعاناً فى إخفاء تحركاتهم عن العدو، فلا يعرف شــيئاً عنــهم، ولا تتجمع لديه من المعلومات ما يكون سنداً له ضدهم. (١) وهناك سبب آخر من وراء السير بالليل والكمن بالنهار وهو أن الجزيرة العربية منطقة صحراوية لا ظل فيها، حرارتهــا مرتفعــة نهــاراً، ورمالها ساخنة بفعل حرارة الشمس، وهذا يسبب إجهاداً للقوات المتحركة، ولهذا فضل أن يكون التحرك ليلاً فى جو معتدل قليل الحرارة رقيق الهــواء مما يخفف العبء عن قواتــه. (٢) فى غــزوة بنى المصطلق ودومة الجندل وغيرهما قام الرسول ﷺ بالمسير ليلاً فى أكثر هذه الغزوات حتى يحــول دون انكشاف نواياه واتجاه حركة قواتــه، فيضمن مباغته أعدائه مباغته تامة، فقد كانت القبائل التى قام بغزوها قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لــسارعت بالاســتعداد للقائــه واستعانت بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء، ولكن المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كلــه. (٣)

فعندما أراد رسول الله ﷺ أن يذهب إلى دومة الجندل، ندب رســول الله ﷺ النــاس، فخرج فى ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار (٤) وكذلك كان يوصى رسول الله ﷺ قواده بهذا الأمر فقد بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة فى ثلاثين رجلاً... إلى بنى بكر بــن كلاب، وأمره أن يسير الليل ويكمن النهار، وأن يشن عليهم الغارة فكان محمد يــسير الليــل ويكمن النهــار. (٥)

---

(١) فرج : فن إدارة المعركة. ص ٥٢.

(٢) د/ أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١١٧.

(٣) خطاب : الرسول القائد. ص ١٣٩.

(٤) الواقدى : المغازى. جــ١ ص ٤٠٣.

(٥) المصدر السابق : جــ٢ ص ٥٣٤.

ولم يكن المسلمون يسيرون بالليل مستغلين ظلامه فى حجب مسيرهم عن عدوهم، بل كانوا يعملون على المحافظة على ظلام هذا الليل وعدم كسره بإشعال النيران أو المصابيح، فقد بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل فأصابهم برد فقال لهم عمرو : لا يوقدن أحد ناراً فلما قدموا على رسول الله ﷺ شكوه، فقال : يا نبي الله، كان فى أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلتهم (*)، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ. (١)

ولم يكن المسلمون يستخدمون ظلام الليل فقط، بل كانوا لا يغيرون على عدوهم إلا عند الفجر، فقد حدد القرآن الكريم الوقت الملائم للإغارة، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ العاديات : آية(٣) فقد أكد القرآن فى هذه الآية مبدأ هاماً فى القتال وهو الإغارة على العدو عند الفجر، وهو مبدأ لا يزال يعتمد فى الحروب حتى يومنا هذا. (٢) وقد طبق رسول الله ﷺ هذا المبدأ ــ بعد استخدام ظلام الليل ــ فى غزواته فعن أنس : " أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً ــ وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ــ فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ــ آلات الحرث ــ ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا : محمد والله محمد والخميس (*)، فقال النبي ﷺ : خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. (٣)

٣ــ قتل الجواسيس.

(*) وقد أكد على هذا الأمر الطرطوسى ــ أحد خبراء المسلمين القدماء بالحروب ــ فقال : " إذا نزلت فى موضع مخيف فلا تقد النار، فإنه يدل عليك اللصوص والسباع، فإن لم تجد منه بداً بحكم البرد، فاحفر فى الأرض حفرة وقد فيها ولا تنم عندها " الطرطوسى : تبصرة أرباب الألباب. ص ١١٦.

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٥١٦.

(٢) د/ ياسين سويد : الفن العسكري الإسلامي. ص ٥٤.

(*) الخميس : سمى الجيش خميساً لقسمه على خمسة أقسام : قلب، وميمنه، وميسرة ومقدمة وساقة. التلمسانى : الدلالات السمعية. ص ٣٥٩.

(٣) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٤٦٨.

ذكر آنفاً فى حكم الجاسوس الكافر أنه يجوز قتله، لأنه اطلع على عورات المسلمين، فقد استخدم المسلمون القتل كوسيلة من وسائل مكافحة التجسس عليهم، وكان هذا القتل نابعاً من الحذر والحيطة التى مكنت المسلمين من النيل من هؤلاء الجواسيس كي يكون قتلهم عبرة لغيرهم.

أتى النبي ﷺ وهو فى غزوة هوازن بعين من المشركين، ففر أثناء حديث النبي ﷺ مع أصحابه فأمرهم الرسول ﷺ بطلبه وقتله، فاتبعه رجل من أسلم على ناقة ورقاء ـــ هو سلمة بن الأكوع ـــ فخرج يعدو حتى أخذ بخطام الجمل فأناخه، فلما وضع ركبته بالأرض اخترط سيفه فضرب رأسه، وجاء براحلته وما عليها، فاستقبله رسول الله ﷺ فقال : من قتل الرجل ؟ قالوا : ابن الأكوع، قال : له سلبه أجمع. (١)

أرسل الحارث بن أبي ضرار عيناً له على رسول الله ﷺ فبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وأنه قد قتل عينه الذى كان وجهه ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ فسئ بذلك الحارث ومن معه وخافوا خوفاً شديداً وتفرق عنهم من كان معهم من العرب (٢)" فقد كان لإعدام هذا الجاسوس أصداء كبيرة فى نفوس الأعداء عبرت عنه أيضا جويرية ابن الحارث ـــ زوج النبي ﷺ التى قالت بعد إسلامها (٣) : " جاءنا خبره ومقتله ومسير رسول الله ﷺ قبل أن يقدم علينا النبي ﷺ فسئ به أبي ومن معه وخافوا خوفاً شديداً ". فكان إعدامه درساً كبيراً وقاسياً لكل من سولت له نفسه أن يتجسس على المسلمين لدرجة أن الجموع المجتمعة نفسها قد تفرقت خوفاً وفزعاً من نفس المصير المحتوم الذى كان من الممكن أن يواجهونه لو بقوا على عدائهم وعنادهم وتربصهم برسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

فى سنة ٧ هـ بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد إلى الجناب لقتال جمع غطفان بقيادة عيينة بن حصن فخرج بشير بأصحابه حتى أتى محالهم فوجدها ليس بها أحد، فرجع بالنعم حتى إذا

---

(١) المصدر السابق : جـ٦ ص ١٦٩ بتصرف بسيط.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٢ ص٦٠.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٤٠٦.

كانوا بسلاح ـــ موضع أسفل خيبر ـــ راجعين لقوا عيناً لعينية فقتلوه. (١) وفى غزوة الخندق كانت صفية عمه النبي ﷺ فى (فارع) حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء لأنه كان جباناً ـــ أي ليس من القوة بممارسة القتال ـــ قالت (فأتانا آت من اليهود فقلت لحسان، هذا اليهودي يطوف بنا ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا فأنزل إليه فاقتله، فقال : والله ما أنا بصاحب هذا، قالت : فأخذت عموداً ونزلت إليه فقتلته). (٢) إن هذا اليهودي كان دورية استطلاع للحصول على معلومات عن مواضع النساء والأطفال حتى يمهد بما يحصل عليه من معلومات لقيام اليهود بهجوم مباغت عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من خط المواجهة مع المشركين لنجدة أهليهم وإنقاذ أموالهم. إن قتل هذا اليهودي قد خلص المسلمين من خطر داهم، إذ جعل اليهود يفكرون أن فى داخل المدينة حراساً أشداء من المسلمين، ليس من السهل التغلب عليهم، لذلك قبع اليهود فى حصونهم لا يفكرون فى الخروج. (٣)

٤ـــ القبض على الجواسيس وأسرهم.

هناك وسيلة أخرى كانت نابعة من حذر ويقظة المسلمين، كانت تستخدم فى مكافحة التجسس على أخبارهم، وهي القبض على جواسيس الأعداء الذين يحاولون أن يخترقوا صفوف المسلمين وذلك تمهيداً للنظر فى أمرهم بعد ذلك. قال علي بن أبي طالب : بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : أئتوا روضة خاخ ـــ موضع بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلاً من المدينة ـــ فإن بها ظعينة ـــ امرأة على هودج وهي كنود مولاة لقريش ـــ معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا : اخرجي الكتاب فقالت : ما معى كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ـــ وهو الخيط الذى يعتقص به أطراف الشعر ـــ

(١) الواقدي : المغازي جـ٢ ص ٧٢٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٨٢.

(٣) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ٣٦٢.

فاتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا قال : لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ـ كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها ـ وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فاحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال النبي ﷺ : صدق فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال : إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. (١)

فلما كان رسول الله ﷺ في طريقه إلى مكة تقدمت أمامه جريدة من خيله طليعة... فأتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ... فسأله رسول الله ﷺ عن هوازن وقريش فأجابه فقال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراه إلا صدقني، قال الرجل : فلينفعني ذلك ؟ فأمر به رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه، وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس، فلما نزل العسكر مر الظهران أفلت الرجل، فطلبه خالد بن الوليد فأخذه، وقال : لولا وليت عهداً لك لضربت عنقك، وأخبر رسول الله ﷺ فأمر به يحبس حتى يدخل مكة، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وفتحها أتى به رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن. (٢)

خرج أبو سفيان في نفر من قريش يستطلعوا أخبار المسلمين قبل فتح مكة، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم... وكان رسول الله ﷺ بعث بين يديه خيلاً تقبض العيون، وخزاعة على الطريق لا يتركون أحداً يمضي، فلما دخل أبو سفيان وأصحابه عسكر المسلمين أخذتهم الخيل تحت الليل، وكان حرس رسول الله ﷺ نفراً من الأنصار، وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة فجاءوا بهم إليه فقالوا : جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر : والله لوجئتمونا بأبي سفيان ما زدتم، قالوا : قد أتيناك بأبي سفيان... ولما أخذهم الحرس استنفذ

(١) صحيح مسلم : جـ٧ ص ١٦٨.

(٢) المغازي : جـ٢ ص ٨٠٤ ـ ٨٠٦.

العباس ـــ عم الرسول ﷺ أبا سفيان... فأسلم بديل وحكيم بعد أن أدخلهم العباس إلى رسول الله ﷺ وتأخر أبو سفيان بإسلامه حتى أصبح. (١)

هذا ولم يكن المسلمون يقومون بالقبض على جواسيس الأعداء فقط، بل كانوا يقومون بالقبض على الأدلاء والعملاء التابعين للعدو، لحرمانه من خدماتهم الضارة بمصالح المسلمين. عندما أرادت قريش أن تغير طريق تجارتها إلى الشام عن طريق العراق بدلاً من ساحل البحر الأحمر الذى كان لا يبرح عنه أصحاب رسول الله ﷺ لحراسته استعان المشركون فى سلكهم لهذا الطريق بفرات بن حيان العجلى(*) وكان أكبر عارف بهذا الطريق وقال عنه أبو زمعه ـــ عندما وصف قدراته لصفوان بن أمية ـــ " أنا أدلك على أخبر دليل بها ويسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله. قال : من هو ؟ قال : فرات بن حيان العجلى " ... ولكن عندما علم المسلمون بخبر هذه القافلة ومسلكها ونجحوا فى إحباطها والاستيلاء عليها كان فى الأسرى فرات بن حيان فأتى به فقيل له : أسلم، إن تسلم نتركك من القتل، فأسلم فتركه من القتل. (٢)

وقد استطاع المسلمون بالقبض على فرات بن حيان من حرمان قريش من أكبر دليل لها فى الصحراء كان فى إمكانه أن يرشدهم إلى أفضل الطرق، فتزداد أموالهم التى كانوا يستخدمونها فى محاربة الإسلام وأهله، وكان هذا راجعاً إلى فضل رجال مخابراته ﷺ الذين استطاعوا اختراق معسكر الأعداء وقاموا بتبليغ خبر هذه القافلة لرسول الله ﷺ.

٥ ـــ حراسة الطرق.

من الطرق التى استخدمها جهاز المخابرات الإسلامية فى مكافحة التجسس، حراسة الطرق المؤدية إلى المدينة لمنع الجواسيس من اختراق عاصمة الإسلام والإطلاع على أخبارها. فمن ذلك أنه لما أراد رسول الله ﷺ فتح مكة، أمر بالطرق فحبست فعمى على أهل مكة لا يأتيهم خبر

---

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٨ ص ٧.

(*) فرات بن حيان بن عبد العزى بن حبيب العجلى، كان دليلاً هادياً بالطريق قد دوخها وسلكها. أسلم بعد سرية زيد بن حارثة سنة ٣هـ ولم يزل يغزو مع المسلمين إلى أن قبض رسول الله ﷺ فتحول إلى الكوفة وابتنى بها داراً. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٨٥ وما بعدها.

(٢) المغازى : جـ١ ص ١٩٧ ـــ ١٩٨.

(١) فبعث رسول الله ﷺ بين يديه عيوناً خيلاً يقتصون العيون، وخزاعة لا تدع أحداً يمضي وراءها. (٢) وكان عمر بن الخطاب ﷺ يطوف على الأنقاب ـ طرق المدينة ـ قيماً بهم فيقول : لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه ـ وكانت الأنقاب مسلمة ـ إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه، أو ناحية مكة. (٣)

ولم يكن النبي ﷺ يأمر بحراسة الطرق خوفاً من الجواسيس فقط، بل كان النبي ﷺ يقوم بتغيير الطريق الذى كان يعرف أن به جواسيس للعدو إلى طريق آخر أكثر أمناً، بل وكان يأمر رجاله وحلفاءه بذلك، فقد حدث وأن خرج عمرو بن سالم الخزاعي فى أربعين راكباً من خزاعة ينصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذى أصابهم وما ظاهرت عليه قريش... فلما عزم رسول الله ﷺ على نصرتهم قال لعمرو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرقوا فى الأودية. (٤)

وكان ذلك الأمر منه ﷺ ليحافظ على السرية التامة لغزو مكة والذى كان من الممكن أن يعرفه بعض المكيين لو رأوا تجمع خزاعة، وقد نفذ بعضهم أمر النبي ﷺ فذهبت طائفة إلى الساحل تعارض الطريق، ولكن بعضهم رجع فى نفس الطريق المعتاد إلى مكة وهو بديل بن أبي ورقاء فى نفر معه، فلقيه أبو سفيان، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء محمداً، بل كان اليقين عنده، فقال للقوم : أخبروني عن يثرب، منذ كم عهدكم بها ؟ فقالوا : لا علم لنا بها، فعرف أنهم كتموه. (٥)

وكان النبي ﷺ يستعين بالأدلاء لتفادي الأماكن والطرقات التى يوجد بها جواسيس للمشركين، من ذلك فى غزوة الحديبية، لما أمسى رسول الله ﷺ قال : تيامنوا فى هذا العضل ـ أى الرمل المعوج الملتوي ـ فإن عيون قريش بمرالظهران، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟ فقال

---

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٥٢٠.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٥٤٦.

(٣) المغازى : جـ٢ ص ٧٩٦.

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ص ٧٩١.

(٥) المصدر السابق : جـ٢ ص ٧٩٢.

بريدة بن الحصيب الأسلمي (*) : أنا يا رسول الله عالم بها، قال رسول الله ﷺ : اسلك أمامنا. (١)

هذا ولم يكن النبي ﷺ يقوم بحراسة الطرق أو تغيرها أو الاستعانة بالأدلاء ـ وذلك لمنع الجواسيس من جمع المعلومات عن المسلمين ـ فقط، بل كان النبي ﷺ يحافظ على سرية الحركة فى الطريق والمحافظة على سكون الطرق. فعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر. (٢)

٦ـ كلمة السر.

من الوسائل التى استخدمها النبي ﷺ فى مكافحة التجسس على المسلمين " كلمة السر " وذلك بأن جعل للمسلمين فى كل غزوة أو سرية كلمة لا يعرفها غير المسلمين، ليتعارفوا بها فيما بينهم، ولكى لا يدل أحد منهم بمعلومات إلى من لا يعرف، وهو أمر ضروري جداً لمكافحة التجسس، يقول الطرطوسى (٣) : " ولتكن بينهم إشارة يعرف بها بعضهم من بعض، إذا قام الغبار وثار النقع، فإنه متى لم يجر ذلك بينهم، وقع الإنسان فى صاحبه وهو لا يدري ".

كان شعار رسول الله ﷺ فى القتال، فى بدر : يا منصور أمت ويقال جعل شعار المهاجرين : بنى عبد الرحمن، والخزرج : بنى عبد الله، والأوس : بنى عبيد الله، وفى أحد : أمت أمت، وفى بنى

(*) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج الأسلمى... أسلم حين مر به رسول الله ﷺ للهجرة... قدم المدينة وأقام مع رسول الله ﷺ فكان من ساكنى المدينة، وغزا معه مغازيه بعد ذلك. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٢٢٧.

(١) المغازى : جـ٢ ص ٥٨٣.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٨٩.

(٣) تبصرة أرباب الألباب. ص ٢٣٠.

النضر : أمت أمت وفى المريسع : أمت أمت، وفى الخندق : حم لا ينصرون، وفى قريظة والغابة لم يسم أحداً، وفى حنين : يا منصور أمت. (١)

وأمت أمر من الموت، والمراد به التفاؤل بالنصر مع الأمر بالإماته، مع حصول الغرض بالشعار، فإنهم جعلوا هذه الكلمة علامة بينهم يتعارفون بها لأجل ظلمة الليل (٢) ومن الملاحظ أن الشعار كان يغير ولم يكن ثابتاً، وهو دليل على أن هذه الكلمة " كلمة سر " أكثر من كونها شعاراً، لأنها لو كانت شعاراً فقط، ما تغيرت مطلقاً.

فى غزوة أحد قتل اليمان أبو حذيفة، قتله المسلمون، وكان رسول الله ﷺ رفعه وثابت بن قيس ابن وقش (*) مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان : ما تنتظر ؟ أفلا نأخذ أسيافنا فنلحق برسول الله ﷺ ؟ لعل الله أن يرزقنا الشهادة. ففعلا ودخلا فى الناس ولا يعلم بهما فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فاختلفت عليه سيوف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة : أبى أبى، فقالوا : والله ما عرفناه، فقال : يغفر الله لكم، وأراد رسول الله ﷺ أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين (٣) فلو كان اليمان والد حذيفة يعلم بكلمة السر للمسلمين يوم أحد، ما وقع قتيلاً عن طريق الخطأ بأيدي المسلمين.

عندما كان المشركون محاصرون لرسول الله ﷺ وأصحابه فى غزوة الخندق كانت طلائعهم بالليل لا تنقطع طمعاً فى الغارة على المسلمين، فخرجت فى ذات الليلة طليعتان لرسول الله ﷺ ليلاً، فالتقيا ولا يشعر بعضهم ببعض ــ أى أن المسلمين هم الذين تقاتلوا ــ ولا يظنون إلا أنهم العدو، فكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادوا بشعار الإسلام، وكف بعضهم عن بعض،

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٨.

(٢) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٥٦.

(*) ثابت بن قيس بن زغبة بن زعوراء من قيس عيلان، قتل يوم أحد شهيداً. ابن سعد : الطبقات. جـ٤ ص ٢٤٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٦٢.

وكان شعارهم : حم لا ينصرون، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فاخبروه، فقال رسول الله ﷺ : جراحكم فى سبيل الله، ومن قتل منكم فإنه شهيد، فكانوا بعد ذلك إذا دنا المسلمون بعضهم من بعض نادوا شعارهم، لكى يكف بعضهم عن بعض، فلا يرمون بنبل ولا بحجر، كانوا يطيفون بالخندق بالليل حتى الصباح يتناوبون، وكذلك يفعل المشركون أيضاً يطيفون بالخندق حتى يصبحوا. (١)

٧ــ التورية فى الحديث.

من أساليب الخدعة فى الحرب مع الأعداء التورية فى الكلام وهي أن يتكلم المتكلم بكلام يفهم السامع منه معنى ويقصد المتحدث معنى آخر والمعنيان يحتملهما الكلام، إلا أن المعنى الذى فهمه السامع هو المعنى المتبادر للذهن من سماع الكلام، والمعنى الذى أراده المتكلم هو المعنى البعيد الذى لا يتبادر إلى ذهن السامع عادة، وهذا الأسلوب استخدمه الرسول ﷺ فى غزوة بدر الكبرى حينما سأل رجلاً عن موقع المشركين والمسلمين فى بدر فأخبره الرجل بمكان المشركين ومكان المسلمين، ثم سأل الرجل رسول الله ﷺ من أنتما فقال : نحن من ماء، فأصبح الرجل فى حيرة يحدث نفسه ما من ماء ؟ من ماء العراق ؟ فالنبي ﷺ أراد هنا أن الله خلقه من ماء كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (٢)(*).

ومن هذا القبيل أيضاً، أن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث، فاتفق أنه مر برسول الله ﷺ ذات يوم عشاء، فأشار إليه أن تعال، فجاء فقال : ما وراءك ؟ فقال : إنه قد بعثت قريش وغطفان إلى بنى قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك، فقالت قريظة : نعم فأرسلوا إلينا بالرهن، فقال له رسول الله ﷺ : إنى مسر إليك شيئا فلا تذكره قال : إنهم قد

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٧٤.

(٢) د/ أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١٨٩.

(*) سورة المرسلات : آية ٢٠.

أرسلوا إلى يدعونني إلى الصلح وأرد بنى النضير إلى دورهم وأموالهم، فخرج نعيم بن مسعود عامداً إلى غطفان، وقال رسول الله ﷺ : " الحرب خدعة وعسى أن يصنع الله لنا ". فأتى نعيم غطفان وقريشاً فأعلمهم، فبادر القوم وأرسلوا إلى بنى قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم فاعتلت اليهود بالسبت، ثم أيضا طلبوا الرهن توثقة فأوقع الله بينهم واختلفوا. وقد يحتمل أن تكون قريظة لما ينسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بنى النضير إلى المدينة. (١)

٨ ــ وسائل أخرى.

إلى جانب الوسائل السالفة الذكر التى استخدمها المسلمون فى مكافحة التجسس، كانت هناك وسائل أخرى استخدمت فى مكافحة التجسس، وإن كانت على نطاق محدود جداً، وربما اقتصرت بعض هذه الوسائل على وقت حدثوها فقط.

من هذه الوسائل " التضليل " إذا لما أجمع رسول الله ﷺ للخروج أتى أبا بكر بن أبى قحافة، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته (٢)" وذلك من أجل تضليل جواسيس قريش الذين كانوا يترصدونه ﷺ على الباب الرئيسي لبيت أبى بكر الصديق ﷺ.

ومن هذه الوسائل أيضاً " محو آثار الأقدام " ففي الهجرة النبوية الشريفة، كان عبد الله بن أبى بكر، إذا غدا من عندهما ــ فى الغار ــ اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه. (٣)

ومن الوسائل التى استخدمها النبي ﷺ لمكافحة التجسس على المسلمين عقد (المعاهدات) مع الأعداء المجاورين له لمنع تحالفهم مع عدوه الأكبر (كفار مكة) فقد عقد النبي ﷺ مع اليهود عندما دخل المدينة معاهدةً كان من ضمن شروطها : وإنه لاتجار ــ اليهود ــ قريش ولا من

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

(٢) تاريخ الطبرى : جـ٢ ص ٣٧٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٠٤.

نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب (١)" وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد، وهذا ليس تقييداً لحريتهم، وإنما هو إجراء وقائي اقتضته ظروف نشأة الدولة الإسلامية، خوفاً من عمليات التجسس ونقل المعلومات إلى الأعداء وخلافه.(٢)

ومن الوسائل التي استخدمت في مكافحة التجسس على المسلمين أيضاً " الرسائل المكتومة " فقد كتب النبي ﷺ لعبد الله بن جحش كتاباً ودفعه إليه، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب ـــ بناءً على تعليمات النبي ﷺ فنظر فيه فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم (٣) فقد ابتكر رسول الله ﷺ أسلوب " الرسائل المكتومة " مراعاة للسرية والأمن، وحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن تحركات المسلمين وأهدافهم. (٤)

هذا وإذا كانت هذه هي أهم الوسائل التي استخدمها جهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ في مكافحة التجسس على المسلمين فهناك نقطة مهمة متعلقة بذلك لا يجب إغفالها، وهي أن "السماء" كانت مصدراً من مصادر جهاز المخابرات الإسلامية في إمداد المسلمين بالمعلومات عن العدو، عن طريق الوحي إلى النبي ﷺ بذلك، كما ذكر آنفاً، كذلك كان لعناية السماء دوراً أيضاً في مكافحة التجسس على المسلمين، وإن كان هذا الدور مقيداً أيضاً بالشروط السالفة الذكر في إمداد المسلمين بالمعلومات.

فعلى الرغم من أن النبي ﷺ كان يفعل كل ما بوسعه في مكافحة التجسس، إلا أنه ﷺ كان أحياناً يطلب من الله عز وجل أن يحميه من جواسيس الأعداء، فمن ذلك قبل فتح مكة قال رسول الله ﷺ لعائشة : جهزينا وأخفي أمرك، وقال رسول الله ﷺ : اللهم خذ على قريش

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٠٨.

(٢) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام. ص ١٧٩.

(٣) السيرة النبوية : جـ٢ ص ١٧٩.

(٤) محفوظ : الإستراتيجية العسكرية. ص ١٦٤.

الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة ويقال قال : اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتةً، ولا يسمعون بي إلا فجأة. (١) وكانت الملائكة في بعض الأحيان تصد جواسيس العدو قبل وصولهم إلى معسكر المسلمين والإطلاع على أخبارهم، ففي غزوة حنين سنة ٨ هـ بعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله لينتظروا له، ويأتوه بخبر الناس، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم، فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فلم ينهه ذلك عن وجهه، أن مضى على ما يريد. (٢)

ليس هذا فقط، بل كانت عناية السماء تتدخل في الكشف عن الجواسيس الذين يجلسون مع النبي ﷺ وهو لا يعلم بهم، وذلك من أجل أن يأخذ ﷺ حذره منهم، فقد أتى جبريل عليه السلام، رسول الله ﷺ فقال له : إنه يجلس إليك رجل أذلم، ثائر شعر الرأس، أسفع ـ أسود ـ الخدين أحمر العينين، كأنهما قدران من صفر، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فاحذره، وكانت تلك صفة نبتل بن الحارث من بني لوذان بن عمرو بن عوف الأوسي. (٣)

(١) الواقدي : المغازي. جـ٢ ص ٧٩٦.

(٢) تاريخ الطبري:جـ٣ ص ٧٢، وانظر ابن هشام :السيرة النبوية. جـ٤ ص ٦٣.

(٣) ابن هشام : السيرة. جـ٢ ص ١٢١.

دور المجتمع الإسلامي فى المحافظة على أسرار الدولة الإسلامية

إن توجيهات الإسلام لا تعطى غير أهل العلم من القادة والرؤساء حق الحديث عن كل ما يتصل بأسرار الجيش والأمة، لأن هؤلاء أدرى بما يصلح أن يقال ومالا يقال، فالإسلام لا يترك أمر الكلمة ــ ولا سيما فى الظروف الحساسة ــ لغير المختص المسئول، ولذلك لام القرآن الكريم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام، كما لام ضعفاء المسلمين ؛ لأنهم كان يفشون أمر رسول الله ﷺ ويذيعونه ويتحدثون به قبل أن يقفوا على حقيقته سواء كان هذا الأمر يتصل بحالة الحرب أم بحالة السلم والأمن فى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(١)(*).

فقد كان للمجتمع الإسلامي على عهد النبي ﷺ دور كبير فى حفظ أسرار الدولة الإسلامية، وحجب المعلومات عن المتربصين بالأمة، أين كانت هذه المعلومات، عسكرية أو غيرها.

قالت أسماء بنت أبي بكر : لما هاجر رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر فقالوا : أين أبوك ؟ قلت : لا أدرى، فرفع أبو جهل يده فلطم خدى لطمة طرح قرطي، وكان فاحشاً خبيثاً. (٢) على الرغم من أن أسماء بنت أبي بكر، كانت تأتى بالطعام لأبيها ولرسول الله ﷺ فى الغار، وكانت على دراية تامة بمكانيهما ؛ إلا أنها تحملت الضرب الشديد من أبي جهل ذلك الضرب الذى بلغ مداه بأن أسقط قرطها على الأرض، وعلى الرغم أيضا من أنها أنثى وهن معروفات بالضعف عموماً خاصة أمام الضرب، لكنها أبت أن تخبر

---

(١) محفوظ : الإستراتيجية العسكرية. ص ١٣٢.

(*) سورة النساء : آية ٨٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٠٦.

أبا جهل عن مكان رسول الله ﷺ وصحبه، ولا عجب فى ذلك فقد كانت ابنه الصديق الصديق لرسول الله ﷺ .

ولم يكن الحفاظ على أسرار رسول الله ﷺ قاصراً على الرجال والنساء فقط، بل كان الصبيان ـــ على الرغم من حداثة سنهم ـــ ممن يحافظ على أسرار رسول الله ﷺ . أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك، قال : أتى علىّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، قال : فسلم علينا فبعثنى إلى حاجه فأبطأت على أمى فلما جئت قالت ما حسبك ؟ قلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة قالت : ما حاجته ؟ قلت : أنها سر، قالت : لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحداً، قال : أنيس : والله لو حدثت به أحداً لحدثتك يا ثابت. (١)

ولم يتوقف دور المجتمع الإسلامي على هذه الفئات فقط، بل كانت المرأة تحفظ سر رسول الله ﷺ حتى عن أبيها فقبل فتح مكة ولىّ أبو سفيان راجعاً إلى مكة وقال رسول الله ﷺ لعائشة : جهزينا وأخفى أمرك... فدخل أبو بكر على عائشة وهى تجهز رسول الله ﷺ فقال : يا عائشة، أهم رسول الله ﷺ بغزو ؟ قالت : ما أدرى، قال : إن كان رسول الله هم بسفر فآذنينا نتهيأ له، قالت : ما أدرى، لعله يريد بنى سليم، لعله يريد ثقيفاً لعله يريد هوازن، فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ونيته فى غزو قريش وفتح مكة. (٢) فعلى الرغم من أن أبا بكر ﷺ هو والد عائشة رضى الله عنها، وكذلك كانت عائشة تعلم مكانة أبيها عند رسول الله ﷺ إلا أنها لم تخبره بما نوى رسول الله ﷺ لأنه أمرها بذلك . وفى ذلك دليل على أن حفظ أسرار الدولة مقدم على كل شئ فلا مكان هنا للعواطف طالما أن قائد ورئيس الدولة الإسلامية أمر بذلك وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على صلاح المجتمع الإسلامي وقتذاك.

وفى طريق المسير إلى مكة كان عيينة فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهاً، وقد تجمعت العرب إليه... فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال : يا رسول الله، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعاً ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كثيرة،

---

(١) صحيح مسلم : جـ٧ ص ١٦٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٩٦.

ولست أرى هيئة حرب، لا أرى ألوية ولا رايات، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيأة الإحرام، فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : حيث يشاء الله... فأتى أبا بكر الصديق وقال له : أين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله. (١)

هذا ومن باب إتمام الفائدة أن نذكر أن دور المجتمع الإسلامي على عهد النبي ﷺ لم يقتصر على الحفاظ على أسرار الدولة الإسلامية وعدم إذاعتها فقط، بل كان الواحد منهم يسارع فى تبليغ الخبر إلى رسول الله ﷺ دون أن يكون مكلفاً بذلك، ودون أن يطوع نفسه لذلك ـ كما ذكر آنفاً فى الفصل الأول ـ بل كانت هذه المعلومات تأتي إليهم عن العدو مصادفة دون بذل أى عناء، فكانوا يسارعون بها إلى رسول الله ﷺ .

قدم قادم بجلب له فاشترى بسوق النبط، وقالوا : من أين جلبت جليك ؟ قال : جئت من نجد وقد رأيت أغاراً وثعلبة، قد جمعوا لكم جموعاً وأراكم هادئين عنهم، فبلغ النبي ﷺ قوله، فخرج فى أربعمائة من أصحابه. (٢) وقدم رجل من طى المدينة يريد امرأة ذات رحم به من طي متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزل على صهره الذى هو من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبره أن طليحة وسلمة ابنى خويلد تركهما قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يريدون أن يدنوا للمدينة وقال : نسير إلى محمد فى عقر داره، ونصيب من أطرافه، فإنه لهم سرحاً يرعى جوانب المدينة... وهم على ما هم عليه بعد، فخرج به الرجل الذى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فأخبره ما أخبر الرجل. (٣)

يبرز فى هذه الرواية دور المجتمع الإسلامي فى حماية الدولة الإسلامية وأن المعلومات المتعلقة بالدولة ليست ملقاه عل كاهل المكلفين بذلك فقط، بل هي عملية واجبة على كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي.

---

(١) المصدر السابق: جـ٢ ص ٨٠٣ ـ ٨٠٤.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٣٩٥.

(٣) المصدر السابق. جـ١ ص ٣٤١.

تمهيد

عندما ظهرت الدعوة الإسلامية فى مكة ومن بعدها قيام دولة الإسلام فى المدينة، لم يكن للإسلام عدو واحد، بل تعدد أعداء الإسلام، الذين كان لكل واحد منهم أسبابه الخاصة فى عدائه لدولة الإسلام.

كان على رأس هؤلاء الأعداء كفار مكة، ثم اليهود فى المدينة وما حولها، ثم المنافقين والأعراب المحيطين بالمدينة، كما كان هناك عدو قاصى هم الروم الذين رأوا فى ازدياد قوة الإسلام تهديداً لسلطانهم السياسي والديني فى أطراف شبه الجزيرة العربية المتاخمة لحدود دولتهم.

ومن ثم دارت بين الدولة الإسلامية، وبين هؤلاء الأعداء حرب مخابرات طاحنة، ورغبة جامحة فى محاولة كل هذه الأطراف التعرف على أخبار دولة الإسلام، وكذلك محاولات دولة الإسلام معرفة أخبار هؤلاء الأعداء، ومجهودات دولة الإسلام فى إحباط محاولات هؤلاء الأعداء.

وقد عانى المسلمون من ذلك كثيراً نظراً لتواجد والتصاق أغلب هؤلاء الأعداء بالمدينة، وشكلوا [ثالوثاً] متحداً وخطراً، تمثل فى اليهود ــ المنافقين ــ الأعراب.

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب، وقام المسلمون بدور هام للقضاء على هذه الأخطار، تظهر فيه عبقرية قيادة النبي ﷺ وما كان عليه من غاية فى التيقظ لهذه الأخطار، وما كان عليه من حسن التخطيط، وما وصل إليه جهاز المخابرات الإسلامي فى تلك الفترة من دقة فى رصد أخبار وتحركات كل الفرق التى تتربص بالمسلمين الدوائر. (١)

(١) المباركفورى : الرحيق المختوم. ص ٢١٢.

تجسس المسلمين على كفار مكة

كان النبي ﷺ كثيراً ما يتجسس على قريش فى مكة إذا ما أراد حربها أو الاقتراب منها قبل فتحها فقد استمر هذا الأمر منذ الهجرة النبوية إلى المدينة حتى فتح مكة المكرمة التى أصبحت بعد الفتح معقلاً من معاقل الإسلام فى شبه الجزيرة العربيـــة.

عن جابر بن عبد الله قال : بعثنا النبي ﷺ ثلاثمائة راكب وأميرنا أبو عبيدة نرصد عـــيراً لقريش... وذلك فى السنة الثانية من الهجرة قبل وقعة بدر. (١) ولما تحين رسول الله ﷺ انصراف العير من الشام ندب أصحابه للعير، وبعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيـــد، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، حتى نزلا على (كشد الجهنى) بالنخبار من الحوراء ـــ والنخبار من رواء ذى المروة على الساحل ـــ فأجارهما، وأنزلهما، ولم يزالا مقيمين عنده فى خباءٍ حتى مرت العير، فرفع طلحة وسعيد على نشز من الأرض، فنظرا إلى القوم، وإلى ما تحمل العير، وجعل أهل العير يقولون : يا كشد هل رأيت أحداً من عيون محمد ؟ فيقول : أعوذ بالله، وأنى عيون محمد بالنخبار ؟ فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا، وخرج معهما كشد خفيراً حتى أوردهما ذا المروة، وساحلت العير فأسرعت... فقدم طلحة وسعيد المدينة اليوم الـــذى لاقاهم رسول الله ﷺ ببدر. (٢)

لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، وبلغ قريباً من الصفراء بعث بسبسة بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة، وعدى بن أبي الزغباء الجهنى حليف بنى النجار، إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وعيره. (٣) ذهب بسبس بن عمرو، وعدى بن أبي الزغباء ووردا علـــى مجدى بن عمرو بدراً يتجسسان الخبر، فلما نزلا ماء بدر أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء ثم أخذ

---

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـــ٩ ص ٦١٥.

(٢) الواقدى : المغازى. جـــ١ ص ١٩.

(٣) الكتانى : التراتيب الإدارية. ص ٣٨٩.

أسقيتها يستقيان من الماء، فسمعا جاريتين من جوارى جهينة يقال لإحداهما برزة، وهى تلزم صاحبتها فى درهم كان لها عليها، وصاحبتها تقول إنما العير غداً أو بعد غد، قد نزلت الروحاء. ومجدى بن عمرو يسمعها فقال: صدقت، فلما سمع ذلك بسبس وعدى انطلقا راجعين إلى النبي ﷺ، حتى لقياه بعرق الظبية ــ وهى من الروحاء على ميلين مما يلي المدينة إذا خرجت على يسارك ــ فأخبراه الخبر. (١)

نزل رسول الله ﷺ وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتحسسون على الماء، وأشار رسول الله ﷺ إلى ظريب فقال : أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذى يلي ظريب ــ والقليب بئر بأصل الظريب والظريب جبل صغير ــ فاندفعوا تلقاء الظريب فوجدوا على تلك القليب التى قال رسول الله ﷺ . روايا قريش فيها سقاؤهم، ولقى بعضهم بعضاً وأفلت عامتهم، وكان ممن عرف أنه أفلت (عجير)، وكان أول من جاء قريشاً بخبر رسول الله ﷺ فنادى فقال : يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة وأصحابه قد أخذوا سقاءكم فماج العسكر، وكرهوا ما جاء به.(٢) من الملاحظ أن النبي ﷺ قد أكثر من الطلعات المخابراتية عن كفار مكة قبل وقعة بدر، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن غزوة بدر كانت أول غزوة له ﷺ مع المشركين فكانت المعلومات ضرورية له ــ ﷺ نظراً لما يترتب عليها من آثار خطيرة، وخوفاً من الهزيمة فى أول جولة له ﷺ مع المشركين.

هذا ولم يكن النبي ﷺ يهتم بجمع المعلومات عن كفار مكة قبل المعركة فقط، بل كان يهتم بالمعلومات حتى أثناء المواجهة المسلحة، وفى الوقت الذى يعتقد فيه البعض بعدم جدوى المعلومات، فقبل نشوب القتال وفى الصباح من يوم بدر رأى رسول الله ﷺ رجلاً من المشركين على جمل أحمر يسير فى القوم، فقال الرسول ﷺ : يا علي ناد لي حمزة فحضر حمزة إلى الرسول ﷺ فأمره أن يعرف من هو الرجل الذى يسير فى القوم على جمل أحمر، وماذا يقول لهم، وقال

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٤٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٥١.

رسول الله ﷺ إن يكن فى القوم من يأمر بالخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر... ورجع حمزة بالنبأ اليقين، وقال للرسول ﷺ هو عتبه بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال. (١)

بالإضافة لما سبق، فإن النبي ﷺ كان يهتم أيضاً بجمع المعلومات عن كفار مكة حتى بعد نهاية الحرب وذلك لتقييم نتائجها. عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل، فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد ـــ أى سقط إلى الأرض ـــ قال : فأخذ بلحيته. (٢) وكان ابن مسعود يقول : قال لي ـــ أى أبي جهل ـــ لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم، ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله هذا رأس عدو الله، فقال:" آلله الذى لا إله غيره؟" وكانت يمين رسول الله ﷺ فقلت : نعم والله الذى لا إله غيره ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. (٣) ولما كانت قريش فى طريقها إلى أحد، بعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد. (٤) ولم يكن إرسال النبي ﷺ للحباب بن المنذر ـــ ومن قبله مؤنساً وأنساً ابنى فضالة ـــ شكاً منه ﷺ فى المعلومات التى أرسلها له عمه العباس بن عبد المطلب ﷺ، عن قريش ـــ ومن بعده أيضا عمرو ابن سالم الخزاعي ـــ بل كان القصد من رواء كل هؤلاء الجواسيس الحرص على الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المشركين، خاصة الجديد منها ؛ لأن رسالة العباس كان قد مر عليها بعض الوقت، فربما يكون قد انضم إلى كفار مكة بعض القبائل من حلفائهم فى الطريق ممن لم يرد ذكر عددهم ووصفهم فى رسالة العباس، والدليل على ذلك أنه عندما أخبر الحباب بن المنذر، رسول الله ﷺ بما رأى قال له رسول الله ﷺ هكذا

---

(١) تاريخ الطبرى. جـ٢ ص ٤٢٥ بتصرف بسيط.

(٢) صحيح مسلم : جـ٥ ص ١٨٤.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٤٤١.

(٤) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٧.

جاءني الخبر (١)" فكان القصد من إرسال كل هؤلاء الرجال هو المزيد من التأكيد من صحة الأخبار.

كان النبي ﷺ يقيم نتائج المعركة وخسائرها أيضاً، وذلك باستطلاع أخبار الصحابة فعقب غزوة أحد قال رسول الله ﷺ من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا، فنظر فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق، قال، فقال له : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات. فقال : أنا فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له : إن سعد ابن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد ابن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ! قال : ثم لم أبرح حتى مات وجئت النبي ﷺ فأخبرته خبره.(٢)

وعندما هّم أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل، أشفق رسول الله ﷺ والمسلمون فاشتدت شفقتهم من أن يغير المشركون على المدينة ـــ عقب أحد ـــ فتهلك الذرارى والنساء (٣)" فبعث رسول الله ﷺ علي ابن أبي طالب فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة فوالذى نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم. قال علي : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فلما اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل توجهوا إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال : أى ذلك كان فأخفه حتى تأتيني قال علي : فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة أقبلت أصيح، ما أستطيع أن أكتم الذى أمرني به رسول الله ﷺ

(١) المصدر السابق : جـ١ ص ٢٠٨.
(٢) ابن كثير : السيرة. جـ٣ ص ٧٨.
(٣) المغازى : جـ١ ص ٢٩٨.

لما بي من الفرح، إذ رأيتهم انصرفوا إلى مكة عن المدينة. (١) تدل هذه الرواية على خبرة النبي ﷺ الفائقة فى الحروب ومجال المخابرات، إذ أن ركوب الإبل يكون لحمل الأثقال وللسفر البعيد، ومدلوله مكة بالطبع، أما ركوب الخيل فهو للمسافات القصيرة وهو يقصد الإغارة على المدينة. فكأنه ﷺ أراد أن يوفر على الإمام علي كرم الله وجهه الوقت والحيرة فى تبليغ الخبر إليه، بأن يشاهد وسيلتهم فى الانتقال فقط، فعليها يكون تحديد مسار القوم، وقد كان.

وعلى الرغم من أن الإمام علي كرم الله وجهه، قد خالف أمر النبي ﷺ فى عدم الجهر بالمعلومات، أياً كانت، إلا أن ما جهر به لم يترتب عليه أى ضرر، بل كانت مهمته جمع المعلومات للاطمئنان على عاصمة الدولة الإسلامية من العدو فقط، والدليل على عدم الضرر المترتب على ذلك، أن الروايات التاريخية لم تذكر لنا أن رسول الله ﷺ قد غضب منه أو لامه فى شئ، وإن كان من الواجب طاعة رسول الله ﷺ .

هذا وكان إرسال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه فى هذه المهمة المخابراتية فى محله، حيث كانت نية قريش تتجه بالفعل نحو التفكير فى غزو المدينة المنورة، فقد أكد ذلك عمرو بن العاص الذى قال بعد أن أسلم : تشاورت قريش فقالوا : لنا الغلبة، فلو انصرفنا — أى إلى المدينة — فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلث الناس، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل، فمضوا. (٢) وعندما وصل المكيون إلى المدينة فى غزوة الخندق، أذهلهم أن يجدوا خندقاً وجداراً يحيطان بالمدينة تماماً إحاطة السوار بالمعصم حميا النبي ﷺ والصحابة من العدوان. (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى. جـ٢ ص ٥٢٧ — ٥٢٨.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٩٩.

(٣) هاني : الجاسوسية. ص ٣٨.

وذكر سابقاً أن النبي ﷺ كان يستطلع أخبار وتحركات العدو أثناء الحرب، ففي غزوة الخندق بعث رسول الله ﷺ عباد بن بشر فقال له : اذهب فانظر ـــ وذلك لما كان المشركون يريدون اقتحام الخندق بالليل ـــ ثم ارجع إلي إن شاء الله فأخبرنى، فلم يزل رسول الله ﷺ قائماً على باب القبة حتى جاءه عباد بن بشر فقال : يا رسول الله، هذا عمرو بن عبد فى خيل المشركين، معه مسعود بن رخية بن نويرة بن غطفان فى خيل غطفان والمسلمون يراموهم بالنبل والحجارة، فدخل رسول الله ﷺ فلبس درعه ومغفره، وركب فرسه وخرج معه أصحابه، حتى أتى تلك الثغرة فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال : صرفهم الله وقد كثرت فيهم الجراحة. (١) ولما بدا للنبي ﷺ فشل الأحزاب أراد أن يطمئن إلى ذلك، قال حذيفة بن اليمان لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم فلم أجد بداً إذا دعاني باسمي أن أقوم قال : اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علىّ (*) فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي فى حمام ـــ أى فى حر لم يصبنى برد ولا من تلك الريح الشديدة شئ ببركة توجيه النبي ﷺ حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار ـــ أى يدفئه ـــ فوضعت سهماً فى كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ ولا تذعرهم علىّ ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي فى مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت ـــ أى عاد إليه البرد الذى يجده الناس ـــ فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها فلم أزل نائماً

---

(١) المغازى. جـ٢ ص ٤٦٧ بتصرف بسيط.

(*) لا تذعرهم : أى لا تحركهم عليك، فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي، لأنك رسولى وصاحبى. صحيح مسلم. جـ٥ ص ١٧٧.

حتى أصبحت قال : قم يا نومان. (١) وحينذاك علم الرسول ﷺ ببصيرته النافذة أن المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة... إذ لم يستطع المشركون بعد تجمعهم الضخم هذا أن يقضوا على المسلمين، فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرقهم ؟(٢).

وعندما كان رسول الله ﷺ فى طريقه إلى الحديبية دعا (عباد ابن بشر) فقدمه أمامه طليعة فى خيل المسلمين عشرين فارساً، وكان فيها رجال من المهاجرين والأنصار (٣) وكان السر فى إرسال هذه الطليعة الإستخباراتية أن النبي ﷺ والمسلمين خرجوا للعمرة وليس للحرب، ولم يكن معهم من آلات الحرب غير السيوف، فكان لابد من هذه الطليعة، تحسباً لأي هجوم مفاجئ من قريش، كما أن جميع أفراد هذه الطليعة كانوا من الفرسان، ولم يكن بينهم راجل واحد، وذلك كي تكون أسرع فى تبليغ الخبر، وكذلك عددها (٢٠) فارساً كى تكون مستعدة للاشتباك فى أى لحظة أو لكى يقوم البعض بالاشتباك والبعض الآخر بتبليغ خبر الهجوم ونحوه.

هذا ولم يكتف النبي ﷺ بسرية عباد بن بشر بل أرسل رسول الله ﷺ بسر بن سفيان بخبر قريش، فدخل بسر بن سفيان مكة فسمع من كلامهم ورأى منهم ما رأى، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ... فلما رآه رسول الله ﷺ قال : يا بسر ما وراءك ؟ قال : يا رسول الله، تركت قومك كعب بن لوئ، وعامر بن لوئ قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة، وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم.. وقدموا الخيل عليها خالد بن الوليد، مائتى فرس، وهذه خيلهم بالغميم، وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد. (٤)

---

(١) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

(٢) خطاب : الرسول القائد. ص ١٥٤.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٥٧٤.

(٤) المغازي : جـ٢ ص ٥٧٩ ــ ٥٨٠.

فقد كان لرسول الله ﷺ السبق فى إرسال العيون إلى قريش ولم يتمكن رجل مخابراتـــه (بسر بن سفيان) فى تقديم تقرير مفصل عن كفار مكة وعدد قواتهم، وإمكانياتهم المادية فقط، بل استطاع أن يكشف لرسول الله ﷺ عن جواسيس قريش وأماكن تواجدهم، والذين كانوا مـــن المفترض أن يحاطوا بغلاف قوي من السرية ؛ لأن كشفهم وكشف أماكنهم معناه فشل مهمتـــهم وهذا ما حدث، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على تفوق جهـــاز مخـــابرات المـــسلمين علـــى جواسيس كفار مكـــة. فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالحركة على طريق فرعية غرب الطريق العام، وكانت طريقاً وعرة قطعها المسلمون بصعوبة فتخلصوا بذلك من الاصطدام بالمـــشركين، حـــتى وصلوا الحديبية على بعد ثلاثة أميال شمال مكة وعسكروا هناك. (١)

وعندما أراد رسول الله ﷺ فتح مكة، بلغت السرية فى المسير مداها ـــ على الرغم مـــن كثـــرة جواسيس قريش ـــ لدرجة أن المسلمين اجتمعوا بمر الظهران، ولم يبلغ قريشاً حرف واحـــد مـــن مسير رسول الله ﷺ إليهم (٢)" وبفتح مكة المكرمة انقطعت العمليات المخابراتيـــة الإســـلامية لدخول أهلها فى الإسلام وصارت بذلك معقلاً من معاقل الإسلام فى شبه الجزيرة العربية.

(١) خطاب : الرسول القائد. ص ١٨٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـــ٢ ص ٨١٤.

تجسس كفار مكة على المسلمين

على الرغم من أن المسلمين لم يقوموا بعمليات التجسس على كفار مكة إلا بعد الهجرة النبوية إلى المدينة، حيث اقتصرت عملياتهم المخابراتية فى مكة قبل الهجرة على الوقاية من عيون قريش ـ كما ذكر آنفاً ـ إلا أن تجسس كفار مكة على المسلمين بدءاً مبكراً جداً، يمكن إرجاعه إلى بداية ظهور الإسلام. فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص فى نفر يصلون بشعاب مكة إذا ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم (١) ثم زادت مراقبة قريش للرسول ﷺ والمسلمين بعد الجهر بالدعوة، لذلك كانت تبث جواسيسها لمراقبة النبي ﷺ وأصحابه فى كل حركاتهم وسكناتهم.

ففي هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة بالرغم من أن المسلمين خرجوا متسللين سراً، فقد خرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً (٢) وفى بيعة العقبة ـ على الرغم من كل الاحتياطات السرية لها كما ذكر آنفاً ـ لما بايع الأنصار صرخ الشيطان من رأس العقبة : يا أهل الجباجب ـ المنازل ـ هل لكن فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأفرغن لك أى عدو الله (٣) وبلغ قريشاً أمر البيعة، فأنكروا عليهم، فحلف المشركون منهم ـ من الأوس والخزرج ـ وكانوا أكثر منهم ـ من الذين آمنوا ـ قيل كانوا خمسمائة نفس ـ أن ذلك لم يقع، وذلك لأنهم ما علموا بشئ مما جرى. (٤)

---

(١) ابن كثير : السيرة. جـ١ ص ٤٢٩.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ١ ص ١٧٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل. جـ٢ ص ١٠٠.

(٤) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٢٢١.

وعلى الرغم من أن الهجرة النبوية إلى المدينة كانت من أعظم العمليات المخابراتية فى التاريخ نظراً لما تضمنته من استحكامات سرية، إلا أن قريش استطاعت أن تصل إلى الغار. فقد طلبت قريش رسول الله ﷺ أشد الطلب حتى انتهوا إلى باب الغار، فقال بعضهم : إن عليه لعنكبوت قبل ميلاد محمد، فانصرفوا (١) وذلك عن طريق قص الأثر، وكان القائف الذى اقتفى لهم الأثر سراقة بن مالك المدلجى. (٢)

هذا وبعد الهجرة النبوية وقيام دولة الإسلام، وبدء نشاط المخابرات الإسلامية ضد كفار مكة، اشتدت حرب المخابرات بين المسلمين وكفار مكة وكانت البداية مع قافلة أبى سفيان، ذلك أن أبا سفيان كان بالشام فى ثلاثين راكباً منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص، فأقبلوا فى قافلة عظيمة فيها أموال قريش، فندب النبي ﷺ إليهم، وكان أبو سفيان يتجسس الأخبار فبلغه أن النبي ﷺ استنفر أصحابه يقصدهم، فأرسل ضمضم ابن عمرو الغفارى إلى قريش بمكة يحرضهم على المجئ لحفظ أموالهم ويحذرهم المسلمين. (٣) فقد استأجره بعشرين مثقالاً، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أن محمداً قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجدع أنف بعيره إذا دخل، ويحول رحله ويشق قميصه من قبله ودبره ويصيح : الغوث الغوث (٤) وقدم أبو سفيان على الجهنيين وهو متخوف المسلمين، فسألهم فأخبروه خبر الراكبين (٥) فقد كان مجدى بن عمرو عيناً لأبى سفيان عند ماء بدر. (٦) فقد أصبح أبو سفيان تلك الليلة ببدر ــ أى بعد رحيل بسبس وعدى إلى رسول الله ﷺ ليخبراه خبر قريش ــ وقد تقدم العير وهو خائف من الرصد، فقال : يا مجدى، هل أحست أحداً ؟ تعلم والله ما بمكة من قرشى ولا قرشية لـه نش فصاعداً ــ والنش نصف أوقية،

(١) ابن سعد : الطبقات. جـ١ ص ١٩٥.
(٢) ابن كثير : السيرة. جـ٢ ص ٢٤١.
(٣) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٢٨١.
(٤) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٨.
(٥) الذهبى : تاريخ الإسلام ــ المغازى. ص ١٠٤.
(٦) ابن عبد البر : الدرر. ص ١١٢.

وزن عشرين درهما ـــ إلا وقد بعث به معنا، ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يصالحك رجل من قريش ما بل بحر صوفةً، فقال مجدى : والله ما رأيت أحداً أنكره، ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا، وما كنت لأخفيه عليك، إلا أنى قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان ـــ فأشار إلى مناخ عدى وبسبس ـــ فأناخا به، ثم استقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا، فجاء أبو سفيان مناخهما، فأخذ أبعاراً من بعيريهما ففته، فإذا فيه نوىً، فقال : هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمد وأصحابه ما أرى القوم إلا قريباً، فضرب وجه عيره، فساحل بها، وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً. (١)

ولقد تفوق جهاز المخابرات التابع لرسول الله ﷺ عندما ذهب بسبس وعدى يتجسسان على عير قريش لدرجة أن مجدى بن عمرو لم يعرفهما على أنهما من أتباع رسول الله ﷺ وقال لأبي سفيان : " والله ما رأيت أحداً أنكره " . وعلى الرغم من أنه قد دل أبا سفيان على موضع إناخه إبلهما لكنه لم يتعرف عليهما لكن من الناحية الأخرى وقع رجال جهاز المخابرات الإسلامية فى خطأ ما كان لهما أن يقعا فيه وهو ترك بعض آثارهما ـــ بعر الإبل ـــ التى استطاع أبو سفيان من خلال تفقد موضع إناختهما أن يعثر عليه فعرف أنهما من أتباع رسول الله ﷺ ولولا هذه البعرات ما كان أبو سفيان أن يتعرف عليهما ويغير وجه القافلة إلى الساحل، وقد ساعد أبو سفيان فى معرفتهما ليس بتفقد موضع إناختهما، ولكن من خلال النوى الموجود فى بعر الإبل، فنظراً لأنه فى الأصل يعمل فى التجارة، والتى تعتبر الأعلاف من ضمنها، فاستطاع من خلال خبرته فى ذلك أن يعرف أن هذه الأعلاف أعلاف المدينة موطن النبي ﷺ وأصحابه وقتذاك. فمن البديهي أن يكون الراكبان اللذان تحدث عنهما مجدى بن عمرو من أصحاب رسول الله ﷺ . هذا وقد اشتد حذر أبي سفيان فأخذ طريق الساحل وجدّ فى السير حتى فات المسلمين، فلما أمن أرسل إلى من يلقى قريشاً يأمرهم بالرجوع، فامتنع أبو جهل من ذلك، فكان ما كان من وقعة بدر. (٢)

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٤٠١.

(٢) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٢٨١.

لما تحول رسول الله ﷺ إلى المنزل ـــ فى غزوة بدر ـــ بعد أن أخذ السقاء، أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود، فأطافا بالقوم ـــ يعني قريش ـــ ثم رجعا إلى النبي ﷺ ... فلما أصبحوا قال نبيه بن الحجاج، وكان رجلاً يبصر الأثر : هذا أثر ابن سمية وابن أم عبد، أعرفه، قد جاء محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب (١) ويمكن إرجاع السر فى معرفة نبيه بن الحجاج لأثار أقدام عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر رضى الله عنهما إلى صغر جسم عبد الله بن مسعود وبالتالي صغر حجم قدمه الواضح حينذاك فى الرمال، وعرف عمار بن ياسر، ربما لأنه كان صديقاً لابن مسعود، خاصة وأنهما من الموالى، بالإضافة إلى أنهما كانا مكيين فى الأصل.

وإذا كان النبي ﷺ قد توصل إلى معرفة عدد قريش فى بدر من خلال رجال مخابراته، فقد استطاعت قريش معرفة عدد المسلمين كذلك من خلال رجال مخابراتها، بعثت قريش عمير بن وهب الجمحى (*) ـــ وكان صاحب قداح ـــ فقالوا : احزر لنا محمداً وأصحابه، فاستجال بفرسه حول المعسكر فصوب فى الوادى وصعد، يقول : عسى أن يكون لهم مدد أو كمين ثم رجع فقال : لا مدد ولا كمين، القوم ثلثمائة إن زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً، ومعهم فرسان. (٢)

ولم يكتف كفار مكة بهذا التقرير المفصل الذى أتى لهم به عمير ابن وهب، بل لما قال لهم عمير هذه المقالة، أرسلوا أبا أسامة الجشمى ـــ وكان فارساً ـــ فأطاف بالنبي ﷺ وأصحابه، ثم رجع إليهم فقالوا له : ما رأيت ؟ قال : والله، ما رأيت جلداً، ولا عدداً، ولا حلقة ولا كراعاً، ولكن والله رأيت قوماً لا يريدون أن يثوبوا ـــ أى يردوا ـــ إلى أهليهم، قوماً مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف ـــ التروس ـــ ثم

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٥٤ ـــ ٥٥.

(*) عمير بن وهب بن حذافة بن جمح شهد بدراً مع المشركين.. ثم هاجر إلى المدينة فشهد أحداً مع النبي ﷺ، وما بعد ذلك من المشاهد.. وبقى عمير بن وهب بعد خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.ابن سعد:الطبقات. جـ٤ ص١٨٦.

(٢) المغازى : جـ١ ص ٦٢.

قال : أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد، فصوب فى الوادى ثم صعد، ثم رجع إليهم، ثم قال : لا كمين ولا مدد، فروا رأيكم. (١) فكما كان النبي ﷺ مهتماً بمعرفة عدد جيشهم، كانوا هم أيضاً مهتمين بمعرفة عدد جيشه.. فجاءتهم الأخبار بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولعل هذه الأخبار صادفت هوى فى نفوسهم، فاستهانوا بالمسلمين لقلة عددهم. (٢)

ولعله من الأهمية بمكان أن نذكر أن المسلمين كانوا على علم بما قام به عمير بن وهب ضدهم، فقد قدم عمير بن وهب الجمحى إلى المدينة ليغتال رسول الله ﷺ وقد أسلم بعد أن دخل على رسول الله ﷺ فنزل على باب المسجد وعقل راحلته، وأخذ السيف فتقلده، ثم عمد نحو رسول الله ﷺ ، فنظر عمر بن الخطاب ﷺ، وهو فى نفر من أصحابه يتحدثون ويذكرون نعمة الله عليهم فى بدر، فرأى عميراً وعليه السيف ففزع عمر منه وقال لأصحابه : دونكم الكلب هذا عدو الله الذى حرش بيننا يوم بدر، وحزرنا للقوم، وصعد فينا وصوب، يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين، فقاموا إليه فأخذوه، فانطلق عمر ﷺ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، هذا عمير بن وهب، قد دخل المسجد ومعه السلاح، وهو الغادر الخبيث الذى لا نأمنه على شئ، فقال النبي ﷺ : أدخله علىّ. (٣)

فقد كان عمر بن الخطاب ﷺ وهو أحد كبار رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ عالماً بما قام به عمير بن وهب ضد المسلمين، ويبدو أنه كان الوحيد من الصحابة الذين رأوا عمير بن وهب وهو يتجسس على المسلمين، وذلك لإخباره من يجلس معه بذلك، كذلك يبدو أنه قد أخبر النبي بهذا أثناء موقعة بدر، بدليل أنه لما دخل على رسول الله ﷺ لم يخبره كما أخبر جلساءه بخبر عمير بن وهب، بل قال له : هو الغادر الخبيث الذى لا نأمنه على شئ، كأنه يذكر رسول الله ﷺ بما حدث منه فى غزوة بدر من تجسس، ربما كان سيصبح سبباً فى هزيمة

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٦٢.

(٢) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام. ص ٢٤١.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

المسلمين لدقة معلوماته التى قدمها للمشركين عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

وإذا كانت قريش قد أكثرت من عمليات التجسس على المسلمين قبل غزوة بدر، كما كان الحال بالنسبة للمسلمين أيضاً، إلا أنه من الملاحظ أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا أن قريشا قامت بأى عملية تجسس على المسلمين قبل غزوة أحد بنفسها، بل كانت تعتمد فى ذلك على يهود المدينة الذين كانوا ينقلون لهم كل أخبار المسلمين فى المدينة ـــ كما سيرد ذكر ذلك بعد قليل ـــ وكذلك فى غزوة الخندق، لم يقوموا بأى عملية تجسس على المسلمين، بل ساعدهم يهود قريظة ـــ آخر يهود المدينة ـــ وربما يكون السبب فى ذلك هو اعتمادهم على قوتهم الكبيرة وأحزابهم، فغرتهم قوتهم، ورأوا أنهم فى غنى عن عمليات التجسس، ولكنهم بهتوا عندما شاهدوا الخندق لأول مرة.

وبعد انتهاء غزوة الخندق، والقضاء على بنى قريظة فى المدينة، انقطع عن كفار مكة آخر مصدر مهم كانوا يعتمدون عليه فى الإطلاع على أخبار المسلمين وتحركاتهم، فبدأ كفار مكة يعتمدون على أنفسهم فى التجسس على المسلمين. لما ذهب وفد خزاعة إلى النبي ﷺ فى المدينة ليخبروه بما فعل بهم بنو بكر ومساعدة قريش لهم. قال لهم رسول الله ﷺ بعد أن أنهى حديثه معهم : ارجعوا وتفرقوا فى الأودية، ولكن بديل وبعض نفر معه لزموا نفس الطريق الذى جاءوا منه، فلقيهم أبو سفيان، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء محمداً، فقال للقوم : أخبروني عن يثرب، منذ كم عهدكم بها ؟ فقالوا : لا علم لنا بها، فعرف أنهم كتموه، فقال : أما معكم من تمر يثرب شئ تطعموناه ؟ فإن لتمر يثرب فضلاً على تمر تهامة، قالوا : لا. ثم قال : يا بديل هل جئت محمداً ؟ قال : لا ما فعلت ولكن سرت فى بلاد كعب وخزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم، فأصلحت بينهم، ثم قايلهم أبو سفيان حتى راح بديل وأصحابه، ثم جاء مترلهم ففت أبعار أباعرهم فوجد فيها نوى، ووجد فى مترلهم نوىً من تمر عجوة كأنها ألسنة الطير، فقال أبو سفيان : احلف بالله لقد جاء القوم محمداً. (١)

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٩٢.

على الرغم من أن بديل قد حافظ فى كلامه مع أبي سفيان على السرية ولم يخبره بذهابه إلى يثرب، إلا أنه خالف كلام النبي ﷺ عندما أمره بالتفرق فى الأودية وعدم الرجوع إلى مكة فى الطريق المعروف والمعتاد، فوقع فى فخ أبي سفيان، الذى لما فشل فى أخذ المعلومة منه صراحة وبالمشافهة أخذها منه بالدليل المادي ــ بعر البعير ــ ونسى أن أبا سفيان متخصص فى ذلك الأمر.

وقبل فتح مكة كادت الظروف أن تخدم قريشاً ويعرفوا نية النبي ﷺ فى فتحها بغتة. إذ لما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من السير إليهم ثم أعطاه امرأة من مزينة... وكانت مولاة لنبى عبد المطلب وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته فى رأسها، ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، فقال : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد اجتمعنا له فى أمرهم. (١) وقال لها حاطب : أخفيه ما استطعت، ولا تمرى على الطريق فإن عليها محرساً (٢) فقد كان حاطب على علم أيضاً بأن النبي ﷺ قد أمر أصحابه بحراسة الطرق المؤدية إلى مكة ليمنع عن قريش وصول الأخبار، ويبدو أن حاطباً قد استفاد من إرسال النبي ﷺ له برسالة إلى المقوقس عظيم مصر، فتعلم بذلك أسلوب الرسائل فى التجسس، فقد أرسله النبي ﷺ ــ على ما ذكر الطبرى (*) ــ إلى المقوقس وعاد بالهدايا سنة ٧ هـ، أما فتح مكة ورسالته إلى أهلها بأخبار النبي ﷺ فقد كان فى سنة ٨ هـ ولكن محاولة حاطب هذه باءت بالفشل حيث استطاع المسلمون القبض على المرأة فى الطريق والعودة بها إلى المدينة كما ذكر آنفاً.

ولما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً، خرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ... ذلك أن النبي ﷺ أمر

---

(١) البيهقى : دلائل النبوة. جـ٥ ص ١٦.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٧٩٩.

(*) تاريخ الطبرى : جـ٣ ص ٤١، ٤٨ ــ ٤٩.

بالطرق فحبست، ثم خرج، فغم على أهل مكة الأمر، فقال أبو سفيان لحكيم بن حزام : هل لك أن تركب إلى أمر لعلنا أن نلقى خبراً ؟ فقال له بديل بن ورقاء : وأنا معكم، قالا : وأنت إن شئت فركبوا. (١)

وقد باءت تلك المحاولة أيضاً بالفشل حيث قام صحابه رسول الله ﷺ بالقبض على هؤلاء الثلاثة وتم فتح مكة المكرمة لتصبح داراً من ديار الإسلام، وانتهت بذلك كل عمليات التجسس بين الطرفين.

(١) ابن حجر : فتح البارى. جـ ٨ ص ٥ ـ ٦.

تجسس المسلمين على اليهود

لم نعثر فى أى مصدر من مصادر التاريخ العامة أو الخاصة بالعهد النبوي الشريف، أن المسلمين قاموا بعمليات تجسس على اليهود فى المدينة أو خارجها، قبل جلاء بنى قينقاع عن المدينة المنورة، وربما يرجع ذلك إلى أن النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة عقد مع اليهود معاهدة لحسن الجوار والدفاع المشترك عن المدينة، فلم يكن اليهود بمقتضى هذه المعاهدة طرفاً معادياً للدولة الإسلامية الناشئة، وبالتالي لم يقوموا بأى عمليات تجسس على اليهود.

وعلى الرغم من هذا فإن العلاقة بين المسلمين واليهود كانت مشوبة بالحذر، وبعد انتصار المسلمين فى موقعة بدر الكبرى كان اليهود يحترقون غيظاً وحنقاً على المسلمين وادعوا بأن المسلمين لم يحاربوا قوماً لهم دراية بالحرب، بل هم أصحاب الدراية بها، ثم حدث من بنى قينقاع ما حدث وكان سبباً فى جلائهم عن المدينة، وبدء المسلمون من هذا الجلاء عمليات التجسس على اليهود ورصد تحركاتهم، وبعد جلاء بنى النضير عن المدينة والاستيلاء على حصونهم، أتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بنى النضير، فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود فقال لرسول الله ﷺ : إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : عذبه حتى تستأصل ما عنده، ثم دفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.(١)

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٣٧٤.

غير أن أهم عمليات التجسس على اليهود كانت على يهود بنى قريظة (*)، ويهود خيبر أعتى يهود شبه الجزيرة العربية وقتذاك. ففى غزوة الأحزاب همت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلاً، فأرسلوا حيى بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف، فيغيروا بهم (١)" فبينما رسول الله ﷺ فى الخندق أتى عمر بن الخطاب ﷺ إلى رسول الله ﷺ وهو فى قبته، فقال : يا رسول الله، بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وقال : من نبعث يعلم لنا علمهم ؟ فقال عمر : الزبير بن العوام فكان أول الناس بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام. (٢)عن عبد الله بن الزبير قال : " كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر ابن أبي سلمة فى النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف، قال : أو هل رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم، قال : كان رسول الله ﷺ قال : من يأت بنى قريظة فيأتيني بخبرهم، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه فقال : فداك أبي وأمي ". (٣)

ولم يكن الزبير بن العوام هو الوحيد الذى أرسله النبي ﷺ إلى بنى قريظة كي يتجسس عليهم، قال خوات بن جبير : دعاني رسول الله ﷺ ونحن محاصرو الخندق، فقال : انطلق إلى بنى قريظة فانظر هل ترى لهم غرة أو خللاً من موضع فتخبرني. (٤)

وبعد ذهاب الأحزاب عن المدينة المنورة وقضاء النبي ﷺ على يهود بنى قريظة، لم يبق

(*) قال أبو بكر الصديق ﷺ عن خطر بنى قريظة : لقد خفنا على الذرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان... فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا، أن المدينة كانت تحرس. المغازى. جـ٢ ص ٤٦٠.

(١) المصدر السابق. جـ٢ ص ٤٦٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٥٧.

(٣) ابن حجر : فتح البارى. جـ٧ ص ٨٠.

(٤) المغازى : جـ٢ ص ٤٦٠.

أمام المسلمين إلا يهود خيبر الذين أخذوا يتربصون بالمسلمين ويتحالفون مع الأعراب، للإغارة على المدينة المنورة، حقداً على الإسلام وثأراً لما حدث لبنى جلدتهم فى المدينة. فقد بعث رسول الله ﷺ علياً فى مائة رجل إلى حى سعد، بفدك، وبلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر. (١) وبعث النبي ﷺ ــ عبد الله بن رواحة إلى خيبر فى رمضان سنة ٦ هـ فى ثلاثة نفر ينظر إلى خيبر، وحال أهلها وما يريدون وما يتكلمون به فأقبل حتى أتى ناحية خيبر، فجعل يدخل الحوائط، وفرق أصحابه فى النطاه والشق والكتيبة ــ حصون لخيبر ــ ووعوا ما سمعوا من (أسير بن زارم) (*) وغيره، ثم خرجوا بعد إقامة ثلاثة أيام، فرجع إلى النبي ﷺ لليال بقين من رمضان، فخبر النبي ﷺ بكل ما رأى وسمع. (٢)

إذ عندما قتل أبو رافع أمرت اليهود (أسير بن زارم) فجمع غطفان لمحاربة رسول الله ﷺ ، فقدم على رسول الله ﷺ (خارجة بن حسيل الأشجعى) فاستخبره رسول الله ﷺ ما وراءه فقال : تركت أسير بن زارم يسير إليك فى كتائب اليهود، فندب رسول الله ﷺ الناس، فانتدب له ثلاثون رجلاً أميرهم عبد الله بن رواحة، وكانت هذه هي المرة الثانية التى أرسله ﷺ فيها إلى خيبر. (٣)

فساروا حتى أتوه خيبر وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أن يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه فقالوا : أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم فى ثلاثين رجلاً مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، فلما بلغوا قرقرة نيار ــ وهي من خيبر على ستة أميال ــ ندم أسير بن زارم، فأهوى بيده إلى سيف عهد الله بن رواحة، ففطن له عبد الله ابن رواحة فزجر

---

(١) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٦٢.

(*) كان أسير رجلاً شجاعاً، فلما قتل أبو رافع أمرت اليهود أسير بن زارم.المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٦٦.

(٢) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة.

(٣) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٦٧.

بعيره ثم اقتحم يسوق بالقوم، حتى استمكن من أسير ضرب رجله فقطعها، وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شداً ولم يصب من المسلمين أحد "(١)" وبعد فتح خيبر قضى على كل سلطان سياسي لليهود فى شبه الجزيرة العربية فانقطعت عمليات التجسس على اليهود.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٧٤.

تجسس اليهود على المسلمين

ازداد حقد يهود المدينة على المسلمين، وأخذ بعضهم يجاهر بعدائه لهم، وينقل أخبارهم للمشركين ويؤوى أعداءهم ويدلهم على عورات المسلمين، لذلك فقد اصبح بقاؤهم داخل المدينة خطراً محدقاً (١)، فقد أظهر اليهود حزنهم على قتلى قريش فى بدر، ولم يخفوا تعاطفهم معهم، بل أخذوا يتجسسون لحسابهم، وينقلون لهم كافة المعلومات عن تحركات المسلمين العسكرية، ويحرضونهم على محاربتهم. (٢)

بعد غزوة بدر وأصاب قريش ما أصاب أقسم أبو سفيان ألا يمس الدهن حتى يثأر من المسلمين ـ كما ذكر آنفاً ـ فخرج أبو سفيان فى مائتى راكب، فجاءوا بنى النضير ليلاً، فطرقوا باب حيى بن أخطب ليستخبروه من أخبار النبي ﷺ وأصحابه، فأبى أن يفتح لهم، وطرقوا سلام بن مشكم ففتح لهم، وسقى أبا سفيان خمراً، وأخبره من أخبار النبي ﷺ وأصحابه وذلك فى غزوة السويق. (٣) من أهم ما كشفت عنه غزوة السويق استمرار اليهود فى حقدهم على المسلمين، حيث كشف سلام بن مشكم زعيم بنى النضير لأبى سفيان كل ما يعرفه من أسرار ومعلومات عن المسلمين، وهذا يدل على أن الاتصالات كانت مستمرة بين بنى النضير وقريش للقضاء على المسلمين. (٤)

ولم يكتف بنو النضير بذلك الموقف فقط، بل إنهم دسوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسولالله ﷺ، فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة. (٥)

---

(١) خطاب : الرسول القائد. ص ٩٢.

(٢) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام. ص ١٥٤.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٨١.

(٤) د/ عبد الشافي : تاريخ الإسلام. ص ٢٥٩.

(٥) الذهبى : تاريخ الإسلام ـ المغازى. ص ١٥١.

وفى غزوة الأحزاب لم يكتف يهود قريظة بتحالفهم مع كفار مكة وما تبعهم من الأحزاب، بل كانوا يتجسسون على المسلمين أيضاً، كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع ـــ حصن حسان بن ثابت ـــ قالت : وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، إذا أتانا آت فقلت : يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، قال :يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت : فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئاً، احتجزت ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزل فاستلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال : مالى بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب. (١)

وبعد جلاء الأحزاب عن المدينة المنورة حاصر المسلمون بنى قريظة واشتد الحصار عليهم، بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، فقد كانوا حلفاء الأوس، نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال. فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد، قال : نعم، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح (*)، قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله (٢) وبلغ رسول الله ﷺ ذهاب أبى لبابة وما صنع فقال : دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء (٣) ونزل فيما فعل أبو لبابة

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(*) كان لأبى لبابة أموال وأولاد فى بنى قريظة، وهو الذى حمله على ملاينتهم، القرطبى : الجامع لأحكام القرآن الكريم. ط ـ دار الغد العربي ـ القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م. جـ٤ ص ٢٩٢١.

(٢) تاريخ الطبرى : جـ٢ ص ٥٨٤.

(٣) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٥٠٦.

قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) الأنفال : الآية ٢٧ .

ولم يكن يهود المدينة الوحيدين الذين يقومون بالتجسس على أخبار المسلمين، بل كان يهود خيبر يتجسسون على المسلمين أيضا، وذلك من خلال العملاء التابعين لهم من الأعراب. كان رجل من بنى فزارة حليف لهم — ليهود خيبر — قدم بسلعة إلى المدينة فباعها، ثم رجع فقدم عليهم، فقال : تركت محمداً يعبء أصحابه إليكم، فبعثوا إلى حلفائهم من غطفان، فخرج كنانة بن أبي الحقيق فى أربعة عشر رجلاً من اليهود يدعوهم إلى نصرهم، ولهم نصف تمر خيبر سنة. (٢)

فقد كان اليهود يتجسسون على المسلمين فى المدينة حفاظاً على مصالحهم من ناحية، والناحية الثانية أنهم كانوا يقومون بهذه العمليات لحساب كفار مكة الذين كانوا يعتمدون عليهم اعتماداً يكاد يكون كلياً فى جمع الأخبار عن المسلمين، ولعل أكبر دليل على ذلك أنه لما أنجلى اليهود عن المدينة لم يجد كفار مكة من يمدهم بالأخبار عن المسلمين، كما كان الحال من قبل، وذلك ما تؤكده قصة الحجاج بن علاط السلمى (*) مع كفار مكة بعد فتح خيبر.

إذ لما فتحت خيبر قال الحجاج بن علاط السلمى لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ؛ إن لى مالا بمكة عند صاحبتى أم شيبة بنت أبي طلحة — وكانت عنده، له منها معرض بن الحجاج، ومال متفرق فى تجار أهل مكة، فأذن لى يا رسول الله، فأذن له رسول الله ﷺ ، ثم قال : إنه لابد لى من أن أقول، قال : قل، قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة، فوجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر،

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن. جـ٤ ص ٢٩٢٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٦٤٢.

(*) الحجاج بن علاط بن خالد بن ثويرة بن جبير بن سليم... كان صاحب غارات فى الجاهلية، فخرج يغير فى بعض غاراته فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر فأسلم وحضر مع رسول الله خيبر... وهاجر الحجاج بن علاط وسكن بالمدينة. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٥٧.

وقد عرفوا أنها قرية الحجاز، ريفاً ومنعة ورجالاً، فهم يتحسسون الأخبار، فلما رأوني قالوا : الحجاج بن علاط ـــ ولم يكونوا علموا بإسلامي ـــ عنده والله الخبر ! أخبرنا بأمر محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر : وهي بلدة يهود وريف الحجاز، قال : قلت : قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسركم، قال : فالتصقوا بجنبي ناقتي يقولون : إيه يا حجاج ! قال : قلت : هزموا هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسراً، وقالوا : لن نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم، قال : فقاموا فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم، قال : قلت : أعينوني على جمع مالي بمكة على غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك، قال : فقاموا فجمعوا مالي كأحث جمع سمعت به، فجئت صاحبتي فقلت : مالي ـــ وقد كان لي عندها مال موضوع ـــ لعلي ألحق بخيبر ؛ فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني إليه التجار، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال : يا حجاج، ما هذا الذي جئت به ؟ قال : قلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟ قال : نعم : قلت : فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت الخروج، لقيت العباس، فقلت : احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، قال : أفعل، قال : قلت فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على ابنة ملكهم ـــ يعني صفية بنت حي ابن أخطب ـــ ولقد افتتح خيبر، وصارت له ولأصحابه، قال : ما تقول يا حجاج ! قال : قلت : إي والله ؛ فاكتم علي، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي فرقاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك ؛ فهو والله على ما تحب، قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة ! قال : كلا والذي حلفتم به ! لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالها وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم بما

جاءكم به، لقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ مالـــه وانطلق ليلحق برسول الله وأصحابه فيكـــون معه، قالوا : يال عباد الله ! أفلت عدو الله ! أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.(١)

فعلى الرغم من أن فتح خيبر قد مضى عليه كثير من الوقت، إلا أن خبر الفتح لم يـــصل قريـــشاً إلا متأخراً، وذلك لاعتمادهم على معلومات اليهود فى كل ما يدور فى المدينة المنورة وما حولهـــا.

(١) تاريخ الطبرى : جـــ٣ ص ١٧ ــ ١٩، ابن كثير : السيرة النبوية جـــ٣ ص ٤٠٧.

تجسس المسلمين على المنافقين

إن طريقة الكفار وإن كانت خبيثة إلا أن طريقة النفاق أخبث منها، ولذلك فإنه تعالى ذم الكفار فى أول سورة البقرة فى آيتين، وذم المنافقين فى بضع عشرة آية، وما ذاك إلا أن طريقة النفاق أخبث من طريقة الكفار، فهو تعالى إنما ذمهم لا لأنهم تركوا الكفر، بل لأنهم عدلوا منه إلى ما هو أخبث منه. (١) فقد كان المسلمون يعانون من خطر محدق بهم كان أشد عليهم من كفار مكة ومن اليهود، ألا وهم أهل النفاق، الذين كانوا بمثابة " الطابور الخامس " فى عمق عاصمة الدولة الإسلامية [المدينة المنورة]. وكانوا أشد التصاقاً من غيرهم من أعداء الدولة الإسلامية.

أقبل عيينه بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه، فتلقاه ركب خارجين من المدينة، فقال : أخبروني عن هذا الرجل — يعنى بذلك النبي ﷺ قالوا : الناس فيه ثلاثة، رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشاً والعرب، ورجل لم يسلم وهو يقاتله فبينهم الذبح ورجل يظهر له الإسلام ويظهر لقريش أنه معهم، قال : ما يسمى هؤلاء القوم ؟ قالوا : يسمون المنافقين، قال : ما فى من وصفتم أحزم من هؤلاء، اشهدوا أنى معهم. (٢)

فقد نصبت أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة، بغياً وحسداً وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج، ممن كان بقى على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث... فظهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل ونافقوا فى الشر، وكان هواهم مع يهود. (٣) لذا كان من مهمات الاستخبارات العسكرية مراقبة الأعداء فى الجبهة الداخلية وجمع المعلومات عنهم، وكان أخطر عدو على عهد رسول الله ﷺ وفى المدينة يسكن مع رسول الله ﷺ المنافقون، وكان رسول الله ﷺ لا يغفل لحظة واحدة عن مراقبة هؤلاء ورصد تحركاتهم وسكناتهم وتصريحاتهم وأقوالهم، وكان كل صحابى يسمع كلاماً ما يسئ للمسلمين ينقله إلى رسول الله ﷺ حتى يتخذ الموقف المناسب منهم. (٤)

بينما كان المسلمون على ماء المريسع قد انقطعت الحرب، وهو ماء قليل، إنما يخرج فى

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب. جـ١١ ص ٦٨.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٦ ص ١٧٧.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١١٥.

(٤) د/ أبو فارس : المدرسة النبوية. ص ٧٥.

الدلو نصفه تشاجر رجلان من المهاجرين والأنصار وكادت أن تكون فتنة بينهما، فلما سمع عبد الله بن أبي وكان جالساً فى عشرة من المنافقين، وكان جالساً معهم زيد بن أرقم (*)، وهو غلام لم يبلغ أو قد بلغ ـــ كان مما قال عبد الله بن أبي والله ما صرنا وقريش هذه إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم فنزلوا منازلكم، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا، أما والله لو أمسكتم بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم... فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ فيجد عنده نفراً من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فأخبره الخبر. (١)

وكان عنده عمر بن الخطاب فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله، قال رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن أذن بالرحيل، وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان فى قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على ابن أبي ودفعاً عنه. (٢)

وبلغ رسول الله ﷺ أن أناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه، فأفلتوا. (٣)

(*) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان.. كانت أول غزوة غزاها مع رسول الله ﷺ غزوة المريسع.. توفى بالكوفة سنة ثمان وستين. ابن سعد : الطبقات جـ ٥ ص ٣٥٧ وما بعدها.

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٧.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٢٩٩.

(٣) المصدر السابق : جـ٤ ص ٥ ـ ٦، ابن هشام : السيرة. جـ٤ ص ١١٩.

والتي من شأنها أن تحدث انقساماً في جبهة المسلمين المتحدة داخل المدينة المنـــورة. قال أنس بـــن مالك : قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال هوازن، فطفق النبي ﷺ يعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطـــر من دمائهم ! فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة أدم ولم يـــدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال : " ما حديث بلغني عنكم ؟ " قال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسوفينا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ : " فـــإني لأعطـــي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله ﷺ حتى تدخلوه بيوتكم ؟" قالوا : رضينا يا رسول الله. (١)

لما ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد إمارة الجيش لغزو مؤته، قال :رجال من المهاجرين، وكان أشدهم في ذلك قولاً عياش بن أبي ربيعة (***) : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فكثرت القالة في ذلك، فسمع عمر بن الخطاب ﷺ بعض ذلك القول، فرده على من تكلم بـــه، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقول من قال : فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخـــرج وقد عصب على رأســـه عصابة وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أمـــا بعد، يا أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة بن زيد ؟ والله، لئن طعنـــتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبل، وأيم الله، إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه مـــن بعده لخليق للإمارة، وإنه كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي وإنهما لخليقـــان لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم، ثم نزل ﷺ فدخل بيتـــه. (٢)

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـــ٣ ص ٦٧٤.

(***) عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة وبعد أن قبض النبي ﷺ خرج إلى الشام مجاهداً ثم رجع إلى مكة ومات بها. ابن سعد : الطبقات جـــ٤ ص ١٢٠.

(٢) الواقدي : المغازي. جـــ٣ ص ١١١٩.

وكان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، ومخشن بن حمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال ؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا — افتروا وكذبوا — فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون، فقال وديعة بن ثابت : يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) التوبة : آية ٦٥ . كان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا : يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال : إنى على جناح سفر... ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما نزل بذى أوان — بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار — أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم (*)، ومعن ابن عدى (**)، فقال : انطلقا إلى المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين.. حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه. (٢)

هذا ولم يكن دور المخابرات الإسلامية فى المدينة المنورة قاصراً على رصد تحركات المنافقين فقط، بل كانوا يقومون بتوصيل الأخبار والأقوال الهدامة التى تصدر من البعض إلى رسول الله ﷺ

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٦٤٢.

(*) مالك بن الدخشم بن مالك بن الدخشم بن مرضخة الخزرجى شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.. توفى وليس له عقب. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٥٠٨.

(**) معن بن عدى بن الجد بن العجلان شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقتل شهيداً يوم اليمامة سنة اثنى عشرة. المصدر السابق : جـ٣ ص ٤٣١.

(٢) تاريخ الطبرى : جـ٣ ص ١١٠.

تجسس المنافقين على المسلمين

كان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً فى المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم، خافضى أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً.. وكان ممن قام مسعود بن أوس بن زيد (*) إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلاماً شاباً، وكان لا يعلم فى المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه من المسجد (١)" وكان عبد الله بن أبي بن سلول هو رأس المنافقين وإليه يجتمعون (٢)" فقد كان هؤلاء المنافقين يسمعون الشئ من النبي ﷺ فيلقونه إلى المشركين ويفشونه (٣)" ومن هؤلاء المنافقين نبتل بن الحارث الأوسى، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا، وكان جسيماً أدلم ــ مسترخى الشفتين ــ ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع ــ أسود الخدين ــ وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ثم ينقله إلى المنافقين، وهو الذى قال : إنما محمد أذن من حدثه بشئ صدقه، فأنزل الله فيه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾(٤) التوبة: آية ٦١.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة، ومالك بن قوقل، وسويد، وداعى ــ وهم من رهط عبد الله بن أبي ــ يدسون إلى بنى النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ : أن اثبتوا، فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم، فأنزل الله

(*) مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد... شهد مسعود بن أوس بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. ابن سعد : الطبقات. جـ٣ ص ٤٥٤.

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٢٦.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص ١٢٤.

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن. جـ٤ ص ٢٩٢٠.

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦.

تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً﴾ (١) الحشر : آية ١١.

فقد بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ : أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود، فعند ذلك أمر النبي ﷺ الناس بالخروج إليهم. (٢)

وقبل فتح خيبر، أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول إلى يهود خيبر : إن محمداً قد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، وعزل لا سلاح معهم إلا قليل. (٣)

(١) ابن هشام : السيرة. جـ٢ ص ١٢٤.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٤٦.

(٣) المباركفوري : الرحيق المختوم. ص ٣٣٤.

تجسس المسلمين على الأعراب

لم يكن كفار مكة واليهود والمنافقين هم الخطر الوحيد الذى كان يهدد كيان الدولة الإسلامية الناشئة، بل كان هناك الأعراب الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، بل كانوا أشد كفراً ونفاقاً من غيرهم لكن النبي ﷺ كان يرصد حركاتهم وسكناتهم، وكان فى يقظة تامة لهم، خاصة الأعراب المحيطين بالمدينة.

فما إن كان يصل إلى النبي ﷺ خبر عن تحركات أحدهم ضد المسلمين، إلا وكان يقوم على الفور بالتعامل مع هذه الأخبار. قال يسار (*) مولى رسول الله ﷺ : يا رسول الله، إنى أعلم غرة من بنى عبد ابن ثعلبة، فأرسل معه غالب بن عبد الله (**) فى مائة وثلاثين رجلاً، حتى أغاروا على بنى عبد، فاستاقوا الغنم والشاء، وحدروها إلى المدينة. (١) وفى شهر ربيع الأول سنة ٥ هـ غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل وكان سببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعاً تجمعوا بها ودنوا من أطرافه، فغزاهم رسول الله ﷺ حتى بلغ دومة الجندل، ولم يلق كيداً. (٢) وقبل غزوة المريسع، سار الحارث بن أبي ضرار فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وتهيئوا للمسير معه إليه، فبلغ رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمى يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقى الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم. (٣)

(*) يسار مولى رسول الله ﷺ هو الذى قتله العرنيون الذين أغاروا على لقاح رسول الله ﷺ، بذى الجدر وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٠٢.

(**) غالب بن عبد الله الليثى أحد بنى كعب بن عوف، بعثه رسول الله ﷺ سريةً إلى الكديد وأمره أن يغير عليهم ففعل. المصدر السابق : جـ٥ ص ١٢٢.

(١) تاريخ الطبرى : جـ٣ ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص ٥٦٤.

(٣) الطبقات. جـ٢ ص ٥٩.

ولما سمع رسول الله ﷺ بتجمع هوازن ـــ قبل غزوة حنين ـــ بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فقال : أذهب فادخل فى القوم حتى تعلم لنا من علمهم (١)، فخرج عبد الله فطاف فى عسكرهم، ثم انتهى إلى ابن عوف فوجد عنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب، فينصر عليهم... فلما وعى ذلك عبد الله بن أبي حدرد رجع إلى النبي ﷺ فأخبر بكل ما سمع. (٢) فقد بلغت كفاءة رجال المخابرات الإسلامية، فى أن عبد الله بن أبي حدرد، لم يكتف باختراق معسكر هوازن دون أن يتعرف عليه أحد، بل استطاع أن يصل إلى مجلس القيادة، دون أن يكشف أمره أحد، ثم عاد محملاً بالأخبار إلى النبي ﷺ سالماً. وبلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيض، فكانت غزوة ذات السلاسل. (٣)

وبعد أن استطاع النبي ﷺ أن يقضي على كل الكيانات السياسية المعارضة للدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية، وبدأت الوفود من القبائل العربية المختلفة ترد إلى المدينة، لتعلن إسلامها، وولاءها لسلطة المدينة المنورة انقطعت عمليات التجسس على الأعراب بعد زوال خطرهم.

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٥٧٢.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ٨٩٣.

(٣) ابن سعد : الطبقات. جـ٢ ص ١٢٢.

تجسس الأعراب على المسلمين

كان الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتجسسون عليهم، وذلك طمعاً فى أن يصيبوا منهم غرة فيقومون بالإغارة عليهم، أو خوفاً وحماية لأنفسهم من قوة الدولة الإسلامية الناشئة، التى كانت تقوم بتأديبهم لتحالفهم مع كفار مكة أو اليهود. من ذلك أنه قبل غزوة المريسع أرسل الحارث بن أبي ضرار عيناً له على رسول الله ﷺ [1] وعندما بعث رسول الله ﷺ عمر ابن الخطاب إلى (تربة) — هم عجز هوازن، بنو نصر بن معاوية، وبنو جشم بن بكر — فى ثلاثين راكباً، فخرج عمر ومعه دليل من بنى هلال فكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحد، فانصرف عمر راجعاً إلى المدينة. [2]

على الرغم من أن عمر بن الخطاب ﷺ، قد قام بكل الاستحكامات الأمنية للمحافظة على سرية تحركه، بأن كان يقوم بالسير بالليل والكمن بالنهار، إلا أن هوازن استطاعت أن تعرف بخبر تحرك المسلمين نحوهم، فأخذوا أهبتهم لذلك وتركوا محالهم، ورجع عمر بن الخطاب ﷺ إلى المدينة دون أن يحرز أى شئ، وكان السبب فى ذلك هو تجسس هوازن على المسلمين ورصد تحركاتهم.

وفى ذى الحجة سنة سبع، بعث رسول الله ﷺ ابن أبي العوجاء [*] السلمى، فى خمسين رجلاً، فخرج إلى بنى سليم، وكان عين لبنى سليم معه، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فحذرهم وأخبرهم، فجمعوا جمعاً كثيراً، وجاءهم ابن أبي العوجاء والقوم معدون له، فلما

---

(١) المصدر السابق. جـ٢ ص ٦٠.

(٢) البيهقى : دلائل النبوة. جـ٤ ص ٢٩٢.

(*) ابن أبي العوجاء السلمى، بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين رجلاً سرية إلى بنى سليم.ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٦٤.

رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا جمعهم دعوهم إلى الإسلام، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه، فراموهم ساعة، وجعلت الأمداد تأتي حتى أحدقوا بهم من كل ناحية، فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم، وأصيب صاحبهم ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ . (١) نستفيد من هذه الرواية أن جواسيس الأعراب استطاعوا أن يخترقوا صفوف المسلمين، وأن ينقلوا أخبارهم إلى رؤساء قبائلهم، وعادت عليهم بالنفع حيث استطاعوا أن يفتكوا بالسرية الإسلامية.

لما كان رسول الله ﷺ في طريقه إلى فتح مكة تقدمت أمامه جريدة من خيل طليعة تكون أمام المسلمين، فأتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله، رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته فتغيب عنا في وهدة ـــ أرض منخفضة ـــ ثم جاء فأوفى على نشر فقعد عليه، فركضنا إليه فأراد أن يهرب منا، فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بني غفار فقلنا : هم أهل هذا البلد، فقلنا : من أي بني غفار أنت ؟ فعيي ولم ينفذ لنا نسباً، فازددنا به ريبة، وأسأنا به الظن، فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريباً وأومأ بيده إلى ناحيه، قلنا : على أي ماء، ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئاً، فلما رأينا ما خلط، قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنقك، قال : فإن صدقتكم ينفعني ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم، قال : فإني رجل من هوازن من بني نضر، بعثني هوازن عيناً، وقالوا : ائت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبره لنا ما يريد في أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه. (٢)

---

(١) الواقدي : المغازي. جـ٢ ص ٧٤١.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ص ٨٠٥.

تجسس المسلمين على الروم

على الرغم من أن المسافة بين الروم والمدينة المنورة ـــ عاصمة الدولة الإسلامية ـــ بعيدة جداً، إلا أن الروم كانوا يمثلون خطراً كبيراً، يهدد كيان الدولـــة الإسلامية الناشئة، وذلك عن طريق القبائل العربية الموالية للروم، والمرابضه شمال المدينة المنورة على الحدود المتاخمة لبلاد الروم، فمن ثم كان من واجب الدولة الإسلامية رصد تحركات الروم والقبائل العربية الموالية لهم لأخـــذ الحيطة والحذر منهم. فمن ذلك أنه لما بلغ المسلمون معان ـــ حصن كبير بـــالأردن ـــ مـــن أرض الشام فى غزوة مؤته أتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم فى ناحية البلقاء وهو فى مائة ألف من الروم ومائة أخرى من نصارى العرب أهل البلقاء، من لخم وجذام وقبائل قضاعة... وعليهم رجل مـــن بنى إراشـــة من بلى يقال له مالك بن رافلـــة.[1]

على الرغم من هزيمة المسلمين فى غزوة مؤتـــه، إلا أن هذه الرواية تدل على قوة جهاز المخابرات الإسلامية، فقد استطاع المسلمون أن يعرفوا مكان تجمع الروم فى (البلقاء) وأن يعرفوا قائدهم، وعدد جنود الروم، وعدد جنود من ناصرهم من العرب.

وقبل غزوة تبوك، بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالـــشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام، وعاملة وغسان، وقدموا مقـــدماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك.[2] من الملاحظ أن عملية تجسس المسلمين على الروم، كانت قليلة على نحو ما، كذلك لم نعثر فى المصادر التاريخية أن المسلمين قاموا بأى عملية تجسس على الفرس ـــ باعتبارها إحدى القوتين العظمتين فى المنطقة وقتذاك ـــ اللهم إلا رواية واحدة مفادها أنه فى سنة ٩هـــ قتلت فارس ملكهم شهرابرز ابن

(١) ابن عبد البر : الدرر. ص ٢٢٢.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـــ٢ ص ١٥٠.

شيروية، وملكوا عليهم بوران بنت كسرى، وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ". (١) ويمكن إرجاع السبب فى ذلك إلى وجود القبائل العربية الموالية للفرس والروم والتى كانت بمثابة حاجز بين المسلمين وبين الفرس والروم، فكان احتكاك المسلمين مع هذه القبائل، ولم يظهر الاحتكاك المباشر بين الفرس والروم والمسلمين إلا فى عهد الخلفاء الراشدين.

هذا فضلاً على أن النبي ﷺ كان متفرغاً للعدو الأقرب منه، والمتمثل فى كفار مكة واليهود والأعراب، وما كانت عمليات التجسس على الروم، إلا فى أضيق الحدود، أو من باب رد الفعل لعمليات الروم ومحاولاتهم المتكررة فى التجسس على المسلمين، والتدخل فى شئون شبه الجزيرة العربية بمساندة القبائل الموالية لهم، والمناهضة للمسلمين.

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام. المغازى. ص ٦٦٣.

تجسس الروم على المسلمين

كان موقف الروم من عملية التجسس مختلفاً جداً عن موقف المسلمين تجاههم فى هذا الأمر، فقد أقلق الروم ظهور الإسلام ذاته، لأنه ديانة سماوية، فخافوا أن يحرز تفوقاً على ديانتهم، هذا فضلاً عن نمو وزيادة قوة المسلمين فى شبه الجزيرة العربية يوماً بعد يوم، الأمر الذى سوف يترتب عليه ضياع نفوذ الروم السياسي والديني فى المنطقة، لذا فقد قاموا بعمليات تجسس كثيرة، من أجل التعرف على أخبار المسلمين.

كان هرقل قد بعث رجلاً من غسان إلى النبي ﷺ فينظر إلى صفته وإلى علاماته، وإلى حمرة فى عينيه، وإلى خاتم النبوة بين كتفيه، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة، فوعى أشياء من حال النبي ﷺ ثم انصرف إلى هرقل فذكر له ذلك، فدعا قومه إلى التصديق به، فأبوا حتى خافهم على مكله. (١)

بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفارى (*) فى خمسين رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا. (٢) وقد بين الواقدى سبب فشل هذه السرية بأن قال : كان كعب يكمن النهار ويسير الليل حتى دنا منهم، فرآه عين لهم فأخبرهم بقلة أصحاب النبي ﷺ فجاءوا على الخيول فقتلوهم. (٣) فقد كان وقوع هذه السرية المجاهدة تحت عيون الجواسيس هو السبب فى فشلها وقتل من فيها، وقد أفلت

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ١٠١٨.

(*) كعب بن عمير الغفارى بعثه رسول الله ﷺ فى شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة فى خمسة عشر رجلاً سرية حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١١٤.

(٢) المغازى : جـ٢ ص ٧٥٢.

(٣) المصدر السابق :جـ٢ ص ٧٥٣.

منهم رجل جريح فى القتلى، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وهم بالبعث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم. (١) وقبل غزوة مؤته، فصل المسلمون من المدينة فسمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو، فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه. (٢)

قال كعب بن مالك : وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلني على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلى كتاباً من ملك غسان فى سرقة من حرير فإذا فيه : أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها.(٣)

لقد كانت استخبارات الروم عن حركات المسلمين ونواياهم قوية جداً، وكانوا يستخدمون الأنباط الذين يتاجرون فى المدينة وبعض أفراد القبائل العربية الموالية لهم، فى نقل المعلومات إليهم عن المسلمين، فقد عرف ملك غسان الموالي للروم غضب الرسول ﷺ والمسلمين على كعب بن مالك لتخلفه عنهم يوم تبوك، وكيف أرسل إليه رسالة يعرض عليه فيها الالتحاق بالغساسنة، فإذا استطاع الروم وأحلافهم الإطلاع على مثل هذه القضية الصغيرة، فمن المؤكد أنهم استطاعوا الإطلاع على القضايا المهمة خاصة القضايا التى لها تأثير على الموقف العسكري حينذاك. (٤)

---

(١) المغازى : جـ٢ ص٧٥٣.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ٢ ص ١٢٠.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٤ ص ٤٥.

(٤) خطاب : الرسول القائد. ص ٢٨٢.

دور المخابرات فى الحرب النفسية (*) بين المسلمين وأعداءهم

الحرب النفسية هي حملة مخططة شاملة تستخدم الدعاية والشائعات وأساليب أخرى، كإجراءات عملية ذات طبيعة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية، عن طريق وسائل الاتصال المختلفة للتأثير فى مشاعر وعقول وآراء وسلوك جماعة أو جماعات معادية، تأثيراً يتفق مع مصالح الطرف الذى يشن الحرب النفسية. (١) ويجب أن تبنى الأعمال النفسية ضد الجنود حسب مواقف معنوية معينة وأثناء مواقف عسكرية معينة ويجب أن ترتكز جميع الدعاية على الحقائق ويجب أن ترتكز الدعاية أيضاً بين الجند على فهم حقيقي لظروفهم الشخصية (٢) فالحرب النفسية أخطر أنواع الحروب ؛ لأنها تستهدف فى المقاتل عقله وتفكيره، وقلبه، لكي تحطم روحه المعنوية، وتقضى على إرادة القتال فيه، وتقوده بالتالي نحو الهزيمة. (٣)

وتلعب المخابرات دوراً مهماً فى الحرب النفسية، كأسلوب لا يقل خطورة ولا فاعلية عن الأساليب الأخرى للحرب النفسية، بل إنها تخدم أساليب وأقسام الحرب النفسية المختلفة الهجومية والدفاعية والوقائية. (٤)

فالدعاية السوداء عملية مخابرات جوهرية أساسية، ليس فقط بسبب استخدامها لمواد

(*) يعتبر المخطط العسكري الصيني " صن تزو " أول من كتب عن الحرب النفسية، وذلك فى القرن الخامس قبل الميلاد، فقد أوضح الأهمية الحقيقية لتدمير عزيمة العدو فى القتال قبل أن يخوض أية معركة قتالية، وذلك عندما قال : إن أعظم درجات المهارة هي تحطيم مقاومة العدو قبل القتال. عبد التواب رضوان : مصر والحرب النفسية. ص ١٧.

(١) د/ عبد الوهاب كحيل : الحرب النفسية ضد الإسلام فى عهد الرسول ﷺ فى مكة. ط ــ مكتبة القدسي ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م ص ٢٩.

(٢) لاينبرجر : الحرب النفسية. ص ١٩٩.

(٣) محفوظ : الاستراتيجية العسكرية. ص ١٢١.

(٤) د/ كحيل : الحرب النفسية. ص ٨٢.

المخابرات، بل بسبب أنها مناورة مستقلة فى جو من السرية ولا تكشف مطلقاً عن مصدرها الحقيقي، فهي عملية سرية للغاية، وذلك لأن الكشف عنها أو تعرضها للعلانية يجعلها عديمة النفع. (١)

هذا وقد عمل أعداء الإسلام بكل ما أوتوا من قوة وحيلة على تفريق صفوف المسلمين وتحطيم معنوياتهم، موضحين لهم أن هذا الدين لا يمكن أن ينتشر، ولا أدل على ذلك من إذاقتهم ألوان الأذى والتعذيب الجسدي والنفسي، مظهرين لهم قوتهم الجبارة، وأنهم لا يمكن أن يقهروا، ومن ذلك ما فعلوه مع بلال بن رباح، وخباب بن الأرت ... وذلك لزعزعة إيمان المسلمين بدينهم وبرسولهم الكريم. (٢) لم يستخدم النبى ﷺ الشائعات، كما لم يستخدمها الصحابة أيضا رغم أن الكفار واليهود قد استخدموها ضدهم، ورغم أن نشر الشائعات حول الكفار وسلوكهم كان أكثر احتمالاً وأكثر تصديقاً، ولكن الكفار هم الذين استخدموها، فأشاعوا عن النبي ﷺ أنه ساحر، وأنه كذاب، وكانوا يروجون هذه الشائعات لتشويه صورته ولتشويه دعوته. (٣)

وكان من أساليب مقاومة الحرب النفسية ضد الإسلام عدم الاعتماد على أى مصدر من مصادر العدو فى استقاء الأخبار، فقد كان الرسول ﷺ المصدر الدائم الذى يرجع إليه المسلمون فى كل شائعة تنتشر فما كان المسلمون يسمعون بنبأ، حتى يهرعون إليه سائلين مستفسرين طالبين منه وضع الحد الفاصل بين الحق والباطل، النبأ الصادق والإشاعة. (٤) لأن الرسول ﷺ كان صادقاً فى كل شئ، ولأنه علم الصحابة الصدق منذ اللحظة الأولى لدخول كل منهم فى الإسلام، ولأن مبادئ الإسلام واضحة، ولا غموض فيها ولا أسرار، لذلك كان المجتمع الإسلامي محصناً بطبيعته ضد الحرب النفسية. (٥)

هذا وقد تولى إدارة الحرب النفسية فى المدينة ضد المسلمين أحبار اليهود ودهاقنتهم الماكرون، وكان يتولى الترويج لها فى داخل الصف المسلم " المنافقون " الذين شكلوا طابوراً

---

(١) هاني : الجاسوسية. ص ٨٤.

(٢) د/ كحيل : الحرب النفسية. ص ٣١.

(٣) المرجع السابق : ص ٧٣.

(٤) المرجع السابق : ص ٤٤.

(٥) المرجع السابق : ص ٤١.

خامساً في داخل المجتمع المسلم، وعيناً للأعداء على خبايا وخفايا وأسرار المجتمع المسلم ليحبطوا عمل المسلمين ويفشلوا مسعاهم. (١)

بادر اليهود قبل مجئ بشير المسلمين من بدر بالنصر، بادروا بإشاعات يثبطون بها روح المسلمين المعنوية، ويحدون من إندفاعة الأمل التي يمكن أن تتولد فيهم إن كان النصر لهم، وهذه الإشاعات تنبأ بهزيمة ساحقة للمسلمين، جعلت المسلمين يقضون أوقاتاً عصيبة في انتظار أخبار إخوانهم، ثم جاء زيد بن حارثة ﷺ بشيراً للمسلمين على ناقة النبي ﷺ فأشاعوا أن النبي ﷺ قتل وهذه ناقته، وأن زيداً يخفي الحقيقة، ولعله أول الناجين من القتل الذين يصلون إلى المدينة، ثم وصل الجيش المسلم يقود أسراه، ويحمل غنائمه، فسقط في أيدي اليهود وما عملوا وما يقولون. (٢)

بعد أن اختلط المقاتلون من المسلمين والأعداء في جبهة القتال في غزوة أحد، وسقط الرسول ﷺ على أثر ذلك في حفرة كانت في أرض المعركة، مما أدى إلى إصابته وجرحه، وعلى أثر ذلك تحركت القوى المضادة من قريش، وأشاعت أن الرسول ﷺ قد مات، مما أدى إلى انهيار المعنويات في صفوف المسلمين، لكن علياً بن أبي طالب وبعض جنود المسلمين أحاطوا بالرسول ﷺ واستمروا معه في مواصلة القتال، وأعلن أن الرسول ﷺ لم يمت، فعادت للمسلمين حماستهم، وقويت روحهم المعنوية واستطاعوا أن يردوا قريشاً على أعقابهم. (٣) وعقب أحد قدم رجل من أهل مكة على رسول الله ﷺ فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال : نازلتهم فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم فقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم، فأمر رسول الله ﷺ وهم أشد القرح ــ بطلب العدو ليسمعوا بذلك. (٤)

---

(١) د/ أحمد نوفل : الحرب النفسية من منظور إسلامي. ط ــ دار الفرقان ــ عمان ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م. ص ٥٧.

(٢) المرجع السابق : ص ٦٧.

(٣) رضوان : مصر والحرب النفسية. ص ٧٠.

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٩٧.

تعتبر التعبئة النفسية والتوجيه المعنوي فى العلم العسكري الحديث أحد أهم عوامل النصر فى أية حرب، لذا فهما لا ينفصلان عن التعبئة المادية والبشرية، إذ أن أى نصر لابد وأن يبدأ بانتصار المقاتل على ذاته فيتخلص من عوامل الخوف، كما أن أية هزيمة لابد وأن تبدأ بالهزيمة المعنوية فى نفوس المقاتلين، لذا حرض الله ــ عز وجل ــ المسلمين على القتال وأمر رسوله ﷺ بتحريض المسلمين عليه، فخاطبه وخاطب المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) الأنفال : آية ٦٥ . وبهذه التعبئة النفسية القرآنية استطاع النبي ﷺ أن يقود المسلمين إلى حمراء الأسد بالرغم من كثرة الجراحات بهم، وعندما وصلوا إلى حمراء الأسد جاء معبد بن أبي معبد الخزاعى، وهو يؤمئذ مشرك، وكانت خزاعة سلماً للنبي ﷺ فقال : يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك... ثم مضى معبد حتى وجد قريشاً بالروحاء فلما جاء معبد إلى أبي سفيان، قال : هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ولمن أصبتم من أشرافهم، قالوا : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ما نرى أن نرتحل حتى نرى نواصى الخيل... فانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم. (٢)

وهكذا استطاع النبي ﷺ عن طريق عملائه الموالين له، أن يبث الرعب فى قلوب المشركين، ويجبرهم على الرجوع إلى مكة، برغم انتصارهم فى أحد، وما كان لهذه المهمة أن تنجح لو كان الذى قام بها ممن علم بإسلامه لدى قريش، لأنه فى هذه الحالة كان لن يصدق، لإقامه بالتحيز، وربما كانت النتيجة ستكون عكسية على المسلمين.

---

(١) د/ سويد : الفن العسكري الإسلامي. ص ٤٣ ــ ٤٤.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٣٣٩.

وكما مارس المسلمون الحرب النفسية عن طريق العملاء ضد قريش فقد مارست قريش نفس العملية مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وإن كانت غير صادقة فيما أشاعت وادعت فقد مر بأبي سفيان ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : المدينة. قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم. قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل. (١) فاستطاع وفد عبد القيس أيضاً، أن ينقل للمسلمين هذه الأخبار الكاذبة باتفاقهم مع أبي سفيان، وكان من الممكن أن يكون لهذه الأخبار آثار سيئة على نفوس المسلمين المجروحين بهزيمة أحد، لولا أن معبد بن أبي معبد الخزاعي أرسل رجلاً من بنى جلدته ــ خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين فانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة. (٢)

هذا وكان أبو سفيان لما أراد أن ينصرف يوم أحد نادى : موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء (*) رأس الحول، نلتقى فيه فنقتتل، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ : قل نعم إن شاء الله... فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد، فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنا نريد أن نغزو محمداً فى جمع كثيف فيقدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهز فيقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع، وسار فى العرب ليسير إليكم لموعدكم، فيكره ذلك المسلمون ويهيبهم ذلك. (٣)

قدم نعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فجاءه أبو سفيان بن حرب فى رجال من قريش فقال : يا نعيم إنى وعدت محمداً وأصحابه يوم أحد أن نلتقى نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٠٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٣٤٠.

(*) كان بدر الصفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم هلال ذى القعدة إلى ثمان ليال خلون منه، فإذا مضت ثمانى ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم. المغازي : جـ١ ص ٣٨٤.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ص ٣٨٥.

وقد جاء ذلك. فقال نعيم : ما أقدمني إلا ما رأيت محمداً وأصحابه يضعون من إعداد السلاح والكراع فقال أبو سفيان : أحقاً ما تقول ؟ قال : إى والله. فجزوا نعيماً خيراً ووصلوه وأعانوه، فقال أبو سفيان :... نجعل لك عشرين فريضة عشراً جذاعاً وعشراً حقاقاً، وتوضع لك على يدى سهيل بن عمرو ويضمنها لك، قال نعيم : رضيت وكان سهيل صديقاً لنعيم فجاء سهيلاً فقال : يا أبا يزيد تضمن لى عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب محمد ؟ قال : نعم، قال : فإنى خارج، فخرج على بعير حملوه عليه. (١) فكان لنعيم بن مسعود الأشجعي الدور الكبير فى الحرب النفسية ضد المسلمين قبل غزوة بدر الموعد فقد أسرع السير ــ بعد أن عقد مع أبي سفيان اتفاقاً لذلك ــ فقدم وفد حلق رأسه معتمراً، فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون، فقال أصحاب رسول الله ﷺ من أين يا نعيم ؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة، فقالوا : لك علم بأبي سفيان ؟ قال : نعم، تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، فهو قد جاء فيما لا قبل لكم به، فأقيموا ولا تخرجوا فإنهم قد أتوكم فى داركم وقراركم، فلن يفلت منكم إلا الشريد... وجعل يطوف بهذا القول فى أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعبهم وكره إليهم الخروج، حتى نطقوا بتصديق قول نعيم. (٢)

فقد أمعن نعيم بن مسعود فى تضليل المسلمين وخذلانهم، والضغط عليهم نفسياً، لتثبيطهم عن الخروج لملاقاة قريش، ولم يكتف بحلق رأسه مدعياً آداءه للعمرة فقط، بل طاف بقوله الكاذب هذا على جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، كي تصبح أكاذيبه أكثر انتشاراً وأوقع فى النفس. هذا وقد أفلحت إشاعة نعيم ابن مسعود بين صحابة رسول الله ﷺ لدرجة أن بعضهم قد صدق قوله فى أن قريشاً سوف تخرج إليهم ولا طاقة لهم ذلك، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك، وتظاهرت به الأخبار عنده حتى خاف رسول الله ﷺ ألا يخرج معه أحد، فجاءه أبو بكر بن أبي قحافة ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ، وقد سمعا ما سمعا فقالا : يا رسول الله إن الله مظهر دينه ومعز

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

نبيه، وقد وعدنا القوم موعداً ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم، فيرون أن هذا جبن منا عنهم، فسر لموعدهم... فسر رسول الله ﷺ بذلك ثم قال : والذى نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد، قال : فلما تكلم رسول الله ﷺ تكلم بما بصر الله عز وجل المسلمين وأذهب ما كان رعبهم الشيطان وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بدر. (١)

ولم يكتف رسول الله ﷺ بمقاومة إشاعات نعيم بن مسعود بالكلام وما أوتى من فصاحة البيان فى إقناع أصحابه بالخروج إلى بدر الموعد بل خرج بأصحابه بالفعل لا بالقول فقط، فقد خرج رسول الله ﷺ فى ألف وخمسمائة من أصحابه فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة... وكان بهذا السوق معبد بن أبي معبد الخزاعى ــ الذى قام من قبل بتضليل قريش لصالح الرسول ﷺ فى غزوة حمراء الأسد ــ وقد رأى الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ... فانطلق حتى قدم مكة، فكان أول من قدم بخبر موسم بدر، فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد، وأنهم أهل ذلك الموسم وقال : وافى محمد فى ألفين من أصحابه، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدع أهل الموسم، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم، وإنما خلفنا الضعف عنهم. (٢) وبهذا يكون النبي ﷺ قد قاوم إشاعات قريش المغرضة ضد المسلمين، حتى اعترف القرشيون أنفسهم بضعفهم وتخاذلهم عن لقاء النبي ﷺ وصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

وعندما اشتد الحصار على المسلمين فى غزوة الخندق أتى رسول الله ﷺ نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرنى بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ : إنما أنت رجل واحد من غطفان، فلو خرجت فخذلت عنا كان أحب إلينا من بقائك فاخرج، فإن الحرب خدعة. (٣) فقد استغل النبي ﷺ خبرة نعيم بن

(١) المصدر السابق : جـ١ ص ٣٨٧.

(٢) الواقدي : المغازى. جـ١ ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩.

(٣) ابن عبد البر : الدرر. ص ١٨٦.

مسعود السابقة فى الحرب النفسية ضد المسلمين قبل إسلامه، وكذلك العلاقة القديمة بين نعيم ابن مسعود ويهود قريظة، فى تفتيت وحدة الأحزاب، وهذه العلاقة تحدث عنها نعيم بن مسعود نفسه فقال (١): " وكانت بنو قريظة أهل شرف وأموال، وكنا قوماً عرباً، لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاة وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد، فأقيم عندهم الأيام، أشرب من شربهم، وآكل من طعامهم، ثم يحملونني تمراً على ركابي ما كانت، فأرجع إلى أهلى ". وقد قام نعيم بن مسعود بما كلفه به النبي ﷺ على أكمل وجه وكان نعيم بن مسعود يقول : أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه، وأنا أمين رسول الله ﷺ على سره. (٢)

وقد أمر النبي ﷺ نعيم بن مسعود بذلك لأن من أهداف الحرب النفسية، التفريق بين العدو وأتباعه، وحلفائه وأصدقائه، لعزله عن غيره من الدول أو المناصرين، حتى يسهل القضاء عليه فى الوقت الذى يجرى فيه تأليب الرأي العام ضده، وذلك بالتشكيك فى أهداف التعاون مع العدو، وتشجيع بعض الحلفاء على الخروج من هذا التحالف بإقناعهم وتلقينهم الحجج المبررة للخروج من هذا التحالف، إلى جانب إثارة مخاوف أعضاء الجبهة مع بعضهم البعض، والتشكيك فى قدراتهم. (٣) ولما أصيب خبيب وأصحابه خرج رسول الله ﷺ طالباً بدمائهم ليصيب من بنى لحيان غرة، فسلك طريق الشام ليرى أنه لا يريد بنى لحيان حتى نزل بأرضهم فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال (٤)، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : إن قريشاً قد بلغهم مسيري وأنى قد وردت عسفان وهم يهابون أن آتيهم، فاخرج فى عشرة فوارس، فخرج أبو بكر فيهم حتى أتوا الغميم، ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً فقال رسول الله ﷺ : إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم، ويخافون أن نكون نريدهم... فبلغ قريشاً أن رسول الله ﷺ

---

(١) المغازى. جـ٢ ص ٤٨٠.

(٢) ابن سعد : الطبقات. جـ ٥ ص ١٦٧.

(٣) د/ كحيل : الحرب النفسية ضد الإسلام. ص ٣٢.

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٥٦.

قد بلغ الغميم (١) ثم كر وراح رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة. (٢)

وعندما أراد النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أداء العمرة بعد صلح الحديبية، لم يسلموا من حرب قريش النفسية ضدهم عن ابن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، فاطلع الله نبيه على ما قالوا : فأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم. (٣) ولما حاصر رسول الله ﷺ الطائف بعد غزوة حنين مارس الحرب النفسية ضد أهلها، فقد أعلن الرسول ﷺ أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف، ففر إليه حوالي عشرين من أهلها، فعرف منهم أن المواد الغذائية كثيرة جداً لدى ثقيف، لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد أن استمر حوالي شهر واحد، تاركاً أمر استسلام ثقيف إلى الزمن، خاصة وأن الكثيرين من رجالها اعتنقوا الإسلام (٤) ولما قدم وفد أهل الطائف فأسلموا قالوا يا رسول الله رد علينا رقيقنا الذين أتوك قال : لا، أولئك عتقاء الله. (٥)

من خلال هذا العرض السالف الذكر للحرب النفسية، يتضح أنها كانت حرباً ضارية بين المسلمين وأعداءهم، خاصة كفار مكة الذين قاوموا الدعوة الإسلامية فى مهدها، وكان للمخابرات الإسلامية دوراً كبيراً فى هذه الحرب، من خلال إبطال شائعات وأكاذيب الأعداء ضد المسلمين، أو من خلال العمل على تفتيت وحدة الأعداء، وبث الرعب فى صفوفهم وإرهابهم بقوة المسلمين.

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٥٣٦.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٧٥.

(٣) السيوطي : الخصائص الكبرى. جـ١ ص ٢٥٨.

(٤) خطاب : الرسول القائد. ص ٢٥١.

(٥) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٦٥٧.

سمات رجال المخابرات على عهد النبي ﷺ

ذكر آنفاً أن النبي ﷺ قد وضع شروطاً خاصة لاختيار رجال مخابراتـــه، وأن هـــذه الشروط كان يراعي فيها المقومات الدينية والمقومات الشخصية عند الاختيـــار، ومـــن خـــلال التجارب التى مر بها رجال المخابرات الإسلامية فى العمليات المكلفين بها، ظهرت فـــيهم بعـــض السمات التى كشفت عنها تلك التجارب وأظهرت أن اختيار النبي ﷺ لهم كان اختياراً فى محله.

من الصفات التى كان يتمتع بها رجال المخابرات فى عهد النبي ﷺ الذكاء ويدل علـــى ذلك أن رسول الله ﷺ عندما علم بتجمع بنى المصطلق ـــ فى غزوة المريسع ـــ لغـــزوه أراد ﷺ أن يتأكد من هذا الخبر وحجم قوات العدو، فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأســـلمى فخرج حتى ورد عليهم ماءهم، فوجد قوماً مغرورين قد تألبوا وجمعوا الجموع، فقـــالوا : مـــن الرجل ؟ قال : رجل منكم، قدمت لما بلغنى عن جمعكم لهذا الرجل ـــ يقصد رسول الله ﷺ ـــ فأسير فى قومي ومن أطاعني فتكون يدنا واحدةً حتى نستأصله قال الحارث بن أبى ضرار : فـــنحن على ذلك، فعجل علينا، قال بريدة : أركب الآن فآتيكم بجمع من قومي ومن أطاعني، فـــسروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم.(١) وتدل هذه الرواية علـــى الـــذكاء الكبير الذى كان يتمتع به بريدة الأسلمى فقد أنكر اسمه ولو ذكر لهم اسماً مستعاراً لكـــان مـــن الممكن أن يعرفوا كذبه لعلم العرب غالباً بالأنساب بل ادعى أنه رجل منهم، ثم ادعـــى عداوتـــه لرسول الله ﷺ كي يتفق معهم على مبدأ الخروج، فيعبروا له عن مكنونهم، فلو ادعى أنه تاجراً أو عابر سبيل، لكان من الممكن ألا يعرفوه بنواياهم، ولكن حقدهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ قد أعمت بصيرتهم عن معرفة الصادق من الكاذب.

---

(١) الواقدى : المغازى. جـــ١ ص ٤٠٥.

وكان نعيم بن مسعود ـــ الذى أرسله النبي ﷺ ليخذل عنه الأحزاب ـــ شديد الذكاء، فما جاء أحداً من أطراف الأحزاب إلا وقال لهم " ولكن اكتموا عنـــى "(١) وذلك لكي لا يعلم أحد من أطراف التحالف بما قاله للطرف الآخر، كى تجدى معهم الخديعـــة.

ومن الصفات التى أظهرتها التجارب لرجال المخابرات الإسلامية على عهـــد الـــنبي ﷺ سرعة البديهة عندما بعث رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبر الأحزاب، قـــال حذيفـــة متحدثاً عن ذلك : " أقبلت فجلست على نارٍ مع قوم ـــ والريح تفعل بهم ما تفعل ـــ فقام أبـــو سفيان فقال : احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل جليسه، قال : فالتفت إلى عمرو بن العاص، فقلت : من أنت ؟ وهو عن يميني فقال : عمرو بن العاص، والتفت إلى معاوية بـــن أبي سفيان فقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبي سفيان "(٢) فلو كان حذيفة بـــن اليمـــان هـــو المسئول وليس السائل لكان فى مقدور القوم أن يتعرفوا عليه، فتفشل مهمتـــه، ولعرض نفـــسه للقتل، ولكن سرعة البديهة التى كان يتمتع بها، هي التى مكنته من سرعة التعرف على جلساءه، قبل أن يسأل نفس سؤالـــه لهم وهو، من أنت ؟.

ومن السمات التى توفرت فى رجال المخابرات الإسلامية والتى أظهرتها ا التجارب، قوة التحمل والصبر على الآلام الجسدية، عن جابر ابن عبد الله قال بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينـــا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينـــا تمـــرة تمرة... كنا نمصها كما يمص الصبى ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنـــا نـــضرب بعصينا الخبط ـــ ورق الشجر ـــ ثم نبله بالماء فنأكله.(٣)

---

(١) المصدر السابق : جـــ٢ ص ٤٨١.

(٢) الواقدي : المغازى. جـــ٢ ص ٤٨٩.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـــ٣ ص ٥٢٢.

عن جندب بن مكيث الجهني (*) قال : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي، أحد بني كلب بن عوف، في سرية كنت فيهم، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوح بالكديد... فسرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكمنا ناحية الوادي، فبعثني أصحابي طليعة لهم، فخرجت فأتيت تلا مشرفاً على القوم يطلعني عليهم، حتى إذا أسندت فيه وعلوت على رأسه انبطحت، فوالله إني لأنظر إذ خرج رجل منهم من خباء له فقال لامرأته : والله إني لأرى على هذا التل سواداً ما رأيته عليه صدر يومي هذا، فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب أخذت منها شيئاً، فنظرت فقالت : والله ما أفقد من أوعيتي شيئاً، فقال : ناوليني قوسي ونبلي، فناولته قوسه وسهمين معها، فأرسل سهماً، فوالله ما أخطأ به جنبي، فانتزعته فوضعته وثبت مكاني، ثم رماني الآخر فخالطني به أيضا، فأخذته فوضعته وثبت مكاني... ثم دخل خباءه فلما اطمأنوا وهدأوا شننا عليهم الغارة، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، واستقنا النعم والشاء فخرجنا نحدرها قبل المدينة (١). نلاحظ على هذه الرواية قوة التحمل والصبر على الآلام الجسدية التي كان يتمتع بها رجال المخابرات الإسلامية فهذا الصحابي الجليل ورجل المخابرات القدير (جندب بن مكيث) قد أصابه سهمين عندما شك في وجوده أحد رجال بني الملوح ولكنه لم يظهر التألم بل لم يتحرك من مكانه كي يعطي هذا الرجل انطباعاً بأن الموجود على التل لا شئ أو ليس بإنسان متجسس لأخبارهم على الأقل حتى اطمأن القوم لذلك، فلو تحرك من مكانه لكان من الممكن أن يكتب لهذه السرية الفشل ولكن قوة تحمله للآلام الجسدية مكن المسلمين من الإغارة بنجاح على بني الملوح وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنم أموالهم ونعمهم.

أرسل رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلي ذات أطلاح من الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوهم إلي الإسلام فلم يستجيبوا لهم

(*) جندب بن مكيس بن جراد بن يربوع الجهني شهد الحديبية وبايع بيعة الرضوان. ابن سعد : طبقات جـ ٥ ص ٢٦٣.

(١) الواقدي : المغازي جـ ٢ ص ٧٥١.

ورشقوهم بالنبل، فلما رأى أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا، وكان منهم رجل جريح في القتلى، فلما أن برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ ، فهم بالبعثة إليهم فبلغه أنهم ساروا إلي موضع آخر (١).

على الرغم من أن هذه السرية الاستطلاعية قد كتب لها الفشل بقتل رجالها، إلا أن أحد رجالهـا تحمل جراحاتـه، وقدم حتى وصل إلى المدينة المنورة، وأخبر النبي ﷺ بما حدث.

(١) ابن كثير : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٥٤ .

قيمة معلومات المخابرات على عهد النبي ﷺ

كان للصفات الحسنة التى تمتع بها رجال المخابرات على عهد النبي ﷺ أثر كبير على المعلومات التى كانوا يأتون بها، فقد امتازت معلوماتهم بالدقة فى وصف قدرات العدو المادية وحالته المعنوية.

عندما سارت قريش إلى أحد بعث رسول الله ﷺ سراً الحباب بن المنذر بن الجموح ليأتيه بخبر قريش، فرجع فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيت ؟ قال : رأيت يا رسول الله عدداً، حزرهم ثلاثة آلاف، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائق فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة، حزرهم سبعمائة درع، قال : هل رأيت ظعناً ؟ قال : رأيت النساء معهن الدفاف والطبول، فقال رسول الله ﷺ : أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم بك أجول وبك أصول. (١) فقد استطاع الحباب أن يقدم للنبي ﷺ بياناً شافياً وفى منتهى الدقة عن عدد المشركين وعتادهم، ليس هذا فقط، بل كشف للنبي ﷺ عن الاستعدادات المعنوية للمشركين، والتى تمثلت فى النساء والدفاف والطبول، واللاتي جئن لتحريض القوم وتذكيرهم بقتلى بدر، من أجل رفع روحهم المعنوية.

هذا ولم يكن رجال المخابرات على عهد النبي ﷺ يهتمون بجمع المعلومات عن القوات البرية فى شبه الجزيرة العربية فقط، بل كانوا يهتمون بجمع المعلومات عن القوات البحرية المعادية أيضاً، ففى ربيع الآخر سنة ٩ هـ بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة، رأوهم أهل الشعيبة ـ بناحية مكة ـ فى مراكب فبلغ النبي ﷺ ، فبعث علقمة ابن مجزر المدلجى (*) فى ثلاثمائة رجل حتى انتهى إلى جزيرة فى البحر فخاض إليهم فهربوا منه، ثم انصرف. (٢) فقد كان رجال

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٢٠٨.

(*) علقمة بن مجزر بن الأعور بن جعدة المدلجى... بعث عمر بن الخطاب علقمة بن مجزر فى جيش إلى الحبشة فهلكوا كلهم. ابن سعد : الطبقات. جـ٥ ص ١٣٥.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٣ ص ٩٨٣.

المخابرات يعملون على حفظ حدود الدولة الإسلامية الساحلية، من أى هجوم خارجي، ويبدو أن هؤلاء الجيش لم يكونوا جنود دولة، بل ربما يكونون بعض اللصوص أو قراصنة البحر الأحمر الذين يقومون ببعض الهجمات الخاطفة المفاجئة، ومع ذلك فقد تعامل معهم النبي ﷺ بمنتهى الحزم، وأرسل إليهم سرية لطردهم بمجرد وصول الخبر إليه ﷺ .

وكان رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ يهتمون أيضاً بجمع المعلومات ودراسة أرض المعركة قبل القتال، لأن القيادات الناجحة الموفقة هى التى تدرس ظروف المعركة قبل أن تخوضها، وظروف المعركة من وجهة النظر العسكرية تعنى أشياء كثيرة، منها أن القائد يجب أن تكون لديه معلومات وافية عن عدوه وعن الأرض التى ستدور فوقها المعركة، وعن الظروف الجوية التى تسود مكان القتال. (١)

يقول الهرثمى (٢): " لا تنزلن من عدوك منزلاً أبداً لا تعرفه، وارتده ذا ماء ومحتطب وكلاء "، فقد اهتم الرسول الكريم ﷺ بأن يجمع المعلومات اللازمة عن أرض المعركة، وليس أدل على ذلك مما حدث فى غزوة أحد، فإن النبي ﷺ عند خروجه إلى أرض المعركة قام بدراستها فرأى أن يستفيد المسلمون من وجود الجبل، فقرر أن يجعله إلى ظهره ليحمى المسلمين من الخلف. (٣)

ولم يقتصر دور المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ بجمع المعلومات العسكرية فقط عن العدو بل كانوا يقومون بجمع المعلومات الاقتصادية لإن توجيه الضربات القوية لاقتصاد العدو يضعف قدرته العسكرية، وتدمير اقتصاده يعنى تدمير قوته العسكرية، وإضعاف روحه المعنوية، ومن ثم استسلامه، وكان رسول الله ﷺ يخطط لضرب اقتصاد الأعداء حتى يضعفهم ويضعف قدرتهم على المقاومة. (٤) من ذلك أن النبي ﷺ سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلاً من

---

(١) فرج : فن إدارة المعركة. ص ٤١.

(٢) مختصر سياسة الحروب : ص ٣١.

(٣) فرج : فن إدارة المعركة. ص ٤٦.

(٤) أبو فارس : المدرسة النبوية العسكرية. ص ١٧٩.

الشام فى عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلاً من قريش (١)" فتعامل النبي ﷺ مع هذه المعلومات الاقتصادية وكان ما كان من غزوة بدر وما تبعها من أحداث جسام.

ولما أصبحت طريق تجارة قريش إلى الشام فى خطر وفى مرمى أيدي المسلمين، فكرت قريش فى طريق بديل تحافظ من خلاله على اقتصادها، غير أن هذا الطريق التجاري السري البديل، وقع خبره فى مسامع رجال المخابرات الإسلامية، وذلك قبل أن تقوم قريش بأى رحلة تجارة إلى الشام من خلاله. قدم المدينة نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو على دين قومه، فنزل على كنانة بن أبي الحقيق فى بنى النضير فشرب معه، وشرب معه سليط ابن النعمان بن أسلم — ولم تحرم الخمر يومئذ — وهو يأتي بنى النضير ويصيب من شرابهم، فذكر نعيم خروج صفوان فى عيره وما معهم من الأموال، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى مائة راكب، فاعترضوا لها فأصابوا العير وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو ورجلين، وقدموا بالعير على النبي ﷺ فخمسها، فكان الخمس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم، وقسم ما بقى على أهل السرية. (٢)

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٨٢.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ١٩٨.

تفوق المسلمين فى حرب المخابرات على أعداءهم

كانت الدولة الإسلامية على عهد النبي ﷺ تعاني من كثرة الأعداء المتربصين بها سواء داخل المدينة المنورة، أو خارجها، أو داخل شبه الجزيرة العربية أو خارجها أيضاً، وقامت بين الدولة الإسلامية وبين هؤلاء الأعداء حرب مخابرات طاحنة، إلا أن الدولة الإسلامية استطاعت التفوق مخابراتياً على هؤلاء الأعداء.

على الرغم من أن عمير بن وهب الجمحى قام بالتجسس على معسكر المسلمين فى بدر وكانت معلوماته دقيقة عن المسلمين حيث بين للمشركين عددهم صحيحاً تقريباً إلى جانب غيرها من المعلومات إلا أن المسلمين كانوا على علم بما قام به وأخبر، فقد روى الواقدى أن عمر بن الخطاب قال فى مجلس ولايته : يا عمير بن وهب، أنت حازرنا للمشركين يوم بدر، تصعد فى الوادي وتصوب، كأني أنظر إلى فرسك تحتك تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد، قال : إى والله يا أمير المؤمنين، وأخرى أنا والله الذى حرشت بين الناس يومئذ، ولكن الله جاء بالإسلام وهدانا له فما كان فينا من الشرك أعظم من ذلك، قال عمر : صدقت. (١)

لما كانت قريش فى طريقها إلى أحد نزلت بذى الحليفة فبعث النبي ﷺ عينين له، أنساً ومؤنساً ابن فضالة ليلة الخميس لخمس ليال مضين من شوال، فاعترضا لقريش بالعقيق، فسارا معهم حتى نزلوا بالوطاء فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه (٢) فقد استطاع رجال المخابرات الإسلامية اختراق صفوف قريش والسير معهم من مكان لآخر دون أن يتعرفوا عليهم، ثم نقلا الأخبار إلى رسول الله ﷺ وأديا مهمتهما بنجاح وتفوق. وفى غزوة الخندق أتى نعيم بن مسعود، رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء ووجده يصلي فلما رأه جلس ثم قال : ما جاء بك يا نعيم ؟ قال : إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق، فمرنى بما شئت يا رسول الله، فوالله لا تأمرني بأمر إلا مضيت له، قومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم، قال : ما استطعت أن تخذل الناس فخذل،

---

(١) الواقدى : المغازى. جـ١ ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق : جـ١ ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.

قال : أفعل ولكن يا رسول الله أقول فأذن لى قال : قل ما بدا لك فأنت فى حِـل.(١) وقد برز فى المجهود الذى قام به نعيم بن مسعود فى خذلانه للأحزاب قمة تفوق جهاز المخابرات الإسلامية على الأعداء، حيث استطاع النبي ﷺ بفضل مجهود رجل واحد من رجال مخابراتـه، أن يشتت جمع الأحزاب ويجبرهم على مغادرة المدينة المنـورة وفك الحصار عنها. وفى غزوة الخندق برزت أيضاً قمة تفوق جهاز المخابرات الإسلامية فى حادث مخابراتي آخر، هو أن النبي ﷺ أراد أن يطمـئن على نتيجة المهمة التى قام بها نعيم بن مسعود فى خذلا العدو، فأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بـن اليمان ليأتيه بخبر الأحزاب، فاستطاع حذيفة أن يخترق معسكر الأحزاب ويتوغل فيه ليلاً دون أن يشعر به أحد، ليس هذا فقط بل وصل إلى مجلس القيادة ـــ مجلس أبى سفيان ـــ نفسه ولم يتعرف عليه أيضاً أحد وذلك على الرغم من جلوسـه بينهم وكان عن يمينه عمرو بن العاص وعن شمالـه معاوية بن أبي سفيان ـــ اللذان كانا لم يسلما بعد ـــ ليس هذا فقط بل ذكر الواقدى أنه ذهب إلى غطفان ـــ أيضاً ـــ فوجدهم قد ارتحلوا، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبـره.(٢)

هذا ولم يتوقف الأمر عند حد اختراق رجال المخابرات الإسلامية لـصفوف قـريش فى معسكراتها الحربية خارج مكة ـــ ربما يكون هذا الأمر سهلاً فى نظر البعض ـــ فقط، بل استطاع رجال المخابرات الإسلامية، أن يخترقوا صفوف القرشيين داخل مكـة نفسها.

عن عمرو بن أمية قال : أن رسول الله ﷺ كان بعثه عيناً وحده، قـال : جئـت إلى خشبة خبيب بن عدى ـــ لما قتلتـه قريش فى مكة ـــ فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون، فأطلقتـه فوقع إلى الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلاً، ثم التفت فلم أر شيئاً، فكأنما بلعته الأرض، فلـم تذكر لخبيب رمة حتى الساعـة.(٣) وعندما أراد النبي ﷺ فتح مكة، نزل ﷺ بمر الظهران وقد عميت الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون مـا رسـول الله ﷺ

(١) المصدر السابق : جـ٢ ص ٤٩٠.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٤٨٠.

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٣١ ـــ ١٣٢.

فاعل (١)، وقد وصل المسلمون إلى هذا المكان القريب جداً من مكة دون أن يشعر بهم أحد من قريش، بفضل رجال المخابرات الإسلامية الذين بذلوا كل ما بوسعهم لمنع وصول الأخبار إلى قريش.

ولم يحرز رجال المخابرات الإسلامية تفوقاً على كفار مكة فقط، بل على اليهود أيضاً، إذ لما كان رسول الله ﷺ في طريقه لخيبر بعث ﷺ عباد بن بشر في فوارس طليعة، فأخذ عيناً لليهود من أشجع... فأتى به عباد النبي ﷺ فأخبره الخبر، فقال عمر بن الخطاب : اضرب عنقه. قال عباد : جعلت له الأمان . فقال رسول الله ﷺ : أمسكه معك يا عباد فأوثق رباطاً، فلما دخل رسول الله ﷺ خيبر عرض عليه الإسلام، وقال رسول الله ﷺ : إني داعيك ثلاثاً، فإن لم تسلم لم يخرج الحبل عن عنقك إلا صعداً، فأسلم الأعرابي. (٢) هذا إلى جانب العديد من الجواسيس الذين تم القبض عليهم أو قتلهم من اليهود أو الأعراب أو جواسيس كفار مكة، مما ذكر آنفاً في طرق مكافحة التجسس على المسلمين، والتي تبرهن جميعها على قمة تفوق جهاز المخابرات الإسلامية على أعداء الدولة الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق : جـ٣ ص ٥٤٦.

(٢) الواقدى : المغازى. جـ٢ ص ٦٤١.

إخفاقات جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ

على الرغم من النجاح والتفوق الذي أحرزه جهاز المخابرات الإسلامية على الأعداء — إلا أنه كغيره من أجهزة المخابرات المختلفة، كانت له بعض الإخفاقات، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم كانوا بشراً من طبعهم الخطأ والصواب، وأنهم لم يكونوا يعتمدون في مهماتهم على الخوارق والمعجزات، بل كانوا يعتمدون في المقام الأول على قدراتهم الذاتية.

كان في مقدمة هذه الإخفاقات، المهمة المخابراتية التي كلف بها النبي ﷺ بسبس وعدي بن أبي الزغباء، فالحقيقة أنهما لم يحققا نجاحاً في مهمتهما الاستخباراتية، فالمعلومات التي نقلاها إلى النبي ﷺ والتي تضمنت وصول عير أبو سفيان إلى بدر بعد يوم أو يومين استندا إلى ما سمعها من الجارتين، لم يكن صحيحاً، إذ أن عير قريش قد وصلت بعد أن ذهبا بقليل، ثم اكتشف أبو سفيان بأن المسلمين يتجسسون عليه، وبذلك أوصلت هذه المهمة معلومات خاطئة للمسلمين، في حين أن هذه المهمة أفادت أبي سفيان في تغيير طريقه إلى الساحل والنجاة بالقافلة، وبعد عودة بسبس وأبي الزغباء أرسل النبي ﷺ بعض أصحابه مرة أخرى لمعرفة أخبار عير قريش [1].

ذكر آنفاً أن خزاعة كانت عيبة نصح للنبي ﷺ مسلمهم وكفارهم وبالرغم من هذا، كان كفار مكة على علم بذلك الأمر، وكانوا دائماً يكشفون أمر خزاعة. عندما أخبر عمرو بن سالم الخزاعي رسول الله ﷺ بمسير قريش إليه قبل أحد، ثم رجع إلى مكة.. فلما أصبح أبو سفيان أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة، فقال أبو سفيان : أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا، وحذروه، وأخبروه بعددنا [2].

لما كان المسلمون في طريقهم إلى حمراء الأسد لتتبع قريش بعد غزوة أحد، بعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم : سليط ونعمان ابنى سفيان بن خالد بن عوف بن دارم

---

(١) محمد جاد المولى : قصص القرآن — ط — دار الجيل — بيروت — لبنان — سنة ١٩٨٨م. ص٢٧٧.

(٢) الواقدي : المغازي. جـ١ ص ٢٠٥.

من بني سهم، ومعهما ثالث من أسلم من بني عوير، فأبطأ الثالث عنهما وهما يسرعان وقد انقطع زمام نعل أحدهما، فقال : أعطني نعلك قال : لا والله لا أفعل، فضرب أحدهما برجله في صدره، فوقع لظهره وأخذ نعليه ولحق القوم بحمراء الأسد، ولهم زجل وهم يأتمرون بالرجوع، وصفوان ينهاهم عن الرجوع، فبصروا بالرجلين فعطفوا عليهما فأصابوهما، فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد فعسكروا، وقبروهما في قبر واحد [1]. ولعل السبب في فشل طليعة المخابرات هذه يرجع إلى اختلاف أفرادها فيما بينهم، كما أنهم لم يعملوا بأبسط أصول التجسس وهي المواراة وعدم وقوع أعين العدو عليهم، فلهذا تم القبض عليهما ثم قتلا.

ومن الإخفاقات أيضاً أن رسول الله ﷺ بعث أصحاب الرجيع عيوناً إلى مكة ليخبروه خبر قريش فسلكوا الطريق حتى كانوا بالرجيع فاعترضت لهم بنو لحيان [2]، وكان سبب اعتراض بني لحيان لهم أن المسلمين لما نزلوا بالرجيع أكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنماً فرأت النواة، فأنكرت صغرها وقالت : هذا تمر يثرب، فصاحت في قومها فجاءوا في طلبهم فوجدوهم قد كمنوا في الجبل [3]. يبدو أن نوى التمر كان مكتوباً على المسلمين في كشف طلعاتهم الاستخباراتية، فقد كشف أبو سفيان من قبل أمر بسبس وعدي بن أبي الزغباء من خلال نوى التمر أيضا فكان من الواجب على رجال المخابرات الإسلامية، عدم ترك مثل هذه المخلفات الخاصة بهم، لأنها سهلت على العدو كشف أمرهم بدون عناء.

ذكر آنفاً أن ظلام الليل ــ أو المسير بالليل والكمن بالنهار ــ كانت من الطرق التي استخدمها المسلمون في مكافحة التجسس عليهم، وكانت الطريقة المتبعة خاصة في السرايا، وحققت لهم مبدأ المباغتة التي حققت لهم النصر، إلا أن هذه الطريقة تم كشفها، وأخفق فيها

---

(١) الواقدي : المغازى. جـ١ ص ٣٣٧.

(٢) المصدر السابق : جـ١ ص ٣٥٤.

(٣) ابن حجر : فتح الباري. جـ٧ ص ٣٨١.

المسلمون. فقد أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى في رمضان سنة ٦هـ، فكمن زيد بالنهار وسار بالليل، فخرج بهم دليل لهم، ونذرت بهم بنو بدر، فكانوا يجعلون ناطوراً ـ أى طليعة ـ لهم حين يصبحون فينظر على جبل لهم مشرف على وجه الطريق الذي يرون أنهم يأتون منه، فينظر قدر مسيرة يوم فيقول : أسرحوا فلا بأس عليكم هذه ليلتكم، فلما كان زيد بن حارثة وأصحابه على نحو مسيرة ليلة أخطأ بهم دليلهم الطريق، فأخذ بهم طريقاً أخرى حتى أمسوا وهم على خطأ، فعرفوا خطأهم، ثم صمدوا لهم في الليل حتى صبحوهم [1] .

فقد كشف بنو بدر خطة المسلمين، ورصدوا لهم الطريق، ولولا أن المسلمين قد أخطأوا الطريق في المسير إليهم، لكان وقع لهم ما لا تحمد عقباه ولضاع منهم مبدأ المباغتة.

لما رجع رسول ﷺ من عمرة القضية رجع في ذي الحجة من سنة سبع، فبعث ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارسا سرية إلى بني سليم فخرج العين إلى قومه فحذرهم وأخبرهم فجمعوا جمعا كثيراً وجاءهم ابن أبي العوجاء والقوم معدون، فلما أن رآهم أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا جمعهم دعوهم إلى الإسلام، فرشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه، فرموهم ساعة وجعلت الأمداد تأتي حتى أحدقوا بهم من كل جانب,فقاتل القوم قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم,وأصيب ابن أبي العوجاء بجراحات كثيرة,فتحامل حتى رجع إلى المدينة بمن معه من أصحابه في أول يوم من شهر صفر سنة ثمان[2].

وفي سنة ٧هـ بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، فلم يلق كيداً[3]. فكان السبب في إخفاف هاتين السريتين، هو رصد الأعراب لتحركات المسلمين، على الرغم من اتخاذ المسلمين لكافة وسائل السرية في الحركة.

---

(١) الواقدي : المغازي. جـ٢ ص ٥٦٤.

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية. جـ٣ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٣) تاريخ الطبري : جـ٣ ص ٢٢.

هذا وكان الإخفاق الأكبر للمخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ والذي كاد أن يكون سبباً في هزيمة المسلمين ـــ في يوم حنين إذ أن واجب المقدمة المهم هو حماية القسم الأكبر والحصول على المعلومات عن العدو حتى لا تباغت قوات القسم الأكبر، ولم تنجز مقدمة المسلمين هذا الواجب أبداً، فهي لم تستطع معرفة مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين، واندفعت المقدمة إلى الأمام بسرعة على غير هدى وبصيرة، واندفعت قوات المسلمين وراء تلك المقدمة لاعتقادها بأن اندفاعها هذا أمين وغير خطير إذ لو كان هناك خطر لما اندفعت المقدمة أو لاستطاعت القضاء عليه، إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في الصفحة الأولى من معركة حنين هو عدم قيام مقدمتهم بواجبها، فلم تحصل على المعلومات عن مواضع العدو، ولم تمنع مباغته العدو القسم الأكبر من جيش المسلمين على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد بن الوليد ﷺ [1].

وبالرغم من هذه الإخفاقات السالفة الذكر، إلا أنها إخفاقات بسيطة جداً لم يترتب عليها آثار خطيرة، تحول بين قيام دولة النبي ﷺ.

(١) خطاب : الرسول القائد. ص ٢٥٩.

فوائد الدولة الإسلامية من جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ

كان لجهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ الفضل الكبير في حماية الدعوة الإسلامية في العهد المكي، وفي قيام الدولة الإسلامية في العهد المدني، فقد كان للمعلومات التي قدمتها المخابرات للقيادة الإسلامية أهمية كبرى في رسم الخطط العسكرية للغزوات والسرايا، التي كتب للمسلمين النصر فيها، ذلك النصر الذي مكن الدولة الإسلامية من بسط سلطانها الديني وسياسي على كافة شبه الجزيرة العربية.

فقد هاجر معظم المسلمين من مكة بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ إلى يثرب، وبقي ﷺ في مكة لم يبرحها بعد، وحار أهل مكة في أمره، هل سيظل في مكة كما حدث عندما هاجر أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وبقي هو، أم سيلحق بالذين هاجروا إلى يثرب ويترك مكة ويقع المحظور الذي حسبوا له ألف حساب، لم يستطيعوا الوصول إلى نتيجة في هذا الشأن ولم يعرفوا شيئاً عن خطط النبي ﷺ التي أعدها للمستقبل,لأنه عليه الصلاة والسلام,أحاط خططه بسرية تامة، فلم يفصح عن هدفه حتى لأقرب الناس إليه[1].

فكان لهذه السرية الفضل في نجاح هجرة المسلمين، وكذلك الهجرة النبوية التي ترتب عليها قيام دولة النبي ﷺ ولما تطور جهاز المخابرات بعد الهجرة، أخذ المسلمون يتجسسون على أخبار كفار مكة، وكان في مقدمة المعلومات التي أتوا بها إلى القيادة الإسلامية، أخبار ومعلومات عن تجارة قريش إلى الشام.

وعلى أثر هذه المعلومات حرم المسلمون، كفار مكة من طريق مكة ــ الشام التجاري، فحاول القريشيون أن يستفيدوا من طريق مكة ــ نجد ــ العراق ــ الشام الطويلة، حتى لا تموت تجارتهم نهائياً، إلا أن المسلمين، حرموا قريش من هذا الطريق الجديدة أيضاً.. وكان الهدف الأول

---

(١) د / عبد الشافي : تاريخ الإسلام. ص ١٢٩.

من الحصار الاقتصادي على قريش هو التأثير المادي والمعنوي عليها لتعيد النظر في موقفها ضد المسلمين، وما غزوات الرسول ﷺ للقبائل في هذه الفترة، إلا للتخلص من تهديدها، ولتأمين هدف الرسول ﷺ من ضرب الحصار الاقتصادي على قريش [1].

إن أكبر دليل على مدى استفادة الدولة الإسلامية من جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ هو أن المسلمين " لم يؤخذوا على غرة أبداً " فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر كان له دور فعال في تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم [2].

والمباغتة، هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له، والكتمان من جملة الوسائل المهمة التي تؤدي إلى المباغتة [3]. وقد طبق الرسول ﷺ كل أساليب المباغتة [*]، فقد باغت الأحزاب بأسلوب جديد في القتال هو حفر الخندق ــ كما سيرد ذكره ــ كما باغت قريشاً بأسلوب القتال بالصفوف في بدر، وفي غزوة بني قريظة باغت اليهود بالزمان في حركته بسرعة لا يتوقعونها، فشل معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة، وفي غزوة بني لحيان تحرك شمالاً باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية، وبذلك باغتهم بالمكان [4].

ويعتبر مسير واقتراب قوات المسلمين إلى خيبر ووصولها ليلاً إلى منطقة خيبر دون أن يستطيع اليهود معرفة وصولها، يعتبر ذلك مثالاً ممتازاً لضبط المسير ومباغتة ممتازة لليهود، هذه المباغتة في المكان والزمان حالت دون تعاون اليهود مع حلفائهم وضمنت النصر للمسلمين عليهم،

---

(١) خطاب : الرسول القائد. ص ١٠٠ ــ ١٠١.

(٢) محفوظ : العسكرية في الإسلام. ص ١٢٢.

(٣) الرسول القائد. ص ٦١.

(*) تكون المباغتة بالوقت والمكان والأسلوب المباغتة بالمكان أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو، والمباغتة بالزمان أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقعه العدو والمباغتة بالأسلوب أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو سلاح جديد. المرجع السابق. ص ١٦٩.

(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة.

بالرغم من استقتالهم ورصانة حصونهم[1].

وعندما أتى المشركون إلى المدينة ووقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها [2]، وقالوا : إن معه رجلاً فارسياً فهو الذي أشار عليهم بهذا [3]. ويدل حفر الخندق حول المدينة على نجاح مخابرات النبي ﷺ الاستراتيجية التي عرفته بنوايا أعدائه مبكراً، ليس هذا فحسب، بل تدل على عجز مخابرات الأعداء على المستويين الإستراتيجي والتكتيكي معاً وذلك على الرغم من أن حفر الخندق استغرق نحو عشرين يوماً في المتوسط، كانت كافية جداً لرجال المخابرات لكشفه والإعلام عنه، بدلاً من كونه مفاجأة للمشركين [4].فهذا الخندق الذي لا يمكن أن يخفي على أحد من الناس لم تستطع قريش أن تعرف به إلا عندما شاهدته أمامها لأول مرة فقط، وذلك بالرغم مما كان لديها من جواسيس في المدينة خاصة اليهود ــ ونخص بالذكر يهود بني قريظة حلفاءهم في هذه الحرب ــ كما يدل ذلك أيضا على صلاح المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ذلك المجتمع الذي حافظ على أسراره الخاصة به، فما من فرد مسلم في المدينة، إلا وكان يعرف الهدف من هذا الخندق، فضلا عن المشاركة الفعلية في حفره، ومع ذلك لم يعرف عملاء قريش وجواسيسهم بذلك، ربما يكونون قد شاهدوا المسلمين يحفرون الخندق، لكنهم لم يعرفوا الهدف منه، وربما يكون السبب في عدم معرفة قريش به أن النبي ﷺ قد حرس الطريق كما فعل في فتح مكة فلم يمكن أحداً من جواسيس قريش من الوصول إليهم بخبر الخندق.

وقبل فتح مكة استطاع المسلمون أن يعرفوا من وفد بني خزاعة أمر نقض الهدنة، واستطاعوا معرفة تردد قريش في قراراتها,كما استطاعوا أن يعرفوا كل خبر مهم يدخل إلى المدينة أو يخرج منها في وقته الحازم... ولما ذهب أبو سفيان إلى المدينة حاول أن يعرف نيات المسلمين من

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٠٨.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية. جـ٣ ص ١٣٤.

(٣) الواقدي : المغازي. جـ٢ ص ٤٧٠.

(٤) محفوظ : الإستراتيجية العسكرية.ص ١٥٤.

ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فلم يفلح، وحاول أن يعرف ذلك من المسلمين في المدينة ففشل، وحاول أن يعرف شيئا من وفد خزاعة، فأنكر الوفد ذهابه إلى الرسول ﷺ وهكذا بقيت قريش في عماية من أمرها، حتى وصل جيش المسلمين ضواحي مكة ونزل القضاء المحتوم[1].

ولو انكشفت نيات المسلمين لقريش في وقت مبكر لاستطاعت أن تحشد حلفاءها وتنظم قواتها وتقرر خطة مناسبة لمقابلة المسلمين، ولاستطاعت مقاومة محمد ﷺ وأصحابه أطول مدة ممكنة، ولأوقعت بقواته خسائر في الأرواح والأموال دون مبرر [2].

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته، فقد بقى سير حركته مكتوماً لا تعرف قريش عنه شيئاً، ومع اعتقاد قريش بأن محمداً في حل من مهاجمتها، ولكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجري الهجوم المتوقع [3].

(١) خطاب : الرسول القائد. ص٢٣٥.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥..

(٣) المرجع السابق : ص ٢٢٧.

الخاتمـــة

من خلال ما ذكر آنفاً عن المخابرات على عهد النبي ﷺ يمكن أن نخلص بـــأهم النتـــائج الآتيـــة :

١ــ أظهرت الدراسة أن جهاز المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ لم ينشأ مع قيـــام دولة النبي ﷺ بالمدينة، ولكنه نشأ مع ظهور الإسلام ذاته، ولكنه فى فترة العهد المكي كان أقرب إلى المخابرات الوقائية أكثر بكثير من الميل إلى المخابرات الإيجابية، إذ لم يكن يهتم بجمع المعلومات عن قريش، بقدر ما كان يهتم بمنع وصول أخبار النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم إلى كفـــار مكة.

٢ــ تبين من خلال الدراسة أن المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ كان لها مقراً تدار منه تمثل فى المسجد، كما كان فى هذا المقر موظفون يقومون بالمهام المخابراتية من كتابة وقـــراءة للرسائل السرية وإصدار لبعض الأوامر السرية لقادة الجيوش الإسلامية.

٣ــ أن النبي ﷺ قد وضع شروطاً خاصة لاختيار رجال مخابراته كان يراعي فيها المقومات الشخصية والدينية لهؤلاء الرجال، بل كان ﷺ يضع شروطاً خاصة لاختيار الأدلاء والعملاء الذين كان يستعين بهم.

٤ــ أظهرت الدراسة أن جهاز المخابرات الإسلامية لم يكن يعتمد على مصدر واحـــد فى جمعه للمعلومات، بل على مصادر متعددة تمثلت فى السرايا الاستطلاعية، واستجواب الأســـرى فضلاً عن المجهودات الفردية لبعض العملاء، كذلك تعددت وسائل المخابرات الإسلامية فى تبليغ الأخبار للنبي ﷺ تمثلت فى المشافهة، والرسائل، والشفرة السرية.

٥ــ تبين من خلال البحث أن جهاز المخابرات الإسلامية لم تتعـــدد وســـائله فى جمـــع المعلومات عن العدو فقط، بل تعددت أيضاً وسائله فى حجب أخبار المسلمين عن العدو، وتمثلت فى المواراة، وظلام الليل والقبض على الجواسيس وقتلهم، وحراسة الطرق المؤديـــة إلى المدينـــة،

وكذلك كلمة السر وغيرها من الوسائل الأخرى، كما كان للمجتمع الإسلامي على عهد النبي ﷺ الدور الأكبر فى المحافظة على أسرار الدولة الإسلامية.

٦ــ أوضحت الدراسة أن الدولة الإسلامية على عهد النبي ﷺ شهدت حرباً طاحنة من المخابرات بينها وبين أعداءها، لم تكن تقل ضراوة عن حرب السيف والميدان.

٧ــ أبانت الدراسة أن المسلمين قد استفادوا استفادة كبيرة من جهاز المخابرات، تمثلت فى العديد من الفوائد كان من أهمها أن المسلمين على عهد النبي ﷺ لم يؤخذوا على حين غرة مطلقاً، بل حقق لهم جهاز المخابرات عنصر " المباغتة " للعدو والذى كان بمثابة مفتاح النصر لهم فى جميع غزواتهم وسراياهم.

٨ ــ أظهرت الدراسة أن جهاز المخابرات على عهد النبي ﷺ كان لا يقل فى شئ عن أجهزة المخابرات الحديثة، اللهم إلا فى تعدد وسائل الاتصال الحديثة.

ثبت بأسماء رجال المخابرات الإسلامية على عهد النبي ﷺ

النبي ﷺ القائد الأعلى لجهاز المخابرات.

١ ــ أنس بن أبي مرثد الغنوي.

٢ ــ أنيس بن أبي فضالة.

٣ ــ بديل بن ورقاء الخزاعي.

٤ ــ بريدة بن الحصيب الأسلمي.

٥ ــ بسبس بن عمرو.

٦ ــ بشر بن سفيان الخزاعي.

٧ ــ أبو بكر الصديق.

٨ ــ أبو تميم الأسلمي.

٩ ــ ثابت بن الضحاك.

١٠ ــ جابر بن عبد الله.

١١ ــ جبلة بن عامر البلوي.

١٢ ــ جندب بن مكيث الجهني.

١٣ ــ الحباب بن المنذر.

١٤ ــ حذيفة بن اليمان.

١٥ ــ حسيل بن نويرة الأشجعي.

١٦ ــ حمزة بن عبد المطلب.

١٧ ــ خارجة بن حسيل الأشجعي.

١٨ ــ خبيب بن عدي الأنصاري.

١٩ ــ خوات بن جبير.

٢٠ ــ الزبير بن العوام.

٢١ ــ زيد بن أرقم.

٢٢ ــ سعد بن أبي وقاص.

٢٣ ــ سعيد بن زيد.
٢٤ ــ سليط بن سفيان السهمي.
٢٥ ــ سليط بن النعمان الأسلمي.
٢٦ ــ طلحة بن عبيد الله.
٢٧ ــ عاصم بن ثابت الأنصاري.
٢٨ ــ عباد بن بشير.
٢٩ ــ العباس بن عبد المطلب.
٣٠ ــ عبد الله بن أبي بكر الصديق.
٣١ ــ عبد الله بن جحش.
٣٢ ــ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي.
٣٣ ــ عبد الله بن رواحة.
٣٤ ــ عبد الله بن مسعود.
٣٥ ــ أبو عبيدة بن الجراح.
٣٦ ــ عدي بن أبي الزغباء.
٣٧ ــ علي بن أبي طالب.
٣٨ ــ عمار بن ياسر.
٣٩ ــ عمر بن الخطاب.
٤٠ ــ عمرو بن سالم الخزاعي.
٤١ ــ غالب بن عبد الله الليثي.
٤٢ ــ كعب بن عمير الغفاري.
٤٣ ــ مؤنس بن أبي فضالة.
٤٤ ــ نعمان بن سفيان السهمي.
٤٥ ــ نعيم بن مسعود.
٤٦- يسار مولى رسول الله ﷺ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولا المصادر

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير ت ٦٣٠هـ.

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة. تحقيق / محمد البنا. ط ـ دار الشعب. لم تذكر سنة الطبع.

٢ ـ الكامل في التاريخ. ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة السادسة سنة ١٩٩٥م.

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ت ٢٧٩هـ.

٣ ـ فتوح البلدان.تحقيق / طه عبد الرءوف سعد. ط ـ دار ابن خلدون ـ الإسكندرية.

البيهقي : أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ.

٤ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحقيق د / عبد المعطي قلعجي. ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م.

التلمساني: على بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني ت٧٨٩هـ.

٥ ـ تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. تحقيق / أحمد أبو سلامة. ط ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

الحموي : ياقوت بن عبد الله الحموي. ت ٦٢٦هـ.

٦ ـ معجم البلدان. ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع.

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. ت ٧٤٨هـ.

٧ ــ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ــ جزء المغازي تحقيق د / عمر عبد السلام تدمري ط ــ دار الكتاب العربي للنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م.

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهري ت ٢٣٠هـ.

٨ ــ الطبقات الكبير. تحقيق. د / علي محمد عمر ــ ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مشروع مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٢م.

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. ت ٥٨١هـ.

٩ ــ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق. طه عبد الرءوف سعد ــ ط ــ مؤسسة مختار للطباعة ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع.

السيوطي : جلال الدين السيوطي. ت ٩١١هـ.

١٠ ــ كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب المعروف بالخصائص الكبرى. ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع.

الطبري : محمد بن جرير الطبري. ت ٣١٠هـ.

١١ ــ تاريخ الرسل والملوك. تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ــ دار المعارف ــ مصر ــ الطبعة السادسة سنة ١٩٩٠م.

الطرسوسي : مرضى بن علي بن مرضى الطرسوسي ت٥٨٩هـ .

١٢ ــ تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. تحقيق / كارين صادر ــ ط ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م.

ابن عبد البر : يوسف بن عبد البر النمري. ت ٤٦٣هـ

١٣ــ الدرر في اختصار المغازي والسير. تحقيق د / شوقي ضيف. ط ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ القاهرة سنة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

العسقلاني : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ت ٨٥٢هـ.

١٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة. ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ.

١٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق / محب الدين الخطيب ـ ط ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع.

الفخر الرازي : فخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي. ت٦٠٤هـ.

١٦ ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م.

القرافي : شهاب الدين أحمد بن أدريس القرافي. ت ٦٨٤هـ.

١٧ ـ الذخيرة.تحقيق / محمد بو خبزة ـ ط ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م.

القرطبي : محمد بن أحمد القرطبي. ت ٦٧١هـ.

١٨ ـ الجامع لأحكام القرآن. ط ـ دار الغد العربي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

ابن القيم : ابن القيم الجوزية. ت ٧٥٢هـ.

١٩ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد.تحقيق / عبد القادر حسونة. ط ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م.

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير. ت ٧٤٧هـ.

٢٠ ـ السيرة النبوية. تحقيق / مصطفى عبد الواحد ـ ط ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع.

مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم.

٢١ ـ الجامع الصحيح. ط ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة

الطبع.

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور. ت٧١١هـ.

٢٢ ـ لسان العرب. ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م.

الهرثمي : أبو سعيد الشعراني الهرثمي.

٢٣ ـ مختصر سياسة الحروب. تحقيق / عبد الرءوف عون. ط ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ مصر ـ سلسلة تراثنا ـ لم تذكر سنة الطبع.

ابن هشام : عبد الملك بن هشام المعافري. ت ٢١٣هـ.

٢٤ ـ السيرة النبوية. تحقيق / طه سعد. ط ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع.

الواقدي : محمد بن عمر بن واقد. ت ٢٠٧هـ.

٢٥ ـ المغازي. تحقيق د / مارسدن جونس ـ ط ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع.

أبو يوسف : أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم. ت ١٨٢هـ.

٢٦ ـ الخراج. ط ـ ضمن موسوعة الخراج. ط ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع.

ثانيا المراجع

أحمد : فؤاد عبد المنعم أحمد.

١ ــ أبو الحسن الماوردي وكتاب نصيحة الملوك.ط ــ مؤسسة شباب الجامعة ــ الإسكندرية.

جاد المولى : محمد أحمد جاد المولى.

٢ ــ قصص القرآن. ط ــ دار الجيل ــ بيروت ــ لبنان سنة ١٩٨٨م.

حسن : دكتور / حسن إبراهيم حسن.

٣ ــ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي.ط ــ دار الجبل ــ بيروت ــ الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٦م

خطاب : محمود شيت خطاب.

٤ ــ الرسول القائد.ط ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية سنة١٩٦٠م.

الخولي : أمين الخولي.

٥ ــ الجندية والسلم واقع ومثال. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٢م.

رضوان : عبد التواب إبراهيم رضوان.

٦ ــ مصر والحرب النفسية. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨م.

سويد : الركن العميد الدكتور / ياسين سويد.

٧ ــ الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره. ط ــ شركة المطبوعات للنشر ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٠م.

صالح : نور صالح.

٨ ــ جواسيس غيروا مجرى التاريخ. ط ــ الشركة المتحدة للنشر ــ القاهرة سنة

١٩٧٣م.

عامر : دكتور / عبد اللطيف عامر.

٩ ــ أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية. ط ــ دار الكتاب المصري الطبعة الأولى ١٩٨٦م

عبد اللطيف : دكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف.

١٠ ــ تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة. ط ــ دار الإتحاد التعاوني للطباعة ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع.

أبو فارس : د / محمد عبد القادر أبو فارس.

١١ ــ المدرسة النبوية العسكرية. ط ــ مطبعة الحلبي ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.

فرج : محمد فرج.

١٢ ــ فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية. ط ــ مجمع البحوث الإسلامية ــ القاهرة سنة ١٩٧٢م. سلسلة البحوث الإسلامية. الكتاب رقم (٤٥).

القحطاني : محمد بن سعيد القحطاني.

١٣ ــ الولاء والبراء في الإسلام. ط ــ دار طيبة للنشر ــ الرياض ــ الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

الكتاني : محمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الكتاني. ت١٩٦٢م.

١٤ ــ نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية. تحقيق / علي محمد دندل. ط ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م.

كحيل : دكتور / عبد الوهاب كحيل.

١٥ ــ الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة. ط ــ مكتبة القدسي ــ بيروت لبنان ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م.

لاينبرجر : بول لاينبرجر.

١٦ ــ الحرب النفسية. ترجمه / حمير الرشيد ــ ط ــ دار أمية ــ الرياض.الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

المباركفوري : صفى الرحمن المباركفوري.

١٧ ــ الرحيق المختوم. ط ــ دار إحياء التراث ــ بيروت ــ لبنان ــ لم تذكر سنة الطبع.

محفوظ : اللواء / محمد جمال الدين محفوظ.

١٨ ــ العسكرية في الإسلام. ط ــ دار المعارف ــ مصر ــ سلسلة اقرأ رقم ٥٩٨.

١٩ ــ المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية. ط ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م.

مدني : أمين مدني.

٢٠ ــ التاريخ العربي ومصادره. ط ــ دار المعارف ــ مصر ــ لم تذكر سنة الطبع.

نوفل : دكتور / أحمد نوفل.

٢١ ــ الحرب النفسية من منظور إسلامي. ط ــ دار الفرقان ــ عمان ــ الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

هاني : أحمد هاني.

٢٢ ــ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج. ط ــ الشركة المتحدة للنشر ــ القاهرة سنة ١٩٧٤م.